

مجمع البحوث الإسلامية
السلسلة العلمية

محمد صلى الله عليه وسلم

من نبعته إلى بعثته

تأليف الشيخ
محمد الصادق عرجون
من كبار علماء الأزهر الشريف
(ت: ١٤٠١هـ - ١٩٨٠م)

محمد صلى الله عليه وسلم

من نشأته إلى بعثته

تأليف

محمد الصادق عرجون

السنة الثالثة — الكتاب الحادى والأربعون

٢٧ من رمضان ١٣٩١ هـ — نوفمبر ١٩٧١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

لفضيلة الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم المرسلين ، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداهم إلى يوم الدين .

وبعد :

فقد شغلت السيرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، كثيرا من المؤرخين والكاتبين ، فدونوا المطولات وغير المطولات ، جمعوا فيها كل ما يتصل بخاتم المرسلين .

وكيف لا .. وهو الرحمة المهداة التي أنقذ الله بها الإنسانية من الضلالة إلى الهدى ، ومن الظلمات إلى النور ، وعرف الإنسان برسالته قيمته في الحياة ، فقدّم عليها عقله ، وانطلق من عقاله ، ورقى بها فكره ، وتخلص من موروثات هبوطه .. فلاجرم أن تشغل سيرته - صلى الله عليه وسلم - المؤرخين والكتاب مسلمين وغير مسلمين .

أما المسلمون فلأنهم معنيون برسولهم وما يتصل به من قريب ومن بعيد ، وأما غير المسلمين فإنهم يدركون حق الإدراك ، ويعرفون حق المعرفة فضل رسالته على البشرية بأسرها في مشرق الأرض ومغربها ، ومن ثم تناول السيرة الشريفة بما أتيح له

من فرص الفهم ووسائل التقويم ، وبعضهم على الرغم من ثقافته والثقافة تبعات ثقال . لم يستطع مجاوزة نطاق التعصب لمعتقده وظل حبيس هذه الدائرة غير المحمودة في عرف الثقافة الأمينة والعلم الأصيل ، ومن ثم تناول السيرة الشريفة بفكر حاقد يتصيد غير الثابت من الروايات ويحور الثابت ويلتوى به عن قصده ابتغاء شفاء مافى نفسه .

وكتاب (محمد رسول الله من نبعته إلى بعثته) لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الصادق عرجون . يتناول السيرة الشريفة فى فترة من فتراتها كما هو واضح فى عنوان الكتاب من نبعته إلى بعثته تناول العالم المحقق الذى لا يميل به هوى أو غرض . . يأخذ الأحداث التى جاءت بها الروايات أخذ الناقد البصير ، وينتهى إلى ما تقوم عليه الحجة ، ويصمد أمام البرهان .

وبذلك يقدم هذه الفترة من السيرة الشريفة تقديما منهجيا فى أصالة وعمق يطمئن عليهما طالب الحقيقة .. ويدفع بهما محاولات التصيد والنيل .

والله نسأل أن يفيد منه قارئه فهو سبحانه الموفق لما فيه الهدى والخير .

د . محمد عبد الرحمن بيصار

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

فتح وتمهيد

الحمد لله الذى اصطفى من ينابيع جوده نبع بدائعه ، محمداً أكمل الخلق روحا وعقلا ، وأقومهم بدنا ورسما ، وأعلاهم قدرا وذكرا ، وأرفعهم فضلا ونبلا ، وأشرفهم مجدا وعزا ، وأحسنهم خلقا وخلقا ، وأصدقهم قولا وفعلا ، وأصفاهم طوية وقلبا ، وأطهرهم نيـة وقصدا ، وأهداهم طريقا وهديا ، وأرشدهم سلوكا ومنهجا ، وأسدهم مسلكا ورأيا ، وأنبلهم غاية ومقصـــدا ، وأكرمهم أصلا ومحتدا ، وأعزهم بيتا ومنبعا ، وأعرقهم أرومة وجمعـا .

أدبه فأحسن تأديبه ، ورباه فأكمل تربيته ، آواه إلى كنف عزه فى يتمه ، وهداه من حيرة تعبده إلى نور نبوته ، وأغناه من عيلته فلم يحوجه لغير جوده ، وشرح له صدره حتى انفسح لكتاب الكون علما ومعرفة ، ورفع له ذكره فقرنه إعزازا له فى تحقيق الإيمان به بذكره ، وجعل محبته شطر الإيمان ، وأتباعه عنوان محبته ، فلا إيمـان يقينا لمن لم يكن أحب إليه من نفسه التى بـين

جنبيه ، وأحب إليه من ولده ووالديه ، ولا إيمان يقينا لمن لم يكن هواه تبعا لما جاء به من الهدى والعلم ، ولن يغنى فى قبول الإيمان اتباع مع جفوة ، أولئك يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، ولن يفارق الإيمان صدق المحبة ، فالاتباع المرضى عنوانا لمحبة الله هو الاتباع النابع من المحبة ، ومن هنا كانت طاعته طاعته ، وهديه هديه ، ورضاه رضاه ، وبيعته بيعته ، وصراطه صراطه ، خلع عليه حلل فيضه ، وألبسه خلع رأفته ورحمته ، فكان الرؤوف الرحيم بالمؤمنين ، وكان المرسل رحمة للعالمين ، وخصه بالصلاة عليه ، ومنح ملائكته . تشريفا . هذا الفضل بين يديه ، وأمر عباده المؤمنين أن يتخلقوا بخلقه الأعلى فى سبحات الصلاة عليه ، وجعل سلامهم عليه وصلة أرواحهم بنور روحه ، لينعموا بجنات رده تسليمهم عليه ، ولن يشق من حظى من حبيب الله برد السلام عليه .

فصلوات الله ، وصلوات الملأ الأعلى ، وصلوات المؤمنين فى عالم الغيب والشهادة أينما حل الزمان بهم فى مكان من الوجود على محمد المجتبى من أشرف أرومة ، رسولا لخير أمة كانت به بؤرة شمس الإنسانية ومشرق إشعاع الهداية الربانية ، والسلام الأكمل

الأنضر ورحمة الله وبركاته عليه ما ذكر الله الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون.

وبعد، فهذه سبحات «متطفلة» فى بحار أنوار سيرة الصادق الأمين محمد سيد الوجود صلى الله عليه وسلم، تصور ملامح حياته تصويرا يجرى مع الأحداث والوقائع، لتكون طرازاً من الأسلوب فى تحقيقا معالم ما أبرزه التاريخ الصادق المصدوق من مظاهر الكمال الإنسانى فى حقيقته الإنسانية التى يستطيع العقل البشرى أن يدرك مشاهدها فى إطار من الواقع التاريخى، دون اقتحام يتوثب الحجب تطلعا إلى أنوار خصائصه الروحية وكمالاته النبوية، فذلك ما لا يدركه تصور، ولا يلاحقه خيال، فالبصائر فى أودية خصائصه حسيرة والأبصار من دون وصفه كليلة، وقصارى غلوة الألسنة والأقلام فى هذا المجال الوقوف عند طاقتها فيما تمدها به العقول من رشحات نصوص الأحداث.

فهو صلى الله عليه وسلم الحقيقة الكبرى للإنسانية المستخلفة فى الأرض، تستمد الأجيال فى أعصرها المختلفة من هديه نورا يضىء لها آفاق الحياة، ويشرح لها بقدر ما يطيق كل جيل من تحمل أمانة الله فى إدراك الحقائق الكونية «وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها».

والحديث فى سيرته صلى الله عليه وسلم عريض الجوانب ، طويل المدى ، واسع الآفاق عميق المسق ، غزير المادة ، تسابقت الأقلام فى حابته ، وتنافست الأفكار فى ديباجته ، فالقدماء من المؤرخين والرواة والعلماء حدثوا ورووا وكتبوا ما تناهت إليهم به الأحداث والوقائع من الحقائق ، كما كتبوا غيره من الأقاصيص التى لا تثبت للنقد والتمحيص .

وقد تعددت مناحيهم ، واختلفت طرائقهم ، وتباينت مذاهبهم ، وجمعوا فى دواوينهم الكثير مما ناء به كاهل التاريخ فأطال بعضهم القصير ، وكثر القليل ، ودعم المتهافت ، ولم المنتشر وضم المتفكك ، واخترع ما لم يكن ، وقص ما لقن ، وحكى ماروى ، وكانت دواوينهم مراجع لمن جاء بعدهم ، فالناقد الممحص تخير فكتب ، والعليم البصير حقق وتثبت ، والصحفى الغمر تلقف وأتلف ، والمتعالم الجهول رمرم وضمضم ، والجحود الكنود الذى طوى كشحه على مستكنة من الحقد الأسود للإسلام والمسلمين فى الغرب والشرق أشاح عن الحق ، وعشا عن ضوئه فأدلج فى دياجير الأباطيل وأوغل ، وقال للحق وتقول ونقل وتنقل ، وزوق وبهرج ، وزين وهرج وكان فينا سماعون لهم ، عباد لصنم جحودهم ، فركعوا بين يديه ، وسجدوا تحت

قدميه ، تباهيا بالعصرية ، وتفاخرا بالتجديد ، وتظاهرا بحرية التفكير ، وتكلموا بلسان معبودهم ، وكتبوا بقلمه ، وترنموا بنغمه ، ورقص على توقيعهم أتباع كل ناعق من ذوى الغرارة والجهالة ، وفتن بهم ذوو الثقافة الفجة والمعرفة الضحلة ، فتشابهت قلوبهم وتواءمت أفكارهم ، وأعرضوا عن بينات التاريخ ، وراحوا يحفرون بأظافر عقولهم الحاقدة فى أرض الأكاذيب ليتصيدوا من غثاء الروايات والأقاصيص مايرضى أحقادهم ، وتشبثوا بكل ما يخدش وجه الحقيقة التاريخية زورا وبهتانا ، وتأولوا بأهوائهم وسوء مقاصدهم أحداثا كانت فى السيرة المطهرة عنوانات على السمو والشرف والفضل والنبل ، فقلبوا حقائقها وغيروا معالمها ، وفرطحوا أديمها ، وأبدوا فيها وأعادوا ، وآمنت منهم طائفة ، وكفرت طائفة ، غير أن المؤمنين منهم لم يستطيعوا التحرر الكامل من عبودية التلمذة للمستشرقين والمستغربين من أعداء الإسلام ، ولكنهم وقفوا يتنازعهم الإيمان القاهر بالحقيقة الكبرى ممثلة فى جوهر الأحداث والوقائع التى كانت عناصر الحياة فى الواقع التاريخى لهذه السيرة الناهرة المطهرة ، وتنازعتهم الرغبة الملحة فى التظاهر بالتجديد والعصرية وحرية التفكير ، ويتنازعهم القصد إلى « مقاربة » المنهج الاستشراقى

فى رفض كل ما يتعارض مع رغائبهم من روايات التاريخ وأحداثه وتصيد كل ما يوافق أهواءهم ، أو يشيد نظرياتهم فى توهين شأن الأحداث من هذه الروايات ، ولو كانت مغرقة فى حمأة الأباطيل على ما هو دأبهم فى تدوين وفهم الأحداث التى تضمنتها مراجع التاريخ للسيرة النبوية المشرفة ، ولكن هؤلاء المقهورين بالإيمان استطاعوا أن يرضوا إيمانهم بمزيد من التحمس الإنشائى فى أسلوب بالغ الروعة البيانية ، بيد أن ذلك لم يعصمهم من تيار التشكيك ، بل التكذيب لما لم يفهموا من حقائق الأحداث فى إطارها من النظام الكونى التى وقعت متلبسة به ، وفى كثير من وقائع الإعجاز تشبثوا بمألوف العقول وقضايا العلم وسنن الكون العامة ، وفى كثير من الأحداث الاجتماعية داروا ولفوا حول أنفسهم يفمخمون بالكلمات ، ويجمجمون بالهمسات ينظرون من طرف خفى إلى أساتذتهم وهم يغمزون بلذعات الحقد الأسود أديم السيرة المطهرة ، توهما منهم ، أنهم يستطيعون أن ينالوا من الشمس فى عليائها « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » .

وعمود البحث فى منهجنا هو ما أصلنا فى كتبنا ومؤلفاتنا ،

ولاسيما التاريخية منها[1] أننا نقرأ ، ونقرأ حتى نظن أننا استوعبنا أو قاربنا ، ثم نفحص ونمحص ، ونوازن وننقد ونعتمد ماثبت لدينا صحته سندا ، ويدخل فى وصيد القبول متنا وأصلا ، ولم يعارضه من منخول العقل والعلم ما يعلو عليه ، مع إيماننا بأن للعقل حدا يقف عنده ، ولقضايا العلم موضوعات تنتهى عندها وهما محجوبان عن عالم الغيب ، مقصران دون إدراك كثير من حقائق عالم الشهادة .

وسنن الله العامة التى أقام على دعائمها نظام الكون وترابط عوالمه ترابطا متناسقا ، تجرى إلى جانبها سنن الله الخاصة التى تربط بوشائجها نظام بعض الأحداث عند مناسباتها متناسقة فى وقوعها ، وهذه وتلك محكومة بقهر القدرة الإلهية ، واختيار المشيئة الربانية .

وحديث السيرة النبوية يجرى فى ثلاث مراحل متميزة بخصائصها مترابطة بوحدة موضوعها :

المرحلة الأولى : هى مرحلة الإعداد الإلهى لتمهيد جو الحياة وصهر العوامل المقومة لإبراز الحدث الجلل الذى غير وجه التاريخ ، تغييرا أصيلا شاملا ، وهذه هى مرحلة الاصطفاء

---

(١) لنا فى ذلك كتاب (خالد بن الوليد) وكتاب (عثمان بن عفان) .

لقنوات التحدر الإنسانى من أعالى الذرى إلى وادى الوجود ، وهى أيضا مرحلة التربية والحضانة لمن سيحمل لواء الرسالة الخاتمة الخالدة ، التى جاءت لتصحح أغاليط الحياة فى نظامها الاجتماعى ، لتقيمه علـــى دعائم التوحيد ، توحيد الخالق ، وتوحيد الإنسان ، وتجعل من هذا التوحيد ركيزة للقيم الخلقية والفضائل الإنسانية .

وتمشيا مع منهجنا فى البحث لم نبعد النجعة فى تتبع الأورمات الواغلة فى الدوحة الإنسانية فى أفنانها العربية ، لأن المعالم البعيدة مطموسة فى مهايع التاريخ ، وقد اكتفينا فى البحث أن نجعل بدأنا من فنن نبعة محمد صلى الله عليه وسلم القريبة التى انبثق منها غصناه الزهراوان ، متتبعين تسلسل الحوادث التى تنتهى ذرى أعاليها إلى رائد الرسالات الإلهية الموحدة ، خليل الله ، ورسوله أبى الأنبياء والمرسلين إبراهيم عليه السلام ، الذى كان محمد صلى الله عليه وسلم فى سلسلة نسبه واسطة العقد ، ولؤلؤة الجيد ، وجوهرة القلادة فى ميراث صادق الوعد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، حتى بلغ الكتاب أجله ، وأشرق الوجود بنور محمد صلى الله عليه وسلم وليدا فى مهد الاصطفاء الجامع لما يعرف من فضائل الحياة وكمالات البشرية .

وهذه المرحلة فى تتابع سير الأحداث تمتد منذ ميلاد محمد صلى الله عليه وسلم لمدى أربعين سنة عاشها محمد صلى الله عليه وسلم إنسانا أكمل ما يكون الإنسان، عربيا فى سماته وأخلاقه وفواضله بين قومه، يقاربهم فى كل ما يشده إلى القيم الخلقية النابضة بالكمال، وينأى عنهم مباعــدا فى كل ما يخدش حياء الفضيلة، فكان فيهم المثل المضروب لأفضل الفضائل المقدسة فى سجل الإنسانية. وكان بينهم نموذجا يحتذى فى مكارم الجبلة والتطبع، فهو منذ عرفوه وعرفهم «الصادق الأمين» والصدق والأمانة إطاران لأقدس محاسن الإنسان فى هذه الحياة، لأنهما مجمع الإحسان فى الإنسان.

* * *

طالت رحلة الحياة على التاريخ، وهو مستعبد مكبل بأغلال الطغيان «الأمبراطورى» فى الإنسان، ذلك الطغيان الذى أثقل كاهله بما حمله من أوزار وأضاليل تاهت فى زواياها المظلمة الحقيقة العظمى، حقيقة التوحيد وعقيدة الإيمان بالله الواحد الأحد، التى تنساب من ينابيعها جداول الحرية الاجتماعية للإنسان فى تفكيره وعيشه.

وظل التاريخ مشغولا بتجميع ركام الوثنية الحنوط فى أمم عمرت الحياة دهورا وأحقابا وهو يقول عنها فى إعجاب « أبله » أنها بلغت من العلم والمعرفة الذرى ، وتربعت على قمة «الفلسفة» وتسنمت آفاق التفكير الإنسانى ، وقدمت للحياة أرفع قضايا العلم ، وأعلى قمم الحقائق فى المعرفة ..

ولكنها عاشت حياتها فى حمأة الوثنية الهابطة ، فعند كل أمة عشرات « الآلهة » التى تعبد من دون الله ، وتقرب لها القرابين وتنشب بينها الحروب المدمرة للشعوب باسم « الآلهة » من أجل شهوات الطغيان « الأمبراطورى » الذى كان يستغل هذه الوثنية « الداعرة » ليعيث فى الأرض فسادا باسم « الآلهة » .

وتنبه التاريخ — بعد أن شاخ وترهل — وحزم تراثه وحمله على مناكبه ، وسار به فى سرعة خاطفة ميمما مشرق الشمس ، حتى إذا بلغ « الربوة الحمراء » فى فيافى الجزيرة العربية ألقى عن كاهله أثقاله فى الجزيرة العربية يومئذ فى عزلة موحشة ونسيان شرود ، ولكن ضربات المخاض

القاسية التى كانت أناتها تؤذن بانفراجها عن الحدث الجلل ذكرت التاريخ بها ، فذهب إليها وهو يلهث مكدودا ، وغط فى نوم قلق ملىء بالرؤى وأضغاث الأحلام رجعا لصدى ماضيه السحيق .

وعلى صوت حفيف أقدام خافت فى رمال الصحراء تيقظ من غفوته فانبعث من مرقده متكاسلا يتمطى ويمسح عن عينيه رماص الكرى ، وإذا به مع نفسه وحيدا إلا من طفل فى مهده يضغو من شدة العطش . وإلى جانبه امرأة رصينة ستور ، لهفانة لا تستقر نظرتها على شىء ، حتى على طفلها المتضاغى فى مهده ، كأنها تخاف أن تنظر إليه ، بيد أنها كانت تنوء تحت وطأة الآلام تعصر قلبها ، وتحرق كبدها كلما حرك الطفل قدميه يفحص بهما رمال الصحراء ، كأنه يطلب شيئا أودعه له فيها حفيظ أمين .

وانفجرت الرمال عن الوديعة ، فإذا هى « زمزم » عين لا تغيض ، وصدق إلهام « هاجر » حين قالت لأبى الطفل الذى جاء به مع أمه إلى هذا الوادى الأجرد اليابس : « الله أمرك بهذا ؟ » قال الخليل عليه السلام : نعم ، ولم يزد ، ثم ولى مسرعا كأنه على موعد : « إذن لا يضيعنا » .

أجل يا أم اسماعيل لن يضيعكما الله ، وفى صلب وليدك وديعة الوجود ، وهدية السماء إلى الحياة .

أجل يا أم اسماعيل إن الله سيجدد بوليدك صادق ديباجة الحياة ، وسيخلع عليها من جلاليب الفيض السماوى ما يحول ظلامها نورا ، وجبالها مآذن ، وهضابها منائر للهداية ، ووديانها مساجد يتعبد فى محاريبها الموحدون ، وآفاقها مراتع للحرية الإنسانية ، يرتع فى مسارحها المؤمنون بقداسة الحياة ، وتنفلق صخورها عن سر الأسرار فى هذا الوجود ، عن النور المخبوء فى كنز الغيب ، عن كلمة الله وأمانته منذ كان آدم بين الطين والماء .

صبرا أم إسماعيل ، إن إبراهيم عليه السلام خليل الله ، وللخليل مع الخليل مناجاة ، وفى المناجاة أسرار وأسرار ، سوف تنفجر عنها رمال الحياة كما انفجرت عن « زمزم » رمال الصحراء .

أجل يا أم إسماعيل ، لقد جىء بك وبوليدك إلى هنا لتؤديا أمانة الله إلى رمال الحياة فى هذا الوادى « الصديان » لتكون الآية الإلهية أضخم من تراث التاريخ كله فى فلسفته ، وعلومه ، ومعارفه ، وتجاربه ، وأنظمته ، منذ وعى التاريخ حقيقة الحياة .

وافتر ثغر « هاجر » عن ابتسامة الرضى ، وهى ترى واديها

الأجرد المقفر يجذب إليه فئات من الناس ، كانو يمرون به من قبل فلا يجدون فيه أثرا للحياة .

وشب إسماعيل وترعرع بين أطفال جرهم وشبابها عربيا خالصا ، ولما استوت رجوليته أصهر فيهم إلى سيدهم ، وجاء إبراهيم خليل الله عليه السلام زائرا ولده ، ولقى إسماعيل أباه ، وتحدثا حديث حنان الأبوة ، ووله النبوة ، وافضى خليل الله إلى ابنه اسماعيل بسر رمال للصحراء التى كان قد أودعه فيها مع أمه فى هذا الوادى ليؤديا أمانة الله إلى الحياة .

ونبأه بأمر الله فى بناء بيته وقد بوأه الله مكانة من الربوة الحمراء ، وبنى إبراهيم وإسماعل عليهما السلام « الكعبة المشرفة » بيتا لله تعالى ، ليكون رمزا إلى الحقيقة الكبرى فى الوجود ، حقيقة التوحيد ، فى توحيد التوجه إلى الله الواحد الأحد ، وتضرع خليل الله ودعا ربه وأمن إسماعيل أن يجعل الله أفئدة من الناس تهوى إلى ذريته فى جوار هذا البيت المحرم « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » .

وهذه ضراعة داعية تنساب من قلب خليل الله إبراهيم لجوء إ

إلى أرحم الراحمين أن يجعل من هذا الوادى الأفيح المقفر اليابس بلدا عامرا بذرية هذا الوليد الذى جاء به إلى هنا وحيدا إلا من أمه الراضية الوالهة - استجابة لأمر الله تعالى ، ولما يعلم الخليل ما كتبه قلم القدر الحكيم فى لوح الكون من أسرار تحجبها رمال الصحراء فى هذا الوادى المجيد ، ولكن الهام « الخلة » فى وحى النبوة ألقى إليه كلمة الله فى رسالة التوحيد ، تلك الرسالة التى حاف عليها تاريخ المجتمع البشرى ، فلم تجد لها فى تراثه إلا سم الخياط منفذا تنسرب منه متسللة فى مسارب الحياة .

وكانت هـــذه الضراعة الداعية دعوة عامة ، تستهدف الاستقرار والأمن ، وجلب الرزق لذرية اسماعيل ، وتبرز ما استسر وراء سجف الغيب من تجليات وأحداث تجعل من اسماعيل دوحة تلقى بظلال أفنانها على جنبات الوادى الأجرد ، فتحيله حياة حية خالدة ، تهوى اليه الأفئدة من أطراف الأرض ، هائمة والهة بحب الحقيقه الكبرى فى رمزها العظيم « الكعبة المشرفة » « وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود ، وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » .

واستجاب ابراهيم وإسماعيل لأمر الله ، وطهرا بيته الذى

جعله مثابة للناس وأمنا ، طهراه من رجس الوثنية التى أثقلت كاهل التاريخ على طول مسيرته فى حياة المجتمع البشرى،ونادى ابراهيم فى الناس بالحج إلى بيت الله ، وأبلغ الله النداء إلى أهله فى عالمى الغيب والشهود ، وأتوا من كل فج عميق ملبين دعوة ربهم على لسان خليله إبراهيم ، يتداولون عصرا بعد عصر ، وجيلا وراء جيل،تحقيقا لوعد الله بقبول دعاء إبراهيم وإسماعيل « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم » .

وتزاحفت القرون والعصر متواثبة ، وهى تطوى بساط التاريخ ، وتسوق الأجيال ، جيلا إثر جيل ، وبلغت دعوة إبراهيم العامة مداها فى الانتشار ، وتكاثر ولد إسماعيل حتى كانوا غمرة العرب وجمهرتهم ، وسادوا وتسيدوا وتشعبوا وتفرعوا ، وملئوا السهل والجبل ، ونزلوا الوديان وتسنموا القنن .

بيد أنهم نسوا دعوة أبيهم إبراهيم ، وجهلوا منها الحقيقة الكبرى ، حقيقة التوحيد ، وأوغلوا فى وثنية بايدة ، وجعلوا من « بنية » إبراهيم وإسماعيل المطهرة « متحنا » لوثنيتهم ، يضاهئون بها وثنية الفجور من قبلهم .

وتنفس الغيب ، وبدت إشراقة الفجر الجديد ترسل أشعتها من أفق « الربوة الحمراء » ، وتعالى صوت الحق فى ترنيمة الرسالة العظمى ، رسالة التوحيد والعلم والطهر ، علم الكتاب والحكمة ، لا علم الهلوسة والفلسفة ؛ ورتل القدر مرة أخرى ضراعة أخرى للخليل فى دعوته الخاصة بعد أن حقق الله له دعوته العامة ، وكانت هذه الدعوة الخاصة هى ميراث الحياة فى خلة الخليل ، والعنوان المشرق فى ملته الحنيفية والكلمة الباقية من نبوته ورسالته ، وجاءت هذه الدعوة متوافقة تمام التوافق مع نفس الغيب فى إشراقة الفجر ، وتكلم الله جل جلاله ، وعز سلطانه على لسان خليله يلهمه سر الوجود فى ضراعة خاصة يطلب بها إظهار مكنون الغيب حين يحين الحين « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم » .

يقول الإمام ابن كثير : وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدر الله السابق فى تعيين محمد صلوات الله وسلامه عليه رسولا فى الأميين إليهم وإلى سائر الأعجميين من الأنس والجن .

وحان الحين وكانت كلمة الله الخاتمة الخالدة ، فى اصطفاء منابع السر الأعظم من دوحة الإنسانية ، واستخلاص ثمرتها فى معنى كلمة الله ، وجاء التعبير البيانى عن ذلك الاصطفاء مصدقا لما بين يديه « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم فأنا دعوة أبى إبراهيم » وكان خلاصة « الخلة » فى نبوة الرسالة من إسماعيل صادق الوعد محمد الصادق الأمين ، المبعوث رحمة للعالمين ، بين يدى الساعة ، خاتما للنبيين .

تمهيد

الرسالات الإلهية والعقل الإنسانى :

مكان الرسالات الإلهية من الحياة مكان العقل الإنسانى من أفراد البشر ، والعقل هو المرشد الأول للإنسان، يهديه إلى سواء الطريق ، وينير له ظلمات الوجود ، ويفتح أمامه مغاليق الكون ويسدده فى مسيره ضاربا فى بيداء الزمن حتى يقضى ما قدر له من بقاء .

وعلى قدر استعداده الفطرى يكون كسبه من تجاريب الحياة، وعلى قدر ما يكسبه من تلك التجاريب تكون فائدته ، وعلى قدر هذه الفائدة تكون مكانة الفرد فى الجماعة ومكانه منها ، ومن ثم يتدخل العقل بوساطة الفرد فى إرشاد الجماعة وهدايتها وتسديدها والسمو بها صعدا فى مدارج الرقى والكمال .

وإذا كانت الحياة لم تعرف حدا لرقى الفرد فى الجماعة البشرية ينتهى إليه ، فأحر ألا يكون للجماعة نفسها حد تقف عنده فى رقيها ، فالحياة متجددة، والمعارف الإنسانية متزايدة والعقل البشرى دائب العمل ، وخزائن الكون لا تزال مغلقة ،وأسراره ما برحت محجبة وحقائقه ما فتئت مجهولة .

وكيف يقف رقى الفرد أو الجماعة عند حد ومهمة العقل

فى الحياة هى كشف تلك الأسرار الكونية ، ومعرفة حقائق الوجود واستخدامها فى إفادة الإنسانية ؟ ومن الغرور العقلى أن يزعم إنسان أنه وصل إلى درجة من المعارف والعلم بحقائق الكون وأسرار الوجود تقربه من الكمال المقدور للبشرية ، فالمجهول من تلك الأسرار وهذه الحقائق لا يزال أعظم بكثير جدا مما عرف ، لا يزال الكثير منه مستخدما فى الحياة على غير جهته التى تفيد منها الحياة ، فالمجال أمام العقل واسع المدى فسيح الجنبات .

بيد أن هذه المعارف العقلية التى لا تنتهى عند حد فى الأفراد والجماعات هى فى الواقع المشهود محدودة المنزع ، لا تتعدى مشاهد الوجود ومظاهر الكون .

وهنا يأتى دور من أدوار الرسالات الإلهية فى قيادة العقل إلى مجاهل الطبيعة ومطويها ومداخل الوجود ، وبواطن الحياة ، بل إلى ما وراء الطبيعة وإلى ما فوقها ، إلى الخالق جل شأنه ، وإلى عظيم قدرته وباسط سلطانه وبالغ حكمته ، وواسع علمه ، وهيمنة إرادته ؛ وإلى الكون وما فيه من أسرار وآيات ودلائل تدل - بما اشتملت عليه من نظام متماسك وقوى مترابطة وسنن متوافقة؛ ومنافع متتابعة - على فضل الله ورحمته ولطفه وإحسان وجوده وقهره وكبريائه ولطائف تدبيره .

وهذا مجال تنبيه وإرشاد تتجه فيه الرسالات الألهية إلى مخاطبة العقل لتوجهه إلى تعرف جلال الكون وعظمة الوجود وخطر الحياة ليقف منها على وشائج التكوين والإبداع التى تصل المخلوق بالخالق ، وتربط بين أجزاء الوجود، وتكشف عما طوى فيها من منافع واستجابات لرغبات الإنسان المادية والروحية .

وكلما اتسعت معارف العقل عن حقائق الكون ازدادت استجابات الحياة له وقوى سلطانه فى تسخير قوى الطبيعة فيما يفيد النوع الإنسانى ويرقى عناصره ويدعم قواه ، ويهىء أمامه الفرص التغلب على احتمال أعباء الحياة فى ثقة واطمئنان .

وليس العقل الإنسانى بمعصوم من الزلل والخطأ، بل ربما كان من الحق أن يقال أنه كثير الخطأ والزلل ، ولا سيما إذا ضعف أمام الغرائز والقوى الحيوانية واستجاب لدواعيها وخضع لسلطانها فأنه حينئذ يصبح أداة طيعة لهوى تلك الغرائز وعبدا لشهواتها تتحكم فيه وتوجهه فى طريق أغراضها وتصبح معارفه وسيلة من وسائلها فى تلوين الحياة كما تشتهى وتريد .

وتاريخ الحياة والأحياء يدل على أن سلطان الغريزة كان أقوى فى الأفراد والجماعات من سلطان العقل ، ويدل على أن

الحياة أسرع استجابة لنداء الغريزة من منطق العقل ، وأسلس قيادا فى يد الغرائز منها فى يد العقل ، والغرائز فى الإنسان شبيه بعضها ببعض فى مطالبها وغاياتها ، ولكنها تختلف فى الأفراد قوة وضعفا ، وظهورا وكمونا وليس العقل الإنسانى على هذا الغرار فى أفراد الإنسان ، فهو يختلف فيهم أشد الاختلاف ، وقلما يتفق عقل وعقل ، فاتفاق الغرائز فى الغايات يكسبها قوة فى مطالبها وتنفيذ أغراضها ، واختلاف العقول يوهن من سلطان العقل على الغرائز ، والغرائز منافذ للقوى المادية تتنفس منها ، ومن ثم نراها تشتط فى تنفيذ رغائب الجسد وتحاول أن توجه قوى الحياة — حتى العليا منها - إلى مقاصد مادية ، لا وزن عندها للقيم الخلقية من العدل والرحمة والإيثار إلا إذا كانت وسيلة لنفع مادى وقضاء شهوة جسدية ، فالظلم والقسوة والأثرة فى لغة الغرائز ومنطق المادة الصماء تساوى العدل والرحمة والإيثار فى كثير من الأحايين والأوقات .

فالغرائز إذا انطلقت على سجاياها وتغلبت على العقل كيفت أعمال الأفراد والجماعات على حسب ميولها وهواها ، وخلعت على تصرفات الأشخاص والأشياء نعوتا من لغتها حتى تصبح القوة الغاشمة هى الميزان الأعلى فى شرعة الحياة ولا فرق بين أن يكون هذا

الميزان منصوبا على حشائش الأحراش والأدغال وعلى أبواب الكهوف والغيران، أو موضوعا على بساط سندس الحضارة الزائفة الملوثة بدماء الضعفاء، وهذا هو المنبع الذى نبعت منه المذاهب المادية منذ قامت الحياة.

وهنا يأتى دور آخر للرسالات الإلهية هو دور إيقاظ العقل من ذهول سطوة الغرائز وإفساح المجال أمامه لتنظيم رغائبها فى صورة تخضعها لموازين الأخلاق، وإعطاء الفضائل قيمتها فى الحياة ووضع الرذائل فى مواضعها منها حتى تقاس كل فضيلة أو رذيلة فى أعمال الأفراد والجماعات بالمقياس العادل الذى لا يعرف الغش والخداع (١).

(١) فى صدد تحديد موازين الأخلاق، قد تعرض للباحث هنا مشكلة يراها بعض الباحثين الاجتماعيين من أعوص المشاكل، تلك هى مشكلة تحديد حقائق الفضائل بتحديد يميزها عن الرذائل، وهل ذلك من مهمة العقل وحده، أو له فى ذلك شريك؟ وأى شىء هو ذلك الشريك؟ أو أن العقل لا شأن له فى ذلك، ويجب أن ينحى عن هذه المرتبة، وإذا أبعد العقل عن هذا المجال فأى كائن هو الذى توليه الحياة ثقتها؟ ولا يمكن أن يكون ذلك الكائن هو الغرائز وقد عرف شأنها بيد أن جميع أهل الأديان والملل يطمئنون كل الاطمئنان إلى أن مرجع ذلك هو الرسالات الإلهية.

فالدور الأول للرسالات الإلهية دور قيادة وتعليم ، ومجالها في هذا الدور هو الحقائق الكلية والمعارف العليا ، فهي التي تنبئ عن الغيب وتكشف عن حقائقه في صور واقعية ، وأمثال تقربها إلى الواقع المشهود حتى تكون دانية إلى مجال العقل ومدركاته وهي التي تتحدث عن الخالق ونعوت كماله ، وعن فيض الحياة من خزائن رحمته ، وعن عوالم السماء والأرواح ، وعن الوحي والنبوة ، وعن نظام الكون وقوانين ترابطه ، وعن الحياة الأخرى وما فيها من ثواب وعقاب .

ولا سبيل للعقل وحده إلى إدراك هذه الحقائق إدراكا يتجاوب صداه مع الواقع الغيبي في هذا المجال ، لأن الغيب محجوب عن الحس ، والحس بأدواته المادية هو المشكاة التي يستضيء بمصباحها العقل ، فيهتدي إلى أوليات من الحقائق يحمل عليها مثيلاتها بضرب من القياس والتشبيه ، ومن هذه الحقائق تتولد القضايا العقلية المنتزعة من الوجود المشهود انتزاعا مباشرا أو غير مباشر .

فالعقل الإنساني في هذا الدور يجب أن يكون خاضعا للرسالات الإلهية ، آخذا عنها ، وهي التي تمده وترشده وتهديه ، فإذا استجاب لها أمن العثار والزلل ، وإذا تأبى عليها وقع

فى أغلال الغرائز ، وانقلاب عمله إلى استجابات مادية تصب المعارف العليا فى قوالب وثنية تعتمد على التشبيه والتصوير ، وتاريخ الفلسفات والأديان ملىء بالشواهد الصادقة على ذلك .

أما الدور الثانى للرسالات الإلهية فهو دور مؤاخاة العقل ومظاهرته حتى يتغلب على جموح الغرائز ويكفكف من حدتها ، ويطامن من غرورها ، ويقلل من اندفاعها ، ويوجهها وجهة صالحة دون كبت يميتها أو انطلاق يفسدها .

ومجال هذا الدور هو الحياة الواقعية التى يحياها الأفراد والجماعات ، وتحديد علاقة الفرد بالفرد ، وعلاقة الفرد بالجماعة ، وعلاقة الجماعة بالجماعة ، بل علاقة الفرد والجماعة بالحياة والأحياء ، وتنظيم هذه العلاقات على أسس من العدل تعطى كل ذى حق حقه وتشيع بين الأحياء الثقة والاطمئنان والتعاطف والتواس والمحبة والأخاء .

والعقل الإنسانى فى هذا الدور يجب أن يكون هو المسيطر على الغرائز ، يقودها بحكمته ويوجهها بسياسته ، والرسالات الإلهية هى المرشد العليم ، والمستشار الأمين والناصح الحكيم ،

وعلى ضوء إرشادها ونصحها ومشورتها يسير العقل فى طريقه مؤديا واجبه على أكمل وجه فى الحياة .

ولقد مرت الإنسانية بأطوار متعددة اختلفت عليها فى تلك الأطوار الرسالات الإلهية فكانت فيها معالم للتاريخ على تلك الأطوار ، وكانت كل رسالة مبدأ لطور ونهاية لآخر .

وقد احتفظت تلك الرسالات بخصائص ومميزات هى فى الواقع خصائص ومميزات الأطوار التى سايرتها ، ومن تلك الخصائص يعرف نصيب العقل الإنسانى فى تلك الأطوار ، فهو مولود مع الإنسانية وخاضع لما تخضع له من حكم التدرج فى طريق الاكتمال .

وكما مرت الإنسانية فى مرحلة الطفولية الغريزية محكومة بالغرائز المنطلقة مر معها العقل الإنسانى فى هذه المرحلة منطلقا مع الغرائز يفتح لها أبواب المادية المجنونة الجائعة ، وجاءت الرسالات الإلهية فى هذا الطور تومىء إلى الحقائق العليا ولا تنصح وترمز ولا تصرح تمشيا مع طاقة الإنسانية الساذجة ، وحالة الطفولة التى يمر العقل مرحلتها فى هذا الطور من أطوار التاريخ البشرى .

واستعراض الصور الجدلية التى يقصها التاريخ وتحدثنا بها كتب الرسالات الإلهية عن أوائل الأنبياء والرسل ومتقدميهم فى الزمن كنوح وإبراهيم وهود وصالح وشعيب مع أممهم تدلنا على أن العقل البشرى وقتئذ كان مدثرا فى مهاد الطفولة محاطا بالغرائز تهدهده حتى يظل نائما لصيقا محجوبا عن السماء .

وقد يكون هذا هو السبب فيما يقع من الوهم فى صلاحية العقل وحده لإدراك الحقائق العليا إدراكا مباشرا دون اعتماد على الحس ، ولعل هذا الوهم يستند إلى تاريخ الفلسفات القديمة التى أطلقت للعقل أعنة السبح فيما وراء الطبيعة : فى الخالق ونعوته ، وفى عوالم الأرواح والملائكة والأفلاك والسموات ، وفى الحياة وطريقة صدورها عن (الله) تعالى .

ولا شك أن هذه حقائق عليا لا سبيل لتدخل الحس فيها ، بل استقل العقل فى خوض بحارها فغرق فى أعماقها ، ثم طفا وفى يديه قضايا ومعارف آمن بها وأقام عليها صرح أعرق فلسفاته القديمة ، وهى الفلسفة الاغريقية التى ثقفها فلاسفة الإسلام فى المشرق والمغرب ، وكان عليها معولهم ، وها هو ذا العلم التجريبى وفلسفات العقل المتوثب قد زعزعا أركان تلك الفلسفات القديمة

ونحن إذ تجاوزنا عن قول بعض مؤرخي الفلسفة القديمة كالقفطي : إن الفلسفة الإغريقية كانت وليدة الفلسفة المصرية ، وهذه الفلسفة المصرية اعتمدت في أصلها على بقايا من الرسالات الإلهية كرسالة نبي الله ورسوله (ادريس) عليه السلام ، وهو الذي تسميه الفلسفة (هرمس) فيكون - حينئذ - العقل فيها غير مستقل ، وليست هذه القضايا من عمله وحده ، بل اعتمد في أصلها على نبوآت الرسالات الإلهية ، إذا تجاوزنا عن ذلك - رغم أننا لا نجد سنداً تاريخيا يصحح رواية القفطي - فإننا لا نفقد أثر الحس واضحاً في كثير من قضايا هذه الفلسفة وحسبنا أن نلق نظرة على أهم قضاياها عند أبرع فلاسفتها ، تلك هي قضية (الإله) الخالق عند (أرسطو) فسوف نجد عمل الحس هنا سابقا على عمل العقل ، ولعل نظرية (العقول العشرة) التي فتنت بها هذه الفلسفة تعطينا صورة عن عمل الحس وقياس الغائب على الشاهد ، وهذه النظرية (العقول العشرة) التي ابتدعها أرسطو أبرع فلاسفهم تعتمد على وجوب الوسائط في الخلق والتكوين وهذا من آثار عمل الحس في التفكير .

وكان هؤلاء الرسل الكرام يضيقون ذرعا بهذه البلادة العقلية ، وذلك التعبد الذليل للغرائز العمياء التي تستلهم المادة

وتستهدى بها فى أغراضها ، وتستوحى الأرض فى تحقيق مطالبها وتتصامم عن سماع صوت السماء ، حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أن منافذ الأمل قد سدت وأبواب الرجاء فى تخليص العقل من سلطان الغرائز وسيطرتها قد أوصدت لم يبق لهم إلا طلب التطهير العام بافناء هؤلاء الميؤوس من هدايتهم وتحرير عقولهم ، تطلعاً منهم إلى طور إنسانى جديد ، يتجدد به ميلاد الإنسانية بعقل يشب عن الطوق ، وتتهيأ له وسائل التغلب من أغلال الغرائز ، مستعداً لفهم لغة فوق لغة الحس ، تتحدث عن عوالم الغيب وموازين الأخلاق .

ولقد كان للعقل الإنسانى ومضات فى هذا الطور من أطوار الحياة ، إذا نبهته الرسالات الإلهية تنبه ، وأشرقت آفاقه بنور الحق فى سرعة خاطفة ، أما إذا غلبت عليه كثافة الغرائز المتحكمة فإنه سرعان ما ينكص على عقبيه ، وعاد كأنه لم يبصر من الحق والهدى شيئاً ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم فى قصة إبراهيم رسول الله وخليله عليه الصلاة والسلام « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ، إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ، قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين ، قالوا أجئتنا

بالحق أم أنت من اللاعبين، قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين ، وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ، فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون ، قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ، قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ، قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ، قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم، قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ، فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ، ثم نكسوا على رؤسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون » .

وهذا تصوير بارع لمغالبة الطبيعة المادية القائمة للعقل الحبيس فى أتون الغرائز ، مع قارعات الحجج الإلهية وداويات النذر ، فلم يبق أمام الرسالة الإلهية إلا الأسف الحزين على إهدار كرامة العقل الذى بدأ يشب عن المهد « قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون » .

وفى هذا الطور من أطوار الحياة حفل التاريخ الإنسانى بأعمال عقلية ، سجلها فيما ادخره من فلسفات كانت فى نظره حقائق فكرية .

وفى هذا الطور بدأت الرسالات الإلهية تمزج بين الحقائق الكلية وأمور الحياة الواقعة والحوادث الجزئية التى تحيا مع الناس ويحيا الناس معها ، وجاءت شريعة التوراة تتحدث عن الله تعالى ، وعن الكون والخلق ، والأنبياء والرسل ، وعن الوحى وعن الملأ الأعلى مما لا يدركه الحس ، وتتحدث عن حياة بعد هذه الحياة وعن الثواب والعقاب ، وعن علاقة الناس بالخالق ، وعلاقاتهم بعضهم ببعض ونحو هذا من التشريع الذى لم يعهد فى شرائع الرسالات السابقة .

بيد أن أسلوب التوراة فى التعبير عن ذلك كله كان أسلوباً قائماً على الاستعانة بالحس ، وتغمره الأمثلة والصور الحسية ، ويقل فيه التجريد ، بل يكاد ينعدم ، وذلك مراعاة لأثر الرواسب الغريزية المستخفية فى الطبيعة الإنسانية ذلك الأثر الذى كان يطفو أحياناً على سطح الحياة فى غفلة من العقل كفقاعات الهواء الفاسد التى تتنفس عنها مستنقعات الغرائز .

وكان مظهر ذلك جيل بنى إسرائيل ، فهو جيل عرف من المعارف العليا كثيراً من الحقائق ، وخاطبت فيه الرسالات الإلهية العقل - على ظلعه عندهم - وشرعت له ، وهو نفسه الجيل الذى تبلد وأنكر كل معارفه العقلية فى لحظة استعلى فيها سلطان

الغرائز على العقل فحجبه عن السماء ، وشده إلى الأرض ، فنسى حتى تنكر لماضيه القريب ، والقرآن الحكيم صور ذلك كله تصويراً بارعا فى قوله تعالى « وأورثنا القـــوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ، وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون ، إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ، قال أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين » .

فانظر .. ليس إلا مجاوزة البحر بهم ناجين من فرعون وعذابه ، وكانوا قبل تلك المجاوزة المثل المضروب فى عالم زمانهم فى عرفان الحقائق العليا من توحيد الله ونعوت كماله وعوالم الغيب مما هو وراء الطبيعة ، فنسوا كل شىء من هذه المعارف . وطمس على عقولهم فعادوا كأخبث ما كانت طبيعة مظلمة ، وكأحط ما كان عقل سجيناً ، وكأبلد ما كانت أمة من النـاس ، وكأجهل ما كان جيل فى تاريخ البشرية .

أما ماجاءت به التوراة إليهم من التشريعات الجزئية للحوادث

الواقعة فى الحياة ، فقد أحالته غرائزهم المادية المسعورة إلى رسوم استغلالية لا تقيم وزناً للقيم الخلقية ، ولا للفضائل الإنسانية ، ولم يبق - عند تطبيق هذه التشريعات - فيصل بين فضيلة ورذيلة، وأصبحت الحياة — فى نظرهم — متجراً للاستغلال والمرابحة ، كأنهم ولدوا بغير قلوب ، وخلقوا بغير وجدان ، فليس بين أحضانهم رائحة للعواطف الإنسانية فى معاملة الناس من غير جنسهم ، بل من أنفسهم .

ومن ثم كانوا - وكانت الحياة من أجلهم - فى أشد الحاجة إلى « ثورة » عاطفية حنون تنبع من وجدان ملىء بحب الحياة وحب الأحياء « ثورة » تعرف الحق وتقدسه ، ولكنها تلفه فى غلالة الإيثار ، وتعرف العدل مقدراً جلاله ولكنها تغلفه بالرحمة الحانية ، وتعرف الإخاء وشيجة بين أبناء الإنسانية قاطبة ، ولكنه تجعله مودة موصولة بالتسامح والسماحة .

« ثورة » تقوم فى داخل كل نفس إنسانية ، يسمع صوتها القلب والعقل وهى تقلب الضمير ظهراً لبطن ، وتعرضه لشمس الحياة كما يعرفها الناس ، عساه يستطيع أن يصنع من غلاظ الرقاب ، قساة القلوب والأكباد أناسى يعيشون فى دفء الشمس كما يعرفها سائر الناس .

وكان الله رءوفا رحيما ، فجاءهم بعيسى المسيح بن مريم عليه السلام ، روحا من الله وكلمة رحمته الودود ، وأنزل عليه الإنجيل ترنيمات عاطفية باكية ، ترمى بدموعها إلى مداخـــل قلوبهم لتطهرها من رجس غرائزهم المادية المظلمة ، وتكفكف من غلواء نفوسهم الجامحة .

ولكن طبيعة اليهود لم تألف السماحة وتعاطف الرحمة ؛ فمسخوا ترنيمات الرحمة الانجيلية إلى وثنيات ترابية ، فلسفتها لهم غرائزهم فى صور مادية بعيدة كل البعد عن آفاق التفكير العقلى بله التراحم العاطفى ، فلبسوا الحق بالباطل ، وكتموا الحق تضليلا ، وافتروا على الله الكذب ؛ وجعلوا من المسيحية مسخا غامضا لا تسيغه العقول .

ووقف العقل وحده فى مكانه من الحياة ؛ يتطلع مشدوها فى رجاء وأمل ؛ إلى السماء يستهديها الرشد ؛ ويسترشدها الهداية ؛ ويسألها فى ضراعة أن تمده بمددها فى رسالة إلهية كاملة شاملة توائم نضجه ورشده ؛ تعرف الحق والعدل ؛ وتتخذهما أساساً لبناء الحياة الكريمة .

وتعرف السماحة والرحمة ، وتجعلها أساسا لبناء حياة الاخاء الإنسانى ، وتعرف قبل هذا وذاك فطرية العقيدة التى تعتمد

فى معرفة الله فاطر السموات والأرض على دراسة الكون فى غير غموض ولا تلبيس ، ولا تغمض عين العقل على قذى فلسفات جوفاء ، ولا تقبل عليه وصاية من خارج تفكيره ، بل تمنحه حرية الانطلاق الكامل فى كل تملك قوته العمل فى مجاله، وتحجزه حفاظا عليه من متاهات الاسترسال فيما لا يستطيع ولا يطيق من عوالم الغيب التى لا تخضع لسنن البحث والتفكير ، وإن كان الإيمان المطلق بها يعتمد على مقدمات تخضع للبحث الذى يجعل من نتائجها قضايا يطمئن العقل إلى الإيمان بها كإيمانه بأية قضية بحث من قضاياه .

وكان الله عليما حكيما، فأنزل القرآن الحكيم تبيانا لكل شىء وأرسل به نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ،وختم به رسالات السماء وأبان فيه مكانة العلم والمعرفة ، وجعل للعقل قيادهما ، ومن هنا كان « العلم » بأوسع معانيه هو المعجزة الخالدة لهذه الرسالة الخاتمة ، وفى ذلك يقول خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم (ما من الأنبياء نبي الا أوتى ما على مثله آمن البشر وكان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة) .

البيئة الطبيعية والاجتماعية

لحياة محمد صلى الله عليه وسلم

البيئة الطبيعية لحياة محمد صلى الله عليه وسلم هى الجزيرة العربية كلها بوجه عام، سماؤها وأرضها، شمالها وجنوبها، جبالها ووديانها، نجودها وتهائمها، وهى بوجه خاص شمال تلك الجزيرة المعروف بأرض الحجاز، وهى بوجه أخص «مكة» من أرض الحجاز.

والتاريخ الطبيعى عرف للجزيرة العربية فى جملتها خصائص شاملة تشترك فيها جميع أجزائها، وعرف بعد ذلك خصائص فصلت الجنوب عن الشمال وعرف خصائص امتازت بها أرض الحجاز، وخصائص امتازت بها مكة فى موقعها من أرض الحجاز.

عاصرت تلك الخصائص الجزيرة العربية مفرقة بين شمالها وجنوبها آمادا طويلة، وأحقابا متعددة، تدخل مع التاريخ فى أعماقه البعيدة حتى تقف معه عند مجاهل العصور التى لم تتبين له معالمها ولم تزل تمخضها الحوادث وتدافعها الأحداث، وتمر مع الزمن فى أطوار طبيعية حتى تبلورت إلى صورة واحدة مشتبه

بالجنوب إلى الشمال ، فمزجتـــه به في خصائصه حتى صار كأنه هو ، جدبا وشظف عيش ، وقسوة طبيعية ، وجفوة حياة واكفهرار منظر ، وعبوس جو ، ولفح سموم ، وكثرة تقلبات ، وقلق إقامة وتطلعا إلى السماء رجاء غيث ، وتوثبا في ارجاء الأرض طلبا لمرعى .

وهي بعد ذلك بيئة تدرع الليل وتأنس بالوحش ، وتستضيء بالنجوم ، وتطرب لصوت الرعد ، يكتنفها فضاء لا نهاية له ، وتظلها سماء لا تستقر على حال ، تصفو مرة فتلمع بالليل نجومها وتضحى بالنهار شمسها آناء ، وتغيم مرة فيسود أديمها ، وتتوارى كواكبها وتحتجب شمسها ، ويكفهر أفقها ، ويتجهم منظرها ، أكنانها الجبال ومسارحها الوديان ، لا صناعة تشذب من مظاهرها ، ولا زراعة ترفه من جودها ، وكل الامل المرجو منها مرعى تجود به الطبيعة لتحيا عليه قطعان من إبل وشاء ، عليها قوام تلك البيئة القاسية .

وقد شهر ذلك عن الجزيرة العربية حتى عرفه جيرانهم من الفرس والرومان فزهـــد وافيها مع طغيان روح الاستغلال الاستعماري في الدولتين ، يحدثنا ابن هشام في السيرة : انه لما

طال بلاء الحبشة على أهل اليمن، خرج سيف بن ذى يزن الحميرى حتى قدم على قيصر ملك الروم فشكا إليه ما هم فيه ، وسأله أن يخرج الحبشة عنهم ويليهم هو ، ويبعث لهم من شاء من الروم ، فيكون له ملك اليمن ، فلم يشكه (١) ، فخرج حتى أتى النعمان ابن المنذر وهو عامل كسرى على الحيرة وما يليها من أرض العراق ، فشكا إليه أمر الحبشة ، فقال له النعمان أن لى على كسرى وفادة فى كل عام ، فأقم حتى يكون ذلك ففعل فأدخله على كسرى ، فقال له: أيها الملك غلبتنا على بلادنا الأغربة؟ فقال كسرى : أى الأغربة ؟ الحبشة أم السند ؟ فقال : بل الحبشة ، فجئتك تنصرنى ويكون ملك بلادى لك ، قال كسرى : بعدت بلادك مع قلة خيرها ، فلم أكن لأورط جيشا من فارس بأرض العرب ، لا حاجة لى بذلك .

* * *

هذه الخصائص الطبيعية كانت خلاصة ما انتهت إليه الأحداث الضخمة والحوادث الهائلة التى انتابت الجزيرة العربية فى مدى الأحقاب المتوغلة فى مجاهل التاريخ ، تجمعت من

(١) يشكه . مضارع أشكاه إذا أزال شكايته .

أرجائها كلها وتلاقت فى شمالها من أرض الحجاز ، فكانت :- فوق أنها خصائص الجزيرة كلها منذ بدأ انسياح القبائل الجنوبية إلى الشمال طلبا للعيش عقب انهيار سد مأرب وتخريب عمران اليمن — هى فى الوقت ذاته خصائص بلاد الحجاز منذ عرفها التاريخ .

مكة المكرمة ومكانتها

أما « مكة » بلد محمد صلى الله عليه وسلم وبيئته اللصيقة بنفسها قرية أو مدينة أو ما شئت من أسماء الأمكنة التى كانت موئلا لاستقرار قبيل من الناس يضطربون فيه طلبا لوسائل الحياة والعيش ، فيتسع لهم ويعطيهم ما تسمح به طبيعته ، ويظهر ان أمر هذه التسمية يرجع إلى العرف ومصطلح الناس ، وقد يختلف باختلاف الأزمنة والعصور ، والقرآن الكريم أطلق عليها « بلدا » وسماها مرة « قرية » ومرة أخرى سماها « أم القرى » وأصول الاجتماع لا تأبى عليها اسم « المدينة » ومهما يكن من أمر ذلك كله فأنها منذ كانت فهى عاصمة الحجاز غير منازعة ولا مزاحمة ، وإطلاق اسم المدينة عليها أقرب إلى تسمية القرآن لها « أم القرى » وأدنى إلى ما عرف لها من مكانة واحترام قبل

البعثة المحمدية وأشبه بما صارت إليه فى الإسلام من منزلة دينية واجتماعية .

تلك المدينة التى كانت مسقط رأس محمد صلى الله عليه وسلم وموطن أسرته ، ووطن قبيلته وصفها القرآن على لسان خليل الله إبراهيم عليه السلام بأنها (واد غير ذى زرع) فيما حكاه الله عنه بقوله : « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم » .

وهذا أصدق وصف وأجمع كلمة لخصائصها الطبيعية فكلمة (واد) تصور أتم تصوير وضعها من الأرض ، فهى منخفض تحيط به الجبال ، وكلمة «غير ذى زرع » تعطيك أن هذا الوادى له طبيعة شحيحة أشد الشح بالماء ، فهى لا تكاد تجود به نبعا ، وإذا جادت به غيثا تفرق فى غير كبير فائدة ، وتعطيك فائدة ، وتعطيك نتيجة لذلك جدوبة الأرض وقحولتها ، وتعطيك يبس الطبيعة وشظف الحياة وبؤس العيش، وتعطيك صرامة الجو ، ولفح السموم ، وهو وصف فى جملته يدخل على النفس يأسا قاتما أن تجد وسيلة من وسائل العيش الرغيد، أو سببا من أسباب الكسب الربيح فى هذا البلد السجين .

لكن «مكة» بلد محمد صلى الله عليه وسلم لم تترك للطبيعة تحبسها فى واديها الأجرد بين جبالها السود المكفهرة القاسية، بل تداركتها العناية الإلهية فأهدت إليها «الكعبة» بيت الله الحرام، فصارت بها «مكة» بلد الله الحرام، وكان الذى أقام الكعبة إبراهيم وولده إسماعيل، وإبراهيم جد العرب الذى تنتهى إليه مفاخرهم، وإسماعيل أبوهم، وقد تعرب منذ كان، فلم يعرف غير العرب شعباً ولا غير جزيرة العرب وطنا، ولا غير «مكة» بلداً. روى البخارى:

فحفظ الأبناء تراث الآباء، ورعى الأحفاد ذخيرة الأجداد، وعظم العرب كلهم «الكعبة» بيت جدهم إبراهيم وأبيهم إسماعيل، وعظموا لتعظيمها «مكة»، واتخذوها حرما آمنـاً يقدسونه ويتحامون فيه المآثم وينزهونه عن وقوع المظالم، ويؤمنون فيه الخائف ويجبرون الكسير، وينصرون المظلوم، ويخافون الظلم فيه، روى ابن هشام أن سبيعة بنت لاجب قالت لابنها خالد بن عبد مناف الكعبي تعظم عليه حرمة مكة وتنهاه عن البغى فيها.

ابنى لا تظلم بمكة لا الصغير ولا الكبير
واحفظ محارمها بنى ولا يغرنك الغرور
ابنى من يظلم بمكة يلق أطراف الشرور

الله أمنها وما بنيت بعرصتها قصور

والله آمن طيرها والعصم تأمن فى ثبير

يحجون إليها ويجتمعون فى مواسمها ، يتعبدون ويتجرون ، ويجلبون إليها الأرزاق والسلع ويتبادلون ذلك فيما بينهم، فيصدر عنها من وردها بغير ما ورد ، ويردها من صدر عنها بغير ما صدر ، ثم اتخذوها مناراً لإذاعة مفاخرهم ومحكمة لتحاكمهم ، وملجأ لضعفائهم ، وملاذاً يلوذ به أصحاب التبعات والجرائر منهم، ومصدراً لمحالفتهم وتعهداتهم ، ووضعوا لذلك سنناً متبعة لا يحيدون عنها ، ونظاما مأثوراً يأثره الخلف عن السلف ، من غيره أو انتهك حرمته فقد جاء بإحدى الكبر .

وهكذا أصبحت « مكة » شيئاً آخر غير كونها وادياً أجرد محصوراً بين الجبال ، أصبحت متعبد العرب قاطبة ، تهفو إليها قلوبهم تحنثا فيها وتعبداً بالطواف حول بيتها المحرم يقدسونها تقديساً لا يفوقه تقديس، ويفدون إلى بيتها المعظم بالمهج والأرواح، روى ابن هشام أن أبرهة الأشرم ـ وكان والياً على اليمن من قبل النجاشي ـ كتب إلى النجاشي يقول له : إنى بنيت لك ـ أيها الملك ـ كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ، ولست بمنته حتى أصرف

إليها حج العرب ، فلما تحدثت العرب بذلك غضب رجل من النسأة - قوم من العرب كان لهم النسيء فى الأشهر الحرم - فدخل كنيسة أبرهة وقذرها ، فلما بلغ ذلك أبرهة سأل عنه من فعله؟ فقيل له : رجل من العرب ، من أهل هذا البيت الذى يحج العرب إليه بمكة ، فحلف أبرهة ليسيرن إلى هذا البيت حتى يهدمه وتجهز لذلك ، فلما سمعت العرب بمسيره أعظموه وفظعوا به ورأوا جهاده حقاً عليهم .

تلك هى صورة مجملة تصور البيئة الطبيعية التى ولد فيها محمد صلى الله عليه وسلم ، والتى عاش بين أحضانها ، وتلك هى خصائصها العامة والخاصة .

* * *

أما بالبيئة الاجتماعية التى نهد محمد صلى الله عليه وسلم بين اعطافها ، وشب فى مدارجها ، واستوى رجلا فى مجامعها فهى البيئة العربية التى تشمل جميع الشعوب والقبائل والبطون والعشائر ممن سكن الجزيرة العربية فى جنوبها وشمالها ، وتكلم بلغة العرب ، ودان بأديانها ، واعتقد عقائدها وتخلق بأخلاقها وتسنن بعاداتها ، وتأثر بمن خالطها من الأمم والجماعات التى

طرأت بتراثها الاجتماعي على جزيرتها ، فهي أوسع مدى ، وأشمل أثراً من البيئة الطبيعة ، لأن خصائص البيئة الطبيعية مظاهر جامدة ترتبط بالأرض والسماء ، والخصب والجدب ، والجو والطبيعة ، أما خصائص البيئة الاجتماعية فهي انعكاسات لمظاهر البيئة الطبيعية تظهر صورها وآثارها حية في الإنسان الذي عاش فيها ، وتقلب في أنحائها يتسبب لمعاشه ، فهي على الحقيقة مجموعة أخلاق النـاس وطبائعهم وعقائدهم ومظاهر حياتهم فيما يغلب عليهم من وسائل الحياة في صناعة أو تجارة أو زراعة أو استثمار حيوان ، وما يتولد عن التنافس في ذلك من حرب أو سلم طلباً للمطالبة ودفاعا عن البقاء ، وأثر هذا في الأفراد والجماعات .

وأول مظاهر البيئة الاجتماعية وأعمها مظهراً العقيدة الدينية وما ينشأ عنها من مناسك وتعبدات ، وعنوان ذلك عند العرب قاطبة هو الوثنية التي تتمثل في عبادة المخلوقات من الكواكب وأصناف الحيوان والأشجار والأحجار ، وهي وثنية جامدة بليدة في شكلها وموضوعها ، لا تتفلسف ولا تتعالم ، ولكنها تقوم على التقليد الأبله والوراثة المتعصبة التي لا تسمع لصوت العقل ولا تصغي إلى الشعور ونداء الوجدان ، وقد حكى القرآن

عنهم هذا فى معرض الرد على دعـــوتهم إلى الحق فقال :

« وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا » ثم بكتهم على هذه البلادة العقلية التى لا تناسب إنسانيتهم فقال: «أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون» ثم مثلهم فى سد طرائق الفهم والتعقل على أنفسهم وعدم تأملهم لما يسمعون ، بالبهائم التى ينعق بها راعيها فتسمع الصوت ولا تفهم مغزاه ، وتحس بالنداء ولا تفهم معناه فقال : « ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء » ثم سجل عليهم أنهم لم يكتفوا بإلغاء عقولهم ، ولكنهم ألغوا كذلك حواسهم فعطلوها عن عملها الجاد المفيد فقال : « صم بكم عمى فهم لا يعقلون » وقد دفعهم الفراغ عن جد الحياة إلى التفنن فى وثنيتهم البلهاء ، فنوعوها وعددوا آلهتها واتخذوا لها الأنصاب والتماثيل والأصنام والأوثان ، بنوا لها البيوت والمتعبدات حتى أصبح لكل قبيلة صنم أو تمثال فى بيت خاص به تتعبد له وتذبح عنده قرابينها وتطوف به وتتقرب إليه بصدقاتها ونذورها ، وتستقسم بأزلامها فى كنفه ليأمرها أو ينهاها ، بل لم يبق بيت من بيوت العرب إلا اتخذ أهله صنما يعبدونه ، قال محمد بن اسحاق : « واتخذ أهل كل دار فى دارهم صنما يعبدونه ،

فإذا أراد الرجل منهم سفراً تمسح به حين يركب ، فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه إلى سفر وإذا قدم من سفره تمسح به فكان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله» ومن هنا جاء عجبهم حينما دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى التوحيد فقالوا : كما حكى القرآن عنهم : «أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب» قال هشام الكلبي فى كتاب الأصنام : «واستهترت العرب فى عبادة الأصنام ، فمنهم من اتخذ بيتاً ومنهم من اتخذ صنما ، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره مما استحسن ، ثم طاف به كطوافه بالبيت وسموها الأنصاب ، فإذا كانت تماثيل دعوها الأصنام والأوثان وسموا طوافهم الدوار ، فكان الرجل إذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذه رباً وجعل ثلاثة أثافى قدره ، وإذا ارتحل تركه فإذا نزل منزلا آخر فعل مثل ذلك فكانوا ينحرون ويذبحون عند كلها ويتقربون إليها» ، وقد تبلغ البلاهة ببعضهم إلى أن يصنع صنمه من طعام يعجبه ، يطوف به ويتنسك لديه ما دام مستغنياً عنه ، فإذا عضه الجوع عدا عليه فأكله ، وقد يتنبه الوعى الداخلى فى نفس أحدهم فيدرك فى لحظة عابرة أنه ليس على شيء ، ولكنه تنبه الخطرة الخاطفة

لا تنبه العقل المتأمل والعقيدة المفكرة . روى محمد بن إسحاق وابن الكلبي أن رجلا من بني ملكان بن كنانة أقبل بإبل له كثيرة ليقفها على صنم لهم يقال له « سعد » وهو صخرة طويلة بفلاة من أرض جده التماس بركته - فيما يزعم - فلما رأت الإبل سعدا وكانت مرعيه لا تركب - وكان يهراق عليه الدماء - نفرت منه ، وذهبت في كل وجه ، فغضب ربها وأخذ حجرا ورمى به سعدا ثم قال له : لا بارك الله فيك إلهاً ، نفرت على إبلي ، ثم خرج في طلبها حتى جمعها ، فلما اجتمعت له قال :

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد فلا نحن من سعد
وهل سعد إلا صخرة بتنوفه من الأرض لا يدعى لغي ولا رشد

وقال ابن الكلبي في كتاب الأصنام : وكان لمزينة صنم يقال له « نهم » وبه كانت تسمى عبد نهم وكان سادن نهم يسمى خزاعي بن عبد نهم من مزينة ثم من بني عداء فلما سمع بالنبي صلى الله عليه وسلم ثار إلى الصنم فكسره وأنشد يقول :

ذهبت إلى نهم لأذبح عنده عتيرة نسك كالذى كنت أفعل
فقلت لنفسي حين راجعت عقلها أهذا إله ؟ أبكم ليس يعقل ؟
أبيت فديني اليوم دين محمد إله السماء الماجد المتفضل

وفى كتاب الأصنام أن امرأ القيس بن حجر لما أقبل يريد الغارة على بنى أسد مر بذى الخلصة وكان صنما بأرض تبالة ، وكانت العرب تعظمه ، وكانت له ثلاثة أقداح ، الآمر والناهى، والمتربص - فاستقسم عنده ثلاث مرات ، فخرج الناهى ، فكسر القداح وضرب بها وجه الصنم وقال له : (عضضت با . . أبيك لو كان أبوك قتل ما عوقتنى ، ثم غزا بنى أسد فظفر بهم .

وإلى جانب هذه الوثنية البلهاء الغامرة كانت هناك قلة منثورة فى أرجاء الجزيرة العربية تنفرد باعتقادات خاصة وتدين بديانات أخرى ، فكانت اليهودية باليمن حتى غلبت عليها الحبشة فأدخلت فيها النصرانية التى عاشت بنجران حتى جاء الإسلام ، ثم تحولت اليهودية إلى الحجاز فأقامت بيثرب وخيبر،وهناك لقيها الإسلام وفى غضون هذا الخضم الوثنى كانت توجد حفنة من الناس تنكر على قومها التعبد للأحجار وتتطلع إلى الحنيفية دين إبراهيم واسماعيل ، وكانت قد بقيت لها آثار باهتة لا تتضح منها معالمها فتمسكت بأهدابها باحثة عن حقيقتها حتى جاء الإسلام فسمعوا ديباجة حديثة ولم تتابث بهم أعمارهم حتى يطلعوا على حقيقته ، فضوا على نياتهم وعقائدهم ، قال محمد بن اسحاق فيما يرويه ابن هشام فى السيرة : واجتمعت قريش يوما فى عيد لهم عند

صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له ويعكفون عنده ويديرون به وكان ذلك عيدا لهم فى كل سنة يوما ، فخلص منهم أربعة نفر نجيا ، ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض، قالوا : أجل، وهم ورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش وعثمان بن الحويرث ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، فقال بعضهم لبعض : تعلموا والله ما قومكم على شىء ، لقد اخطئوا دين أبيهم إبراهيم ، ماحجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ؟ يا قوم التمسوا لأنفسكم ، فأنكم والله ما أنتم على شىء ، فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين ابراهيم ، فأما ورقة ابن نوفل فاستحكم فى النصرانية حتى علم علما من أهل الكتاب ، وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم ثم هاجر إلى الحبشة وهناك تنصر ومات على نصرانيته وأما عثمان ابن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم وتنصر وأقام هناك ، وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل فى يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه واعتزل الأوثان والذبائح التى تذ. لها ونهى عن قتل الموءودة وقال : أعبد رب إبراهيم ، وبادى قومه بعيب ما هم عليه ، وقد قالت أسماء بنت أبى بكر الصديق : لقد رأيت زيد بن عمرو نفيل شيخا كبيرا مسندا ظهره إلى الكعبة وهو

يقول : يا معشر قريش والذى نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم أحد على دين ابراهيم غيرى ، ثم يقول : اللهم لو أنى أعلم أى الوجوه أحب إليك عبدتك به ولكنى لا أعلمه ، ثم يسجد على راحته ، وقد قال عنه النبى صلى الله عليه وسلم : أنه يبعث أمة وحده ، وفى رواية عند ابن سعد فى الطبقات : إنى رأيته يسحب ذيله فى الجنة ، وكان من أثر بقاء آثار الحنيفة بين العرب أنهم كانوا يؤمنون بوجود الله ويسندون إليه عظائم الأمور وأن آلهتهم هذه إنما تقربهم إلى الله زلفى كما حكى عنهم القرآن فى قوله : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » وفى قوله « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » وكان بعضهم يقول فى تلبيته للحج « لبيك اللهم لبيك لا شريك لك . إلا شريكا تملكه وما ملك » . وهكذا كانت الجزيرة العربية تموج بالشرك والوثنية فى صور مختلفة ومظاهر متعددة ، تتلاقى كلها فى تفاهتها وسذاجة أو ضاعها ، وبعدها عن يقظة العقل والوجدان .

أما أخلاق العرب وعاداتهم الفاشية فيما بينهم فهى فى الأغلب أخـــلاق وعادات تنبع من ينبوع عقائدهم الوثنية وبيئتهم الطبيعية ، نخيرها يستوحى البيئة ومستلزماتها من الفاقة

وضنك العيش وقسوة الحياة ، فالنجدة والمروءة والوفاء بالعهد وصدق الحديث والشجاعة والكرم والسخاء والإيثار ، والذود عن المحارم ورعاية الجوار ، والحلم والصبر وسرعة الخاطر وصفاء البديهة وكل ما جرى هذا المجرى مما سجله تاريخهم وأودعته أشعارهم وشاد به أدبهم فضائل كان لها عند العرب من المكانة مالم يكن لها عند غيرهم من الأمم ، ومن المعروف أن العرب ما كانوا يرجعون فى ذلك إلى قانون خلقى ولا نظريات نفسية ولا مراسم تربوية ، ولكنهم كانوا يستلهمون دواعى البيئة التى تؤويهم . ودوافع الحياة التى يحبونها وتلك البيئة هى التى جعلت من هذه الفضائل أمهات المكارم التى تتفاخر بها العرب حتى أسرفت فيها إسرافا أخرجها عن دائرة الفضائل الفطرية التى تقرها العقول السليمة وتحض على التحلى بها الرسالات الإلهية ، وتلك البيئة نفسها هى التى جعلت من بعض رذائل الفطرة ومقابح العقول ومناهى الديانات السماوية فضائل محلية ، فشرب الخمر والمقامرة ، والفتك ونصر القريب الظالم ووأد البنات وإكراه الاماء على البغاء تكسبا وما إليها مما كان فاشيا بين مجتمعات العرب وفى قبائلهم هى رذائل الفطر النقية ، ولكنها كانت عند العرب فضائل يتفاخرون بها ، ويعيبون الذى لا يتحلى بحليتها .

وكان للعرب إلى جانب ذلك خرافات سخيفة يعتقدونها

وخيالات ساقطة يقيمون حياتهم عليها ، وهى فى الأغلب وليدة البله فى العقيدة الدينية والوثنية التى كانت شائعة بينهم ومن خرافاتهم الاستقسام بالأزلام ، وهى أقداح موضوعة عند سدنة الاصنام مكتوب عليها « افعل » ولا «تفعل» أو نحو ذلك مما يدل على المضى فى المقصود أو العدول عنه ، فإذا أراد أحدهم سفرا أو أمرا مما يعرض له فى حياته ذهب إلى السادن وطلب إليه إخراج الأقداح ليأخذ منها واحدا يأتمر بما فيه ، ولها صور متعددة ، ومن خرافاتهم التطير بالسوانح والبوارح من الطير ، ومن سواقطهم طوافهم بالبيت عراة ، وقد عدد القرآن الكريم كثيرا من هذه الرذائل مبكتا المتعلقين بها عائبا عليهم اعتقادها ناعيا عليهم سفاهة أحلامهم وركاكة عقولهم .

وقد قضت البيئة الطبيعية والفوضى الدينية وشيوع الخرافات أن تتوافر لدى العرب أسباب لإشعال نيران الحروب وإيقاد جذوة التطاحن قلما توافرت لأمة أخرى من الأمم ، ولا يغلو من يقول إن حياة العرب فى جاهليتهم كانت حياة لا تعرف الأمن والسلام ، بل كانت حياة تخفق فوقها بنود الحرب والتقاتل ، وكأنما ضنت عليها الطبيعة بما يروى غلتها ويخصب أوديتها من غير الماء فجادت عليها لتعوضها بصبيب الدماء ، وكأنما أصبحت الحرب طبيعة من طبائع ذلك الجيل من الناس . فمن العسير جدا

على التاريخ أن يجد يوما من أيام الناس مر على جزيرة العرب وليس بين أبنائها قتال ، فإذا لم يكن فى الجنوب كان فى الشمال ، وإذا لم يكن فى نجد كان فى تهامة وإذا لم يكن بين قبائل حمير كان بين نزار ، وإذا لم يكن فى ربيعة كان فى قيس ، وقد عدد المؤرخون أيام الوقائع الكبرى فى الجزيرة العربية وذكروا أسبابها ونتائجها ، فإذا بها راجعة إلى تغالب على مرعى ، أو حماية جار ، أو أخذ بثأر ، أو مساعدة حليف ، وكم من سبب تافه ألهب لظى حرب لبثت أعواما يصطلى أوارها الناس وحسبك أن تعرف أن روايات التاريخ الجاهلى تذكر أن حرب داحس والغبراء مكثت أربعين عاما لا تخمد جذوتها ، فلا يتحاجز الناس إلا ريثما يتهيئون لوثبة أخرى تعود فيها الحرب جذعة تأكل شباب المقاتلين وشجعانهم وحسبك أن تعلم أن سبب كل هذه الحرب الطويلة الدامية محاولة تغليب فرس على فرس فى سباق ، وحسبك أن تعلم أن حربا بين بكر وتغلب دامت عشرات الأعوام وكان سببها إصابة ناقة البسوس وكانت جارة لجساس بن مرة البكرى فقتل بها كليبا سيد تغلب ونشبت بين القبلتين حرب شابت فيها الولدان .

وهكذا لا تكاد تنظر فى تاريخ العرب قبل البعثة المحمدية إلا وتجد صفحات من الدماء خطتها على أديم جزيرتهم أسنة الرماح وظباة السيوف ، وقد ولدت هذه الحروب العداوة بين

قبائل العرب العرب وبيوتاتهم ، ففشا بينهم التقاطع والشحناء وكان من أثر ذلك تعصب كل قبيلة لأفرادها والانتصار لهم مهما بلغ شأنهم ، ومن ثم ساد بين العرب فى جاهليتهم النظام القبلى الذى يعطى الفرد من المكانة مالم يعرف له فى الأنظمة الاجتماعية التى تنسق فيها الجماعة على نسق نظامى يحكمه قانون ثابت وحكومة تقوم على تنفيذ ذلك القانون .

وقد استحكم هذا الوضع الفردى فى الأسرة العربية ، فحكمها الفرد وتحكم فيها ، فنظام الرواج والمفارقة والمواريث وعلاقة أفراد الأسرة كلها قائمة على حكم الفرد الذى لا يرد حكمه وما بالك بنظام يجعل من قوانينه حرمان المرأة أن تتصرف فى شىء من أمرها ؟ وما بالك بنظام يجعل من حق أكبر أبناء الرجل أن يخلف أباه على زوجته ؟ وما بالك بنظام يرمى بالأسرة كلها بل بالقبيلة من أجل جريرة فرد من أفرادها ، ولو كان ذلك الفرد صعلوكا أو خليعا ؟

محمد الإنسان
صلى الله عليه وسلم

تسلسل الأحداث

توجيه البحث فى هذا الفصل :

المقصود من هذا الفصل هو تصوير شخصية سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تصويرا تاريخيا يقوم على معرفة الأحداث والحوادث والأشخاص والأزمنة والأمكنة فى الحياة التى كانت تحياها بيئة محمد صلى الله عليه وسلم الطبيعية والاجتماعية ، والحياة التى كان يحياها محمد صلى الله عليه وسلم نفسه فى تلك البيئة ، وبيان الأطوار التى مر فيها تاريخ محمد صلى الله عليه وسلم مدى تلك الحياة وبيان آثار تلك البيئة فى بناء شخصية محمد صلى الله عليه وسلم التاريخية وبيان آثار محمد صلى الله عليه وسلم فى البيئة من ناحيته الذاتية كرجل من رجالات تلك البيئة ، نشأ فى أحضانها ، وعاش بين عاداتها وأخلاقها ، وشام[1] تفكيرها ، ورأى عقائدها ، وخالطها

---

(١) شام تفكيرها : هو من قولهم : شام البرق إذا نظر إليه ليتعرف أين يقصد .

فى حربها وسلمها ، ثم بيان آثاره كإنسان مكتمل خصائص الإنسانية فى احتمال أعباء الرسالة الإلهية التى يبعثه الله بها إلى الناس كافة ، فى أطوارها المختلفة .

وهذا التصوير يقتضينا أن ننظر فى شخصية محمد الإنسان صلى الله عليه وسلم لنتعرف عليه فى نشأته وعيشه كيف نشأ ، وكيف عاش فى بيئة لها خصائصها ومميزاتها الطبيعية والاجتماعية وكل إنسان نشأ وعاش فى بيئة فلابد أن يأخذ منها وتأخذ منه ، ويجاذبها وتجاذبه ، وفى هذا التجاذب بين البيئة وأفراد مجتمعها تظهر مميزات الأفراد الذاتية التى تحميهم من التأثر بعوامل البيئة تأثرا كليا قد تجعل الفرد صورة للبيئة وأثرا من آثارها ليس غير كالآلة يصنعها صانعها ليعمل بها ما يريد وهى مجردة من الإرادة والاختيار اللذين هما خصيصة الإنسان النابعة من إنسانيته ، بيد أن هذه الخصيصة تتفاوت فى أفراد الإنسان وهذا التفاوت هو فيصل الامتياز والتفوق فى الشخصية المتكاملة ، فما مدى أثر هذا التجاذب بين محمد صلى الله عليه وسلم وبيئته فى حياته مدى أربعين سنة قبل أن يبعث نبيا ، عاشها فى قومه وبيئته أطوارا مختلفة مرهف الحس قوى الوجدان صادق الشعور ، مشبوب الرجولية ، فارع الشباب .

هذا التصوير يقتضينا أن ننظر بعد هذا إلى حياة محمد صلى الله عليه وسلم التى تولى الله فيها تربيته وأعده لرسالته الخاتمة الخالدة فأدبه فأحسن تأديبه ، لنتعرف على معالم تلك التربية الإلهية والإعداد الربانى والتأديب الرحمانى الذى جعل الله به عبده محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين .

وقد جرت سنة الله فى رسالاته الإلهية أن يعد من يصطفيه لها فى خلائقه وجوهر إنسانيته وخصائص رجوليته إعداداً خاصاً يوائم بينه وبين ما انتدب إليه حتى يستطيع القيام بما حمل ويؤدى ما كلف كما أشار إلى ذلك القرآن الحكيم فى قوله : (الله أعلم حيث يجعل رسالته) .

أسرة محمد

خصائصها ومكانتها فى العرب

ونظرنا إلى محمد الإنسان يدفع بنا إلى الوراء قليلا قبل أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم شخصا بين قومه لنعرف النبعة التى انشقت عنه ، ونعرف ماذا كان لها فى شخصيته من أثر وراثى ، أو أثر اجتماعى ، ولسنا نعنى هنا دوحته الكبرى « قريشا » فهذه قد استوفت حظها من البحث ، وإنما نعنى فرعيها الفارعين الزاكيين ، « عبد مناف » و « زهرة » اللذين انفرجا عن محمد ، فعبد مناف غصن من الدوحة القرشية زكا وأينع فأثمر لسيدها عبد المطلب ابنه « عبد الله » وزهرة غصنها الذى زهى ونما . فأثمر لوهب سيدها ابنته « آمنة » وهاتان الثمرتان ضمهما القدر المغلف بأسرار الغيب على وساد من الحب الشفيف واللقاء الشريف فى سنة عربية للزواج بين كرام العرب معروفة ، وشرعة إلهية منذ كان الناس مقدورة ، فكان منهما « محمد » رسول الرحمة للعالمين ووقوفنا عند « عبد مناف » و « زهرة » من بين أغصان الدوحة القرشية التى تجمعهما لأنهما نقطتان تجمع فيهما كثير من خصائص الأصل والنبعة الكبرى ، حتى كأنهما أصل

مع الأصل ، أو فرع انتهت إليه خصائص الأصل ، فعبد مناف ورث بمجـــد أبيه قصى الذى يعتبر فى تاريخ قريش عرق الثرى فى إمداد أغصانها بأمجاد المناقب وأصول المكارم التى كانت سائدة فى العرب .

كان « قصى » بن كلاب أخا « زهرة » لأبيه وأمه ، وكان فى سن الفطام حين هلك أبوه وكان «زهرة» قد بلغ مبلغ الرجال، فتزوجت أمهما رجلا من قضاعة فارتحل بها إلى أرض قومه من مشارف الشام ، فأخذت معها قصيا لصغره وتركت « زهرة » فى قومه ، ولما كبر قصى وبلغ مبلغ الرجال عاد إلى بلده وقومه فوجد أخاه « زهرة » قد كبر وعمى ، فتعرف إليه فعرفه بعد أن استوصفه ، ووجد «قصى» أمر مكة بيد خزاعة فخطب إلى سيدها حليل بن حبشى ابنته « حبى » فزوجه بها لمكان نسبه وشرفه ، وكان « قصى » جلدا نهدا نسيبا ، فكثر ماله وولده وانتشروا فى مكة ، وسمت نفسه فطمح إلى سيادة قومه ورأى أنه أحق بالبيت وبأمر مكة من خزاعة فحاربهم مستعينا بأخوته لأمه من قضاعة وانتزع أمر مكة من أيديهم ، فشرف فى قومه وساد، قال ابن هشام فى سيرته : « كان قصى بن كلاب أول بنى كعب ابن لؤى أصاب ملكا أطاع له به قومه ، فكان شريف أهل

مكة لا ينازع فيها ، فابتنى دار الندوة وجعل بابها إلى البيت ، ففيها كان يكون أمر قريش كله ، وما أرادوا من نكاح أو حرب أو مشورة فيما ينوبهم ، ولا يعقدون لواء حرب لهم مع قوم من غيرهم إلا فى دار الندوة ، يعقده لهم قصى ، ولا يعذر لهم غلام إلا فى دار الندوة ولا تخرج لهم عـــير فيرحلون إلا منها ، ولا يقدمون إلا نزلوا فيها تشريفا له وتيمنا برأيه ومعرفة بفضله ويتبعون أمره كالدين المتبع، وكان إليه الحجابة والسقاية والرفادة واللواء والندوة وحكم مكة كله » .

ولما هلك « قصى » خلفه على أمر مكة ابنه « عبد مناف » لأن عبد الدار بكر قصى وكبير ولده كان ضعيفا فائل الرأى ، وكان إخوته قد شرفوا عليه ، وكان أعلاهم كعبا فى السيادة والشرف « عبد مناف » وقد شرف فى زمان أبيه وذهب كل مذهب (١) وكان يقال له القمر من حسنه وله يقول الشاعر :

كانت قريش بيضة فتفلقت   فالمح خالصه لعبد مناف

وقد اجتمعت قريش على « عبد مناف » فاختط لها الرباع بمكة ووطد سلطانها عليها وعلى عبد مناف ، اقتصر النبى صلى الله عليه وسلم فى بيان القرابة فى قوله تعالى : « وأنذر عشيرتك

---

(١) الطبرى جـ ٢ ص ١٨٤ .

الأقربين » روى ابن سعد في الطبقات عن ابن عباس قال :
لما أنزل الله تعالى على النبي صلى الله عليه وسلم « وأنذر عشيرتك
الأقربين » خرج حتى علا المروة ثم قال : « يا آل فهر » فجاءته
قريش ، فقال أبو لهب بن عبد المطلب : « هذه فهر عندك فقل »
فقال : « يا آل غالب » فرجع بنو محارب وبنو الحارث ابنا فهر
فقال : « يا آل لؤى بن غالب فرجع بنو تيم بن الأدرم بن غالب
فقال : « يا آل كعب بن لؤى » فرجع بنو عامر بن لؤى، فقال :
يا آل مرة بن كعب » فرجع بنو عدى بن كعب وبنو سهم وبنو
جمح أبناء عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى، فقال: « يا آل كلاب
ابن مرة » فرجع بنو مخزوم بن يقظة بن مرة وبنو تيم بن مرة ،
فقال : « يا آل قصى » فرجع بنو زهـــرة بن كلاب ، فقال :
« يا آل عبد مناف » فرجع بنو عبد الدار بن قصى وبنو أسد
ابن عبد العزى بن قصى ، وبنو عبد بن قصى ، فقال أبو لهب :
« هذه بنو عبد مناف عندك فقل ، فقال رسول الله صلى الله
عليه سلم : « إن الله قد أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين ،
وأنتم الأقربون من قريش ، وإني لا أملك لكم من الله حظا
ولا من الآخرة نصيبا إلا أن تقولوا لا إله إلا الله فأشهد بها
لكم عند ربكم فتدين لكم بها العرب وتذل لكم بها العجم » ورواه
البخاري مختصرا ، قال ابن حجر في شرحه : ووقع عند البلاذري

من وجه آخر عن ابن عباس أبين من هـذا ـ ثم ساق لفظـه موافقا لرواية صاحب الطبقات ، وكذلك رواه مسلم والإمام أحمد والبيهقى وغيرهم .

وهذا الحديث وحده يكفى سندا لوقوفنا عند « عبد مناف » فى تطاب الأصل القريب الذى ترجع إليه شخصية محمد صلى الله عليه وسلم بالوراثة فى بعض الخلائق والسجايا ، فأنت ترى أن النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى بيان مقام القرابة التى لها القدمة فى الإنذار حسما للأطماع ، والتى أوثرت من قبل الله العلى الأعلى بالسبق ، ليعتمد على وشائج القربى فى حميتها لحماية دعوته وحمايته لتجاوب ما بينه وبينهم من المشاركة فى خصائص تنزع إلى عرق واحد — قد سلك مسلك التدرج فى التخصيص حتى إذا بلغ مجتمعها الحافل رآها سوية فى « عبد مناف » فأخبرهم أنهم أخص من يجتمع به عرق من قريش ، ولهذا التدرج الذى سلكه النبى صلى الله عليه وسلم من الأعم إلى الأخص حكمة لطيفة تبين أن الخصائص المشتركة بين فروع الأصل الواحد موزعة على الفروع كلها بنسب متفاوتة ولكنها قد تنتهى مجتمعة عند فرع ينزل منها منزل القلب من الشجرة وذلك الفرع هو الذى يسقى الأغصان المتفرعة عنه بجميع موارد الخصائص السابقة واللاحقة .

وهذا التفسير العملى للقرابة — فى هذا المقام — يوحى بأن عبد مناف هو الفرع القرشي الذى تحدرت إليه جداول الخلائق الموروثة من أعراق آبائه، وهو الذى تقاطر فيه غيث «قصى» وأمجاده وانتهت إليه خصائصه، فنبل وساد ومجد فى حياة أبيه على رغم صغر سنه وعلى رغم وصية أبيه لأخيه الأكبر «عبد الدار» بكر قصى بما كان لقصى من مناصب السيادة والشرف وترك عبد مناف لهمته وفواضله، روى ابن الأثير قال: لما كبر قصى ورق وكان ولده «عبد الدار» أكبر ولده وكان ضعيفا وكان «عبد مناف» قد ساد فى حياة أبيه، وكذلك أخوته، فقال قصى لعبد الدار: والله لألحقنك بهم فأعطاه دار الندوة والحجابة وهى حجابة الكعبة، واللواء فهو كان يعقد لقريش ألويتهم، والسقاية كان يسقى الحجيج والرفادة، وهى خرج تخرجه قريش فى كل موسم من أموالها إلى قصى بن كلاب فيصنع منه طعاما للحاج يأكله الفقراء.

لكن بنى عبد مناف لم يرضهم أن تذهب منهم مكرمتا الجود والبذل، والسقاية والرفادة فانتزعوهما من بنى عبد الدار، وتركوا لهم من شارات المجد ما سواهما حتى جاء الإسلام فأقر حجابة الكعبة فى بنى عبد الدار، وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم

أن يجعل اللواء فيهم مع الحجابة فقال لهم : « إن الإسلام أوسع من ذلك [١] » ، وهو يشير بذلك إلى أن اللواء صار فى الإسلام مرتبة من مراتب المسلمين عامة ، ولم يعد منصبا من مناصب أمجاد قريش بل ولا عامة العرب فانتزعه منهم وجعله لعامة المسلمين ، وأقر السقاية والرفادة فى بنى عبد مناف يتوارثها الخلف منهم عن السلف حتى أدركت أبا جعفر المنصور ثانى خلفاء بنى العباس وتعاقبها الخلفاء من بعده.

أما « زهرة » الجد الأعلى للسيدة « آمنة » أم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فهو الأخ الأكبر لقصى والد عبد مناف ، وقد أقام « زهرة » بمكة حياته كلها لم يفارقها ولم يرحل عنها ، ولما رجع قصى من بلاد قضاعة تعرف إليه فعرفه وأدناه ، ولم يزل ولده مع ولده لا يفارقونهم ، يدخلون معهم فى كل حلف ويشاركونهم فيما يقومون به من عمل ، فأول حلف عقده بنو عبد مناف « حلف المطيبين » فكان بنو زهرة معهم على بنى عبد الدار ، قال ابن هشام فى سيرته : ثم إن بنى عبد مناف ابن قصى أجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدى بنى عبد الدار من

---

(١) ابن الاثير جـ ٢ ص ١٠

الحجابة واللواء والسقاية والرفادة ورأوا أنهم أولى بذلك منهم لشرفهم عليهم وفضلهم فى قومهم ، فتفرقت عند ذلك قريش ، فكانت طائفة مع بنى عبد مناف ، يرون أنهم أحق به من بنى عبد الدار لمكانهم فى قومهم، وكانت طائفة مع بنى عبدالدار يرون ألا ينزع منهم ما كان قصى جعل إليهم ، وكان بنو أسد ابن عبد العزى بن قصى وبنو زهرة ابن كلاب وبنو تيم بن مرة وبنو الحارث بن فهر مع بنى عبد مناف ، وكان بنو مخزوم وبنو سهم وبنو جمح وبنو عدى مع بنى عبد الدار ، فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيبا فوضعوها لأحلافهم فى المسجد عند الكعبة ، ثم غمس القوم أيديهم فيها فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم ثم مسحوا الكعبة توكيدا على أنفسهم فسموا المطيبين .

وكان بنو زهرة شركاء بنى عبد مناف فى تصيبهم عند تجزئة الكعبة لبنائها ، حدث أبو جعفر الطبرى عن ابن اسحاق قال : ثم إن قريشا تجزأت الكعبة فكان شق الباب لبنى مناف وزهرة .

هذا الترابط الذى كان بين زهرة وعبد مناف هو الذى يوحى بجعل فرعيهما فى قريش ملتقى ما تنقله الوراثة من الخصائص الإنسانية المنسابة مع تيار التوالد فى الأشخاص .

بيد أن هناك فرقا بين فرعى عبد مناف وزهرة فى مقدار

ما عند كل منهما من الجاذبية للخصائص والطباع والتاريخ يذكر لبني عبد مناف خلائق القوة والصلابة والتمجد بالمكارم وحب الشرف والسيادة والبذل ودقة الشعور وسرعة البداهة : وهي خصائص كانت كلها متوافرة في قصي في دمه الأعلى ، فاخذها منه وراثة ابنه عبدمناف وأورثها عبدمناف بنيه من بعده ويذكر لبني زهرة الأناة والهدوء ورقة الحاشية وحب الثراء ، وهي خصائص كانت طبعا لأبيهم زهرة بن كلاب ، ومنه تحدرت إلى ولده موزعة عليهم على حسب ما فيهم من استعداد مفطور .

والناظر إلى سيرة النسل المتحدر من عبد مناف ، ولا سيما الفرع الذي انتهى إثماره إلى محمد صلى الله عليه وسلم يجد صدق هذا في طباعهم وأخلاقهم ، والناظر في بيت زهرة يجد كذلك خصائص أبيهم ممثلة في طبائعهم .

ومن ثم نقول ونحن مطمئنون : إن محمدا صلى الله عليه وسلم انتهت إليه خلاصة ما انطوى عليه بيتا عبد مناف وزهرة من خلائق وطبائع وخصائص إنسانية لأنك - بعد ما أجملناه لك من حديث عبد مناف وزهرة إذا تقصيت التاريخ عرفت أن هاشما ابن عبد مناف جد محمد صلى الله عليه وسلم هو الذي خلف أباه من دون أخوته أبناء عبد مناف في شرفه ومكانته لتقارب ما بينهما

من النوازع والأخلاق فهاشم أول من سن الرحلتين لتجارة قريش كان يرحل على رأس عيرها فى الشتاء إلى اليمن وإلى الحبشة إلى النجاشى فيحبوه ويكرمه، وكان قد أخذ حلفا لقريش من قيصر لأن تختلف بتجارتها إلى الشام فى الصيف [1] وهى آمنة لا يتعرض لها أحد.

وكان هاشم على خلق أبيه فى التمجد بالكرم والبذل، يقوم بالرفادة وإطعام الحاج فى الموسم كله، وكان رجلا موسرا فإذا حضر الحج قام فى قومه، فقال: يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته، وإنه يأتيكم فى هذا الموسم زوار الله يعظمون حرمة بيته، فهم ضيف الله وأحق الضيف بالكرامة ضيفه وزوره، يأتون شعثا غبرا من كل بلد على ضوامر كأنها القداح، فأقروهم واسقوهم وكانت قريش ترافد على ذلك حتى أن كان أهل البيت ليرسلون بالشيء اليسير على قدرهم، وكان هاشم يخرج فى كل عام مالا كثيرا، يقول: لو أن مالى يسع ذلك ما كلفتكم شيئا وكان يأمر بحياض من أدم ثم يسقى فيها الماء من البئار التى بمكة والماء يومئذ قليل - وكان يطعم أول ما يطعم قبل التروية بيوم بمكة وبمنى وعرفة وجمع، وكان يثرد لهم الخبز واللحم، والخبز والسمن والتمر إلى أن يصدروا من منى تنقطع الضيافة ويتفرق الناس لبلادهم [2] وذكر ابن سعد فى الطبقات أن قريشا أصابتهم سنوات ذهبن بالأموال

---

(1) ابن الأثير ج ٢ (٢) ابن سعد فى الطبقات.

فخرج هاشم إلى الشام فأمر بخبز كثير فخبز له فحمله فى الغرائر على الإبل حتى وافى مكة فأطعم قومه والناس معهم حتى أشبع أهل مكة ، فكان ذلك أول الحياة بعد السنوات التى أصابتهم ، فحسده أمية بن عبد شمس بن أخيه ، وهو الذى كان يساميه فى بيت عبد مناف ، وكان أمية ذا مال فتكلف أن يصنع مثل صنيع هاشم فعجز عنه ، فتنافر إلى أحد حكام الجاهلية فنفر هاشما وجلا أمية عن مكة إلى الشام عشر سنين فكان ذلك مبدأ العداوة بين بيتهما

وكانت العرب لا تعرض لقوافل قريش إذا مرت على أحيائها وقبائلها ، لأن هاشما ألف العرب على أن تحمل قريش بضائعهم ولا كراء على أهل الطريق .

كان لهذه المكرمات والمناقب أثر خطير فى مكانة عبد مناف وأبنائه عند جميع العرب فعرفوا لهم فضلهم وقدرهم ، ونظروا إليهم نظرة فيها قداسة واحتشام ، لم ينظروها لغيرهم ممن يساميهم من أبناء عمومتهم مع ما كان فى أيديهم من مراتب المجد والشرف وشارات السيادة والتقدم مثلهم ، لكن بنى عبد مناف امتازوا بالصنائع والمكارم يسدونها إلى قومهم واختيارهم من بين مراتب الشرف مرتبتى الرفادة والسقاية وهما مظهر الجود والبذل ، هو

الذى زاد فى مكانتهم ورفعتهم فى نظر العرب قاطبة وهو الذى عقد لهم وشيجة المحبة والأعظام فى قلوبهم .

أما عبد المطلب جد محمد الأدنى فكان أشبه بجده الأعلى قصى بن كلاب فى شرفه وتساميه وطموحه إلى عوالى الأمور ، ومن غرائب هذا التشابه أن كلا منهما نشأ بعيدا عن قومه وبلده فى حضن أمه حتى اشتد ساعده وبلغ مبلغ الرجال وعرف أنه فرع الدوحة القرشية وابن هامتها ، فتمحل إلى قومه وبلده ، فاستقبله الشرف والمجد ودانت له السيادة، فقصى رحل إلى مكة فوجد أمرها بيد خزاعة وبنى بكر ،وليس لقريش منه شىء ، فانتزعه منهما انتزاعا ، وأخذه غلابا ،فساد على أهل مكة وملكه قومه عليهم فلا يصدرون إلا عن رأيه ، وعبد المطلب نشأ فى أخواله بنى عدى بن النجار مع امه سلمى بنت عمرو النجارية الخزرجية وكان أبوه هاشم رآها وهو فى طريقه على المدينة مارا بسوق النبط ، فرأى امرأة حازمة جلدة تأمر بما يشترى ويباع لها فأعجبته وعرف نسبها فخطبها وكانت لشرفها لا تنكح الرجال حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها ، فتزوجها هاشم وشرطت الإقامة فى قومها ، فلما بنى بها حملت بعبد المطلب وسمته « شيبة » لبياض فى شعر رأسه وكان هاشم ارتحل فى تجارته إلى الشام فمات

بغزة ، وشب عبد المطلب بين لداته وإقرانه من فتيان يثرب حتى كان يوما مع غلمان من أخواله ينتضلون ، فجعل كلما أصاب الهدف صاح مفتخرا : أنا ابن عمرو العلا أنا ابن سيد البطحاء ، فسمعه ثابت بن المنذر وأبو حسان بن ثابت الشاعر . وكان خليلا لعمه المطلب . فلما قدم ثابت مكة معتمرا التقى المطلب فقال له : لو رأيت ابن أخيك شيبة فينا لرأيت جمالا وهيبة وشرفا لقد نظرت إليه وهو يناضل فتيانا من أخواله ، فيدخل مرماتيه (سهميه) جميعا في مثل راحتي هذه ويقول كلما خسق (أصاب الهدف) أنا ابن عمرو العلا ، فشغف عمه المطلب باحضاره إلى قومه وبلده فأحضره ووقفه على ملك أبيه وسلمه إليه ، ونازعه عمه نوفل بن عبد مناف في أشياء فاستعان بأخواله من بني النجار فردها عنيه .

وكان المطلب أكبر أخويه هاشم وعبد شمس ، ولكن هاشما كان سبقه إلى الشرف والسيادة فكانت بيده الرفادة والسقاية ، فلما مات هاشم خلفه عليهما أخوه المطلب وكان جوادا كريما ، وكانت قريش تسميه الفياض لسماحته ، وكان يتجر إلى اليمن بمكان يقال له ردمان وهلك المطلب ، فقام بعده عبد المطلب بن هاشم بالرفادة والسقاية .

قصة حفر زمزم

وفى حياة عبد المطلب حادثان مهمان يتصلان من قريب بسيرة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وتاريخه : أما الحادث الأول فهو (حفر زمزم) واتصال هذا الحادث بتاريخ محمد صلى الله عليه وسلم أن القدر انتهى به .

أولا : إلى إبراز والده عبد الله فى صورة تحاكى ما وقع لجده الأعلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل فى قصة الذبح والفداء ، وإسماعيل وإبراهيم كانا مناط شرف قريش خاصة ومعقد مفاخر العرب عامة ، فلهذه المحاكاة فى القصة أثرها النفسى عند العرب عامة ، ولقب عبد الله بالذبيح كما لقب بذلك من قبله إسماعيل ، وانتهى به .

ثانيا : إلى جمع أبويه على أكرم أبوة وأطهر أمومة لخير مولود عرفه الوجود .

وحادث حفر زمزم كان له أثر خطير فى ازدياد مكانة عبد المطلب رفعة وعلوا بين قومه وفى بلده بل بين العرب أجمعين فقد يسر حفر زمزم الماء — وهو أعز شىء فى وجود مكة ومنزلتها

على أهل الحرم وعلى الحجيج كله ، وعلى عبد المطلب نفسه وهو صاحب مرتبتي الرفادة والسقاية من مراتب السؤدد والشرف في قريش جيران الله وسدنة بيته .

وكتب التاريخ والسيرة تلون هذا الحادث بألوان مختلفة يتدخل فيها الخيال أحيانا فيضفي عليها من بريقه اللامع ما يجعلها أقرب إلى الواقع المشهود ، ولكن هناك أشياء في القصة لا يختلف فيها الرواة ، ذلك أن عبد المطلب وقريشا قاطبة كانوا على يقين أن بالحرم إلى جوار بيت جدهم إبراهيم بئر أبيهم إسماعيل وهي عين ثرارة لا تنزف أبدا ، ولكن أين مكانها على التحديد من البيت ؟ هذا ما حيرهم وصدهم عن التفكير فيها طول مدة التاريخ الغابرة . وهم يتهيبون أن يجعلوا من ساحة البيت منطقة تفتيش وتنقيب عن شيء مهما بلغ عندهم من العزة فإن عزة البيت وحرمته فوق عزته ، وما أدراهم إن هم أقدموا على البحث ألا تغضب عليهم آلهتهم التي أحاطوا بها البيت ؟ بل ما يدريهم ألا تضار جدران البيت من أثر المعاول والمساحي ؟ لكن عبد المطلب كان أكثرهم شغلا وتفكيرا في ذلك . لأنه صاحب السقاية مكرمته ومكرمة أبيه من قبله . وآبار مكة التي يستقي منها الماء للناس في الموسم الأعظم متناثرة متباعدة . وليست كلها غزيرة الماء

مما يجعله يطمئن إلى كفاية الحجيج منها ، وهو وحيد وليس معه إلا بكره الحارث ، وبنو عبد شمس وبنو عبد الدار منافسوه في الشرف يتربصون به ، وهنا تذكر الرواية التى لا اختلاف فيها أيضا بين الرواة أن عبد المطلب أرى مكان زمزم مناما . وإن كانت الرواية تختلف فى أسلوب الرؤيا وكيفيتها ، وذلك من الوجهة التاريخية لا يقف فى طريق البحث ، وأقرب الروايات وأوفاها رواية ابن سعد فى الطبقات من طريق شيخه محمد بن عمر الواقدى ، وهى رواية عبد الملك بن هشام فى سيرته عن محمد ابن اسحاق . وهذان المصدران من أقدم مصادر السيرة والتاريخ وعليهما معول من جاء بعدهما . فابن الأثير فى كامله خالف إمامه أباجعفر الطبرى وتابعهما فيها قال ابن سعد : فلم يزل عبد المطلب مقيما بمكة حتى أدرك وخرج المطلب بن عبد مناف تاجرا إلى أرض اليمن فهلك بردمان من أرض اليمن : فولى عبد المطلب بن هاشم بعده الرفادة والسقاية فلم يزل ذلك بيده يطعم الحاج ويسقيهم من حياض الأدم بمكة ، فلما سقى زمزم ترك السقى فى الحياض بمكة وسقاهم من زمزم حين حفرها ، وكان يحمل الماء من زمزم إلى عرفة ليسقيهم ، وكانت زمزم سقيا من الله ،

أتى في المنام مرات فأمر بحفرها ووصف له موضعها ؛ فقيل له احفر طيبة[1] : قال : وما طيبة ؟ فلما كان الغد أتاه فقال : أحفر بره ، قال : وما برة ؟ فلما كان الغد أتاه وهو نائم في مضجعه ذلك فقال : احفر المضمونة ، قال وما المضمونة ؟ أبن لى ما تقول ، فلما كان الغد أتاه فقال : احفر زمزم ، قال : وما زمزم ؟ قال : لا تنزح ولا تذم تسقى الحجيج الأعظم ، وهى بين الفرث والدم عند نقرة الغراب الأعصم ، قال : وكان غراب أعصم لا يبرح عند الذبائح مكان الفرث والدم ، وهى شرب لك ولولدك من بعدك ، قال : فغدا عبد المطلب بمعوله ومسحاته معه ابنه الحارث بن عبد المطلب وليس له يومئذ ولد غيره ، فجعل عبد المطلب يحفر بالمعول ويغرف بالمسحاة فى المكتل فيحمله الحارث فيلقيه خارجا ، فحفر ثلاثة أيام ثم بداله الطوى فكبر ، وقال : هذا طوى إسماعيل فعرفت قريش أنه قدأدرك الماء ، فأتوه فقالوا : أشركنا فيه . فقال :

(١) طيبة ، برة ، المضنونة ، هذه أسماء لبئر زمزم لوحظ فيها مضمناتها من المعانى كما فسرها صاحب النهاية .

ما أنا بفاعل . هذا أمر خصصت به دونكم . فاجعلوا بيننا وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه . قالوا : كاهنة بنى سعد هزيم وكانت بمعان من أشراف الشام . فخرجوا إليها وخرج مع عبد المطلب عشرون رجلا من بنى عبد مناف وخرجت قريش بعشرين رجلا من قبائلها . فلما كانوا بالفقير من أرض الشام أو حذوه فنى ماء القوم جميعا . فعطشوا فقالوا لعبد المطلب : ماترى ؟ فقال : هو الموت . فليحضر كل رجل منكم حفرة لنفسه فكلما مات رجل دفنه أصحابه حتى يكون آخرهم موتا رجلا واحدا فيموت ضيعة . فموت واحد ضيعة خير من أن تموتوا جميعا فحفروا ثم قعدوا ينتظرون : فقال عبد المطلب والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا لعجز . ألا نضرب فى الأرض فعسى الله أن يرزقنا ماء ببعض هذه البلاد فارتحلوا . وقام عبد المطلب إلى راحلته فركبها فلما انبعثت به انفجر تحت خفها عين ماء عذب فكبر عبد المطلب وكبر أصحابه وشربوا جميعا . ثم دعا القبائل من قريش فقال : هلموا إلى الماء الرواء فقد سقانا الله فشربوا واستقوا وقالوا : قد قضى لك علينا والذى سقاك هذا الماء بهذه الفلاة هو الذى سقاك زمزم . فوالله لانخاصمك

فيها أبدا . فرجع ورجعوا ولم يصلوا إلى الكاهنة وخلوا بينه وبين زمزم .

هذه الرواية بخطوطها الجوهرية من الوجهة التاريخية لم يسقطها المؤرخون ولم يزيفها — فيما رأينا — أحد من القدامى وهى من الوجهة النفسية بالنسبة لجوها الذى يحيطها به الرواة لا يأبى التاريخ الواقعى أن يشهدها فليس فيها شىء تنكره حياة العرب فى جاهليتهم . ولا سيما فى قريش ومكة خاصة . فهى حياة أحلام وكهانة ورؤى ومناجاة وأشباح وخوارق مادية وعجائب حسية تشترك فى تمثيلها كائنات مرئية وأخرى غير مرئية يؤمن العرب عامة وأهل مكة خاصة بقوتها وسلطانها .

وسواء لدى البحث أصحت هذه الأقصوصة كلها أم بطلت كلها . أو صح بعضها وبطل بعضها فإن كلمة التاريخ فى مصادره العربية متفقة على أن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام كانت له عين ماء إلى جوار مكان البيت الحرام . أغيث بها ليشرب هو وأمه فى قصة مشهورة . عرضت لها الروايات الصحيحة فى كتب الحديث والسيرة والتاريخ . وكذلك تتفق كلمة التاريخ

على أن هذه العين طمت وسواء أكان طمها بفعل إنسان — على ما تنسبه الرواية لعمرو بن مضاض الجرهمى — أم بفعل الجو وأحداث الطبيعة وقلة الأيدى المستصلحة فى ذلك المكان وتلك الأزمنة العابرة . وكلمة التاريخ أيضا متفقة على أن قريشا لما سكنت مكة وعمرتها ودانت لها بسلطانها الدينى تقاسمت مراتب الشرف فى بيوتاتها : فكانت سقاية الحجيج فى بنى عبد مناف يتوارثونها حتى انتهت إلى عبد المطلب بن هاشم . وهو أحوج فى موقفه هذا إلى الماء الغزير القريب فما يمنع أن يكون قد دار فى نفسه خاطر بئر جده إسماعيل واعتلج فيها الشوق إلى العثور عليها وتملكه الشعور بذلك فانعكس فى وعيه الباطن فرأى فى منامه ما رأى . وكان هاتفه بها من نفسه وإليها ؟ وما يمنع أن يكون عبد المطلب قد ألهم ذلك إلهاما ؟ أو تفرسه فألقى إليه مناما ؟ وما يمنع أن يكون نوجى به فى نومه كما يناجى كل مشغول بأمر من الأمور بشى مما يهجس فى خاطره .

ليس فى القصة بعد ولا إحالة من وجهة رؤيا المنام

وهواتف عبد المطلب ومغالبته قريشا فهذه كلها أمور جاهلية معروفة معهودة .

بيد أننا نقف هنا وقفة متأملة مع شيخ مؤرخي الإسلام أبي جعفر الطبري . فإنه رحمه الله مر على قصة حفر زمزم مرور الكرام فلم يحفل بعديد رواياتها كعادته في الاسهاب وتكثير الروايات في الحادث الواحد . واكتفى بقوله في صدد الحديث عن مكانة عبد المطلب :

« وهو الذي كشف عن زمزم بئر اسماعيل بن إبراهيم واستخرج ما كان فيها مدفونا » .

فما شأن أبي جعفر ؟ هل شك في القصة وتفاصيلها فأعرض عنها ؟ لا نظن هذا . لأن أبا جعفر نفسه اعتمد على رواية محمد بن اسحاق في قصة نذر عبد المطلب ذبح أحد بنيه ان بلغوا عشرة يمنعونه من قريش . هذه القصة مؤسسة على قصة حفر زمزم . وقد صرح بذلك أبو جعفر في قوله عن محمد بن اسحاق : كان عبد المطلب بن هاشم قد نذر حين لقي من قريش في حفر زمزم ما لقي لئن ولد له عشرة نفر . ثم بلغوا معه حتى يمنعوه

لينحرن أحدهم لله عند الكعبة . والذى لقيه عبد المطلب من قريش فى حفر زمزم فى رواية محمد بن اسحاق هو ما ذكره عنه ناقل سيرته عبد الملك بن هشام فى روايته المطابقة لرواية ابن سعد . ومهما يكن من أمر قصة حفر زمزم فإنها تقودنا إلى الحديث عن الذبيح عبد الله بن عبدالمطلب أبى محمد صلى الله عليه وسلم وقصة نذر ذبحه وما انبثقت عنه من زواجه بآمنة بنت وهب . ومن بينهما كان محمد صلى الله عليه وسلم .

قصة الذبيح

عبد الله بن عبد المطلب

يتصل الحديث عن عبد الله بن عبد المطلب أبى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتب التاريخ بحديث حفر زمزم اتصالا وثيقا ، فقد كان حفرها فيما يقول الرواة سبباً فى نذر عبد المطلب ذبح أحد أبنائه تقرباً إلى الله .

وكانت قصة الذبح معبرا إلى زواج عبد الله بآمنة بنت وهب أم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبهذا يظهر اتصال الحديث اتصالا مباشرا بتاريخ وسيرة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتظهر حكمة تحقيقنا لقصة زمزم لما لها من أثر واضح فى مكانة عبد المطلب جد محمد صلى الله عليه وسلم الذى رآه فى طفوليته ورأى ما يتمتع به من الشرف والمجد ، وهو الذى تعهده وكفله بعد وفاة أبيه ، وكان عبد المطلب يتمجد بهذا الحفيد العظيم ويتفرس فيه مكنون الغيب عند ولادته فيسميه محمدا ، فيقال له : ما هذا الاسم

الذى ليس فى أسماء آبائك ؟ فيقول : سميته محمدا ليحمد فى السماء والأرض ، ويقول لأبنائه — وهم حافون حول فراشه فى ظل الكعبة وقد أبى محمد صلى الله عليه وسلم إلا أن يجلس فوق فراش جده فيهم أعمامه بتنحيته إعظاما لمكان أبيهم شيخ قريش وسيدها — دعوا ابنى إنه ليؤنس ملكا .

وحديث نذر عبد المطلب نحر أحد بنيه وإسهامه بينهم وطيران القرعة على سهم عبد الله كغيره من أحاديث التاريخ الجاهلى تمددت رواياته واختلفت أساليبه فى مصادر التاريخ العربى ، ولونه الرواة بألوان شتى ، وهو فى إجماله كالمجمع عليه فى تلك المصادر .

وصفوة سياقته منها أن عبد المطلب بن هاشم لما احتفر زمزم وأخرج منها كنز جرهم نازعته قريش وطلبت أن تقاسمه وتشاركه فى الماء ، وكانت جرهم حين عزموا الخروج من مكة دفنوا غزالين من ذهب وسبعة أسياف قلعية (نسبة إلى بلدة بالهند تسمى قلوع) وخمسة أدراع سوابغ فاستخرجها منها عبد المطلب وكان يتأله ويعظم الظلم والفجور ، فضرب الغزالين صفائح فى وجه الكعبة وعلق الأسياف على البابين يريد أن يحرز به خزانة الكعبة وجعل المفتاح والقفل من ذهب فحسدته قريش

وجاءته كأنها تغازيه لحما كما فظفر عليها وكان وحيدا فيهم ليس له ولد سوى ابنه الحارث فهاجت به لواعج الشوق إلى المكاثرة بالولد ، فنذر لئن ولد له عشر نفر ثم بلغوا معه حتى يمنعوه لينحرن أحدهم تقرباً إلى الله عند الكعبة ، فلما توافى له بنوه عشرة وعرف أنهم سيمنعونه جمعهم وأخبرهم بنذره فأطاعوه وقالوا له : أوف بنذرك ، فأسهم بينهم وقال لسادن أعظم أصنامهم (هبل) اضرب عليهم بالقداح ، فضرب عليهم فخرج سهم عبد الله وكان فيما يقول الرواة أصغر بنى عبد المطلب وأحبهم إليه ، فأخذه بيده وأخذ الشفرة بيده الأخرى ثم أقبل به على مذبح قريش الذى تذبح فيه قربانها عند صنميها أساف ونائلة ليذبحه .

قال الطبرى : فقامت إليه قريش من أنديتها . فقالوا : ماذا تريد يا عبد المطلب ؟ قال أذبحه . فقالت قريش وبنوه : — أى بنو عبد المطلب إخوة عبد الله — والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتى بابنه حتى يذبحه فما بقاء الناس على هذا ؟ فقال له المغيرة بن عبد الله بن عمرو المخزومى — وكان عبد الله بن عبد المطلب ابن اخت القوم — والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه ، فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه .

وقال ابن سعد فى الطبقات : ثم أخبر عبد المطلب أولاده بنذره ودعاهم إلى الوفاء به لله فما اختلف عليه منهم أحد ، وقالوا : أوف بنذرك وافعل ما شئت ، فقال : ليكتب كل رجل منكم اسمه فى قدحه ففعلوا فدخل عبد المطلب فى جوف الكعبة وقال للسادن : اضرب بقداحهم فضرب فخرج قدح عبد الله أولها — وكان عبد المطلب يحبه — فأخذه بيده يقوده إلى المذبح ومعه المدية ، فبكى بنات عبد المطلب ، وكن قياما ، وقالت إحداهن لأبيها : اعذر فيه بأن تضرب فى أبلك السوائم التى فى الحرم فقال للسادن اضرب عليه بالقداح وعلى عشرة من الإبل — وكانت الدية يومئذ عشرا من الإبل — فضرب فخرج القدح على عبد الله ، فجعل يزيد عشرا عشرا كل ذلك يخرج القدح على عبد الله حتى كملت المائة فضرب بالقداح فخرج القدح على الإبل فكبر عبد المطلب والناس معه واحتمل بنات عبد المطلب أخاهن عبد الله وقدم عبد المطلب الإبل فنحرها بين الصفا والمروة .

وقال ابن سعد أيضا فى رواية ابن مجلز : أن عبد المطلب أتى فى المنام فقيل له : احتفر ، فقال : أين ؟ فقيل له : مكان كذا وكذا ، فلم يحتفر ، فأتى فقيل له : احتفر عند الفرث

عند النمل عند مجلس خزاعة ونحوه فاحتفر فوجد غزالا وسلاحا وأظفارا فقال قومه لما رأوا الغنيمة كأنهم يريدون أن يغازوه ، فعند ذلك نذر لئن ولد له عشرة لينحرن أحدهم فلما ولد له عشرة وأراد ذ. عبد الله منعته بنو زهرة ، وقالوا : أقرع بينه وبين كذا وكذا من الإبل، فأقرع فوقعت عليه سبع مرات وعلى الإبل مرة ثم صار من أمره أن ترك ونحر الإبل .

وفى حديث رواه الحاكم فى المستدرك عن معاوية بن ابى سفيان قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاه أعرابى فقال : يا رسول الله خلفت البلاد يابسة والماء يابسا هلك المال وضاع العيال ، فعد على مما أفاء الله عليك يابن الذبيحين ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم ينكر عليه ، قال معاوية — مبيناً من هما الذبيحان فى قول الأعرابى — أن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله إن سهل الأمر بها أن ينحر بعض ولده فأخرجهم فأسهم بينهم فخرج السهم لعبد الله فأراد ذبحه فمنعه أخواله من بنى مخزوم ، وقالوا : أرض ربك وافد ابنك ففداه بمائة ناقة ، فهو الذبيح الأول وإسماعيل الذبيح الثانى .

هذه أربع روايات تتفق كلها على أصل قصة نذر عبد المطلب ذبح أحد بنيه ، وتختلف فى سبب هذا النذر ، فحديث معاوية الذى رواه الحاكم يجعل هذا النذر من قبيل الشكر على تسهيل زمزم وسائر الروايات يجعله من قبيل الشكر على منح عبد المطلب أولاده الذين منعوه من بغى قريش وعدوانها وتتفق هذه الروايات على أن عبد الله بن عبد المطلب هو الذى خرج سهمه ليكون الذبيح . وتختلف فيمن تصدى لعبد المطلب فمنعه من ذبحه .

هل المتصدى أبناء عبد المطلب ؟ كيف والرواية تذكر أنهم جميعا أطاعوه حينما أخبرهم بنذره وقالوا له : افعل ما تشاء ؟ ولكن العاطفة عند رؤية العزيمة وقيام قريش معهم يقرب ذلك ويجعله مقبولا . أو المتصدى لعبد المطلب بناته . بكين لما رأين وسائل التنفيذ قائمة . وقالت إحداهن كالمنبهة لعقل عبد المطلب وعاطفته : أعذر فيه بإبلك السوائم فى الحرم ؟ أو المتصدى هم أخوال عبد الله من بنى مخزوم يقدمهم شيخهم المغيرة بن عبد الله تعززا بابن أختهم ! أوهم بنو زهرة حلفاء بنى عبد مناف . هذه الرواية التى تسند منع عبد المطلب من ذبح عبد الله إلى بنى زهرة أغرب الروايات وأعجبها وهى رواية تلفت نظر الباحث إلى ماجاء

بعد قصة الذبح مباشرة من زواج الذبيح عبد الله بآمنة بنت وهب سيد بنى زهرة . فهل كان بين قيام بنى زهرة دون ذبح عبد الله وإصهارهم إليه صلة ؟ .

ولم لا ؟ وبنو زهرة منذ كانوا هم حلفاء بنى عبد مناف وشركاؤهم فيما ينوبهم . وأقرب بطون قريش مودة إلى بنى هاشم. والمعهود بين الناس طبيعة وعرفا أنه إذا كان بين بيتين من البيوتات صلة مودة وتحالف وناب أحدهما نائبة قام معه أهل مودته وحلفه متقدمين على سائر أقاربه توكيدا لمظهر المودة والحلف . فلما تصدى بنو زهرة ومنعوا عبد المطلب من ذبح ابنه وأجابهم إلى الفداء طاروا بالذبيح فرحين إلى بيوتهم احتفالا بحياته وسرورا بنجاته . وفى غمرة السرور طارت الكلمات بالتهنئة والتحايا يتولاها سيد البيت وزعيمه . وكانت كلمات التودد والتحبب إلى الذبيح . وجرى حديث مداعبة الشباب بالمصاهرة فتسمع الشيخ الهاشمى وأعجبه فنقلها جدا بينه وبين سيد زهرة توكيدا لمظاهر المودة على سنن الناس وعوائدهم. وأجاب سيد زهرة كما يجيب كل نبيل يدعى إلى مكرمة من كفء كريم . وارتفعت الكلمات إلى تحقيق موعود الله باصطفاء عبد الله

ابن عبد المطلب وآمنة بنت وهب قرارا لخير نسمة برأها الله في الوجود .

وفي رواية عند الطبري عن عبد الله بن عباس أن امرأة نذرت أن تنحر ابنها عند الكعبة في أمر إن فعلته ففعلت ذلك الأمر . فقدمت المدينة لتستفتي عن نذرها فجاءت عبد الله بن عمر. فقال لها عبد الله بن عمر : لا أعلم الله أمر في النذر إلا الوفاء . فقالت المرأة أفأنحر ابني ؟ قال ابن عمر : قد نهاكم الله أن تقتلوا أنفسكم . فلم يزدها عبد الله بن عمر على ذلك . فجاءت عبد الله ابن عباس فاستفتته فقال : أمر الله بوفاء النذر ونهاكم أن تقتلوا أنفسكم . وقد كان عبد المطلب بن هاشم نذر إن توافى له عشرة رهط أن ينحر أحدهم فلما توافوا عشرة أقرع بينهم أيهم ينحر فطارت القرعة على عبد الله بن عبد المطلب وكان أحب الناس إلى عبد المطلب. فقال عبد المطلب : اللهم هو أو مائة من الإبل؛ ثم أقرع بينه وبين الإبل فطارت القرعة على المائة من الإبل ؛ فقال ابن عباس للمرأة فأرى أن تنحري مائة من الإبل مكان ابنك ؛ فبلغ الحديث مروان وهو أمير المدينة . فقال : ما أرى ابن عمر ولا ابن عباس أصابا الفتيا إنه لا نذر في معصية الله استغفري الله وتوبي إلى الله وتصدقي واعملي ما استطعت من الخير ؛

أما أن تنحرى ابنك فقد نهاك الله عن ذلك ، فسر النـاس بذلك وأعجبهم قول مروان ، ورأوا أن قد أصاب الفتيا ، فلم يزالوا يفتون ألا نذر فى معصية الله .

وقد ذكرنا هـذه الرواية استيفاء لعرض روايات قصة الذبيح ، وهى رواية عجيبة لأنها تسند إلى رجلين من أعلام علماء الصحابة ورأسين من رءوس العبادلة اشتهرا بالفقه فى الدين وحمل الشريعة والتصدر للفتيا ، هما عبد الله بن عمر بن الخطاب وحبر الأمـة عبد الله بن عباس - جهلا بحكم شرعى يعلمه أقل الناس فقها فى الدين ، وتسند إلى عبد الله بن عمـر أنه افتى فلم يصب الفتيا مع أن الرواية تقـول أنه لم يزد على أنه بين أن الله أمر فى النذر بالوفاء ونهى عن قتل النفس ، وهذا توقف فى حكم المسألة وليس فتوى وتسند إلى ابن عبـاس أنه أفتى المرأة بنحر مائة من الإبل مستدلا بفعل عبد المطلب بن هاشم ، ولم يقل أحد من أهل العلم فى الإسلام أن فعل عبد المطلب حجة فى دين الله ؛ وأطم من ذلك وأفحش أن هذه الرواية تسند الجهل بهذا الحكم الشرعى إلى عامة الأمة فى الصدر الأول من الصحابة وتلاميذهم ما عدا مروان الذى كشف عن هذا الحكم ففرح الناس به وتعلموه يومئـذ ؛ ولم يزالوا من يوم مروان هـذا فقط يفتون

ألا نذر فى معصية الله ؛ وليت شعرى ما كانت فتواهم فيما يعرض لهم من نذر المعصية قبل وجود مروان بعلمه ؟ هذه الرواية نجزم بعدم صحتها ؛ ولوائح الوضع السخيف عليها لائحة فلا يسوغ التعويل عليها فى شىء :

والروايات فى قصة عبدالله الذبيح تكاد تجمع على أن عبدالمطلب أسهم بين بنيه لينحر أحدهم وفاء بنذره بعد أن بلغوا عشرة ؛ وبعض الروايات يجعل بلوغهم عشرة هو مناط النذر بل أن صاحب الطبقات من رواية الواقدى يعدهم بأسمائهم فيقول : فلما تكاملوا عشرة ـ فهم الحارث ؛ والزبير ؛ وأبو طالب ؛ وعبد الله ؛ وحمزة ؛ وأبو لهب ؛ والغيداق ؛ والمقوم ؛ وضرار والعباس ؛ وصاحب الطبقات نفسه يقول : فكان تزوج عبدالمطلب بن هاشم وتزوج عبد الله بن عبد المطلب فى مجلس واحد ؛ فولدت هالة بنت وهيب لعبد المطلب حمزة بن عبد المطلب فكان حمزة بن عبد المطلب عم الرسول صلى الله عليه وسلم فى النسب وأخاه من الرضاعة ؛ ومعلوم أن زواج عبد الله بآمنة وزواج عبد المطلب بهالة كانا بعد قصة الذبح ؛ فكيف يكون أولاد عبد المطلب عند العزم على الوفاء بالنذر قد بلغوا عشرة وحمزة لم يولد بعد ؛ والعباس أصغر من حمزة وكان حينئذ لا يزال غيبا من الغيب ؟

وكيف يعد حمزة والعباس باسميهما فى أولاد عبد المطلب الذين تكاملوا عشرة ليفى بنذره ؟ وأعجب من ذلك أن الطبرى وغيره يصرحون بأن عبدالله أصغر ولد أبيه ، فكيف يكون أصغرهم وفيهم حمزة وهو لم يكن قد ولد يوم أن تزوج عبد الله؟وعباس أصغر من حمزة ، وكان لقربه من رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتبه على بعض الناس سنه بسنه، فقدروى أنه سئل بعد إسلامه أنت أكبر أم رسول الله ؟ فقال : هو أكبر منى وأنا أسن منه وروى عن العباس أنه قال : أذكر مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ابن ثلاثة أعوام أو نحوها وجىء به حتى نظرت إليه . وجعل النسوة يقلن لى : قبل أخاك فقبلته . فأين ميلاد العباس من ميلاد أخيه عبد الله والد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

هذا لون مما يدخل على الروايات من الغلط فيتناقله الرواة دون نقد وتمحيص حتى يتقادم فلا يعرف مخرجه أو يتمحل له وهو كثير فى روايات التاريخ الجاهلى . ولا تخلو منه روايات التاريخ الإسلامى . وقد انخدع به كثير من الباحثين المعاصرين ونحن ننبه على ما يعرض لنا منه فى ثنايا البحث مما قد يصادم حقيقة تاريخية .

وقد عرض القسطلانى فى مواهبه إلى نقد هذه الرواية ولكنه أبعد النجعة فى محاولة المخرج ، فقال : وقد استشكل بعض الناس

أن عبد المطلب نذر نحر أحد بنيه إذا بلغوا عشرة وقد كان تزوجه بهالة أم ابنه حمزة بعد وفائه بنذره ، فحمزة والعباس ولدا عبد المطلب إنما ولدا بعد الوفاء بنذره، وانما كان أولاده عشرة بهما ، قال السهيلى : ولا إشكال فى هذا ، فإن جماعة من العلماء قالوا : كان أعمامه عليه السلام اثنى عشر فإن صح هذا فلا اشكال فى الخبر ، وإن صح قول من قال : كانوا عشرة لا يزيدون ، فالولد يقع على البنين وبنيهم حقيقة لا مجازا ، فكان عبد المطلب قد اجتمع له من ولده وولد ولده عشرة رجال حين أوفى بنذره .

ورواية الاثنى عشر رواها ـ أيضا ـ ابن سعد فى الطبقات ولكن من طريق ابن الكلبى وقد اضطربت فى ذكر الأسماء فبلغت بهم ثلاثة عشر كما ذكرت فى الاجمال قبل التفصيل بتعديد الأسماء ، فزادت على رواية الواقدى المتقدمة ثلاثة ،

هم عبد الكعبة وحجل[1] وقثم والاعتماد على هذه الرواية فى دفع الأشكال اعتماد على متكأ ضعيف وأكثر الروايات المحددة تقف عند العشرة . ورواية الزيادة انفرد بها ابن الكلبي .

وزعم أن الولد يقع على الولد وولده تكلف لا تحتمله حقائق التاريخ . وأقرب الروايات — رواية الحاكم فى حديث معاوية الذى ذكرناه سابقا ، ومحصلها : أن عبد المطلب نذر نحر بعض ولده إن سهل الله له حفر زمزم هكذا دون تحديد لعدد أو تسمية لأحد ، فلما تم له ما أراد أسهم بين ولده الموجودين ومنهم عبد الله والد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أصغرهم وأحبهم إلى أبيه ، فخرج سهمه لتتم المحنة وتجمل بعدها المنحة ، فكان هو الذبيح المفدى .

---

(١) فى البداية والنهاية لابن كثير أن الغيداق لقب لحجل وليس اسما لغيره ، وفيه أن عبد الكعبة اسم المقوم وقيل هما اثنان ، وفيه أن حجلا اسمه المغيرة وأن الغيداق لقب لرجل منهم اسمه نوفل وهو غير حجل .

تزويج عبد الله بن عبد المطلب

وصلت قصة الذبيح إلى هذه النهاية لتبدأ بها قصة الحياة في صورة أكبر من عبد المطلب ونذره وسوائمه في الحرم، وأكبر من قريش وزمزم، تلك هي قصة التأذن بميلاد الإنسانية وتجديدها في أكمل صورة من صلة السماء بالأرض، روع الفتى عبد الله بن عبد المطلب أيما ترويع وقد رأى من أبيه شيخ قريش وسيدها الجد النافذ والعزيمة الصارمة في أمر ذبحه، ورأى الموت إلى جانب أبيه يرقبه ليختطفه من بين أخوته وأخواته اللائي بكين له وانتحبن عليه فزاده بكاؤهن ترويعا، فتوزعت مشاعره وتبددت أحاسيسه، وذهبت به الخوالج كل مذهب.

حياة البنوة امتداد لحياة الأبوة، هذا هو قانون الأزلية للحياة، فلو كان أحد في هذا الوجود يملك أن يعطي من حياته وعمره شيئا يضاف إلى حياة غيره لما وجد — عن صدق وجداني — من يجود بذلك من غير تلفت أو حساب سوى أبيه يسخو في إسراف ليمد في حياة ابنه وهو راض مغتبط، يملأه شعور داخلي في نفسه بأنه لم ينزل عن شيء من حياته لغيره،

لأنه يتمثل فى شخص ابنه ومثالهذاته وشخصيته،ويرى فى وجود ابنه وحياته وجوده وحياته ، فأى إنسان لا يروع ولا يطيش صوابه وتتحلم أعصابه وهو يرى أباه أرحم الناس به وأحبهم إلى قلبه ، وألصقهم بنفسه وأسرعهم إلى رغائبه وهواه ، يمشى به على مشهد من هـذه الدنيا ليذبحه على أبشع صورة وأشنع منظر مر على إنسان فى هذا الوجود؟أى شىء هذا الذى ينتظر عبد الله ابن عبد المطلب ؟ إنه الذبح ، إنه دمه الزكى يتطاير من شفـرة أبيه على أرض الحرم تقربا لأحجار قريش، إنها إنسانيته الناطقة الضاحكة الجميلة تحال إلى . . إلى ماذا ؟ إلى صورة بهيمة تذبح ومن الذابح ؟ أنه الوالد الذى صبت فيه الحياة أضخم ماتملك من ذخيرة فى عصارة الشفقة والحب والرحمة والحنان ، أى ابتلاء هـذا ؟ وارحمتاه للشيخ الوالد مرة أنه يمشى إلى النهاية فليصبر أوليذهب ولكن وأرحمتاه ألف مرة للشباب الفينان الذى سيصهر والعود الريان الذى سيذوى ويجف ماذا من الأمانى والآمال فى خيال هذا الشباب الغض المقبل على زهرة الحيـاة ونضارتها ستقطعها عن الوجود الثرى تلك اللحظة المشئومة؟وماذا من الرؤى والأحلام فى عينيه الظامئتين لرحيق الحياة ؟ بل ماذا من الأفكار والتقديرات فى رأس هذا الفتى الحيران ؟ .

إنها لحظة ويسدل الستار على آخر فصول هـذه الرواية الباكية الدامية ، لحظة وينصرف النظارة وينتهى كل شىء .

لـكن القدر المسيطر على منافذ الحياة كان أسرع من خوالج عبد الله الذبيح ؛ وهو اتف عبد المطلب وعزيمته وتضرعات أبنائه ودموع بناته ، وكأن ضوءاً ساطعا لمع فجأة فأنار زوايا نفس الشيخ الأسيف وكشف عن بصيرته وهو آخذ بيد ابنه الحبيب وفى يده الأخرى الشفرة المشحوذة يمشى به خطا متثاقلة إلى مذبح قريش . يحدث نفسه والهم القاطع يعتلج فيها ويصيح : الوفاء وإذا به يجأر إلى السماء بـكل ما تملك الأبوة من حنو واسترحام :: اللهم هو أومائة من الأبل ؛ بخ ؛ بخ ؛ فداء فريد فى ضخامته ، فـداء لم تعرفه العرب لعربى قبل عبد الله الذبيح ؛ ولم تعرفه قريش قبل لمفدى قبل أن تسخو به نفس عبد المطلب ، فداء عظيم لأنه لمفدى حبيب من أب يحترق قلبه أسى وتذوب كبده هما وأسفا ، قالوا وتعطفت آلهة عبد المطلب وقبلت الغداء ونجا الذبيح عبدالله من الموت ؛ وكان لا بد أن ينجو ؛ القدر الـكريم كان قد اختاره منذ الأزل ليكون مشرق ديباجة الحياة فى صلة السماء بالأرض لآخر مرة فى حياة الأحياء .

نجا عبد الله من الموت وبقى له الفزع والروع يملآن حنايا نفسه

ويرعسمان لى ملامحه آثارهما وهو بعد شاب غض الأهاب لم يكمل الحلقة الثانية من عمره النضير أوجاوزها بشيء قليل ؛ فأى شيء يعوضه ويرد إليه نفسه الذاهبة مع إبل الفداء ؟ وأى شيء يبعث فى قلبه السكون والطمأنينة ؟ وأى شيء يعيد إليه مرح الشباب وينسيه آلام تلك الساعة الفادحة ؟لاشيء غير الزواج أمنية الشباب وأمله ؛ ومسرح خواطره ورؤاه ؛ ومجتمع لذاته وأحلامه ؛ وصحت عزيمة الشيخ على أن يمسح بيد حنانه الأوصاب عن قلب ابنه الحبيب ؛ ومضى فى طريقه إلى حلفائه أبناء عمومته الأعلين بنى زهرة يخطب لابنه الذبيح سيدة عقائل العرب آمنة بنت وهب سيد بنى زهرة، وهنا يجيء دور التاريخ ليتحدث فنسمع منه : وتختلف رواياته فى كثير من أمر هذا الزواج كعهدنا بهذا التاريخ ؛ الظالم المظلوم ؛ فى كل شيء من حوادثه ؛ بل الجاهلى منها .

كانت سن عبد الله بن عبد المطلب يوم محنة الذبح سن شاب أقرب إلى الحداثة ؛ ولكنها الحداثة الفارعة التى تسبق إليها الرجولية فى سرعة مستعجلة ؛ وهى سنه يوم أن خطب له أبوه آمنة بنت وهب ؛ ويوم أن بنى بها فحملت برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتزوج هذا الصنف من الفتيان فى هذه السن المبكرة يكون إما من قبيل التدليل والترف الناعم تزيدا فى التحبب والتحنن وإما من قبيل العطف والرحمة لإزاحة أثقال حادث فادح ألم فأمض ، فقد تكون دواعى تزويج عبد الله الذبيح مزيجا من اللونين ، فهو أحب أبناء أبيه إليه وقد ابتلى بأقسى ما يبتلى به إنسان مع ما كان قد بلغ أبوه الشيخ من سن تبتدر فيها نهاية الآمال إلى حيز الوجود ، وقد حمل فوق كاهله من ثقل غاربات الأيام والسنين ما يوحى إليه بما يسبق به الزمن فى تحقيق رغائب الحياة لمن يحبهم .

والذين ذهبوا مذهب التحديد والضبط فى تقدير سن عبدالله ابن عبد المطلب وقت تزويجه - وهو أمر يحف به الشك ، لأن الحياة يومئذ لم يكن لديها من الوسائل ما يسمح بتحديد وضبط مثل هذه الأمور عند العرب - اختلفوا ، فالطبرى وابن الأثير يحددان تلك السن تحديدا دقيقا بما يقف بها عند الثامنة عشرة قال ابن الأثير تبعا لأبى جعفر : ولد عبد الله بن عبد المطلب أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم لأربع وعشرين سنة مضت من سلطان كسرى أنوشروان ، وولد رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة اثنتين وأربعين من سلطانه اهـ وقد اتفق الرواة على أن

ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى طى العام الذى تزوج فيه أبوه بأمه، فلم يكن بين بناء عبدالله الذبيح على آمنة بنت وهب ومولد رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى مدة الحمل، وهى على المحقق من الروايات تسعة أشهر كوامل، فتكون سن عبد الله - على هذه الرواية - ثمانى عشرة سنة.

ويذهب ابن سعد فى الطبقات إلى أن سن عبد الله بن عبد المطلب يوم وفاته كانت خمسا وعشرين سنة، وهو يصرح بأن وفاته كانت ورسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ حمل فى بطن أمه، ويتفق مع سائر الرواة فى أن الحمل برسول الله صلى الله عليه وسلم عقب تزوج أبيه بأمه، وعلى ذلك تكون سنة وفاة عبد الله أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم هى سنة تزوجه بأمه، فتكون سنه - على هذه الرواية - حين تزويجه خمسا وعشرين سنة.

وقد اختار هذا الرأى ابن كثير فى البداية والنهاية فقال: والمقصود أن أمه حين حملت به توفى عبد الله وهو حمل فى بطن أمه على المشهور، قال محمد بن سعد حدثنا محمد بن عمر - هو الواقدى - حدثنا موسى بن عبيدة اليزيدى، وحدثنا سعيد بن زيد عن أيوب بن عبد الرحمن بن أبى صعصعه قال: خرج عبدالله ابن عبد المطلب إلى الشام، إلى غزة فى عير من عيرات قريش

يحملون تجارات ، ففرغوا من تجارتهم ثم انصرفوا فمروا بالمدينة وعبد الله بن عبدالمطلب يومئذ مريض ، فقال : أنا أتخلف عند أخوالى بنى عدى بن النجار ، فأقام عندهم مريضا شهرا ومضى أصحابه فقدموا مكة ، فسألهم عبد المطلب عن ابنه عبد الله، فقالوا: خلفناه عند أخواله بنى عدى بن النجار وهو مريض ، فبعث إليه عبد المطلب أكبر ولده الحارث فوجده قد توفى ودفن فى دار النابغة ،فرجع إلى أبيهفأخبره ؛ فوجد عليه عبد المطلب وأخوتهوإخواته وجداشديدا؛ورسول الله يومئذ حمل ولعبدالله بن عبد المطلب يوم توفى خمس وعشرون سنة ؛ قال الواقدى : هذا هو اثبت الأقوايل فى وفاة عبدالله وسنه عندنا .

ثم قال ابن كثير : والذى رجحه الواقدى وكاتبه الحافظ محمد بن سعد أنه عليه الصلاة والسلام توفى أبوه وهو جنين فى بطن أمه ؛ وهذا أبلغ اليتم وأعلى مراتبه .

قصة المتعرضة لعبد الله بن عبد المطلب

كان من الطبيعي فى بيئة قريش ومكة وحرمها بعد حادث نذر عبد المطلب وما انتهت إليه قصة الذبيح أن يستشرف كثيرات من النسوة إلى عبد الله بن عبد المطلب ليكون لهن وينجبن منه ؛ فهو أنهد شباب الحرم وأشب ما يكون فتى فى فتيان مكة ؛ وأجمل رجال قريش وأنضرهم ؛ وهو المختار لذلك الحادث الخطير الذى كان حديث قريش ومكة كلها فى محافلها وبيوتها إلى جانب ما كان يتناقله المحدثون فى مجالس السمر ومحافل الملأ من أنباء وبشارات تلقفها التجار والسمار والمتأهلون من أذواه الأحبار والرهبان وقارئى كتب الأقدمين عن نبى يبعث من العرب قد أظل الناس زمانه ؛ ومن أجدر بالنبوة وهى منصب دينى من قريش قطان الحرم وجيران البيت ؟ ومن أحق بها فى قريش من بنى عبد المطلب وهم أصحاب مراتب الشرف الدينى فى الحرم؟ بل من أحرى بها يحمل نورها من هذا الفتى الذى اختارته الإرادة العليا قربانا وزلفى ؟ والنساء أبدا مولعات بالغرائب والفرائد

فليس من المستغرب أن تعرض امرأة أو أكثر نفسها على عبد الله الذبيح عقب نجاته وفدائه ولكن الله الذى أدخر ماحمل عبد الله من شرف نورانى ونور قدسى لأشرف عقائل قريش آمنة بنت وهب هو الذى صانه عن الإستجابة إلى من تعرض له، قال أبو جعفر الطبرى وعبد الملك بن هشام : ثم انصرف عبد المطلب آخذاً بيد ابنه عبد الله فمر — فيما يزعمون — على امرأة من بنى أسد يقال لها أم قتال ، واسمها رقيقة أو قتيلة بنت نوفل بن أسد بن عبد العزى وهى أخت ورقة بن نوفل بن أسد ، وهى عند الكعبة ، وكانت تنظر وتعتاف[1] فقالت له حين نظرت إلى وجهه : أين تذهب يا عبد الله ؟ قال : مع أبى ، قالت: لك عندى مثل الإبل التى نحرت عنك وقع على الآن ، قال : أنا مع أبى ، ولا أستطيع خلافه ولا فراقه ، فخرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة ، وهو يومئذ سيد بنى زهرة سناً وشرفا فزوجه آمنة بنت وهب ، وهى يومئذ أفضل امرأة فى

(١) تعتاف : من العيافة ، وهى التكهن وصدق الحدس والظن وزجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها قال ابن منظور فى اللسان : وفى الحديث : أن عبد الله بن عبد المطلب أبا النبى صلى الله عليه وسلم مر بامرأة تنظر وتعتاف فدعته إلى أن يستبضع منها فأبى .

قريش نسباً وموضعاً ، فدخل عليها مكانه حين ملكها فحملت برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم خرج من عندها حتى أتى المرأة التى عرضت عليه ما عرضت ، فقال : مالك لا تعرضين اليوم على ما كنت عرضت على بالأمس ، فقالت له : فارقك النور الذى كان معك بالأمس ، فليس لى بك اليوم حاجة ..

وقال ابن كثير فى البداية والنهاية من طريق أبى بكر الخرائطى عن ابن عباس : لما انطلق عبد المطلب بابنه عبد الله ليزوجه مر به على كاهنة من أهل تبالة متهودة قد قرأت الكتب يقال لها فاطمة بنت مر الخثعمية فرأت نور النبوة فى وجه عبدالله فقالت : يا فتى هل لك أن تقع على الآن وأعطيك مائة من الإبل فقال عبد الله :

أما الحرام فالممات دونه والحل لا حل فاستبينه
فكيف بالأمر الذى تبغينه يحمى الكريم عرضه ودينه

ثم مضى مع أبيه فزوجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ، فأقام عندها ثلاثة أيام ثم إن نفسه دعته إلى ما دعته إليه الكاهنة فأتاها فقالت : ما صنعت بعدى ؟ فأخبرها فقالت : والله ما أنا بصاحبة ريبة ، ولكنى رأيت فى وجهك نوراً فأردت أن يكون فى وأبى الله إلا أن يجعله حيث أراد ، ثم أنشأت تقول:

إنى رأيت مخيلة لمعت ... فتلألأت بحناتم[1] القطر

فلمائها نـــور يضىء له ... ما حوله كإضاءة البـــدر

ورجوتها فخراً أبوء به ... ما كل قادح زنده يورى

لله ما زهرية سلبت ... ثوبيك ما استلبت وماتدرى

وقالت أيضاً :

بنى هاشم قد غادرت من أخيكم ... أمينة إذ للبـاه يعتركان

كما غادر المصباح عند خموده ... فتائل قد ميثت له[2] بدهـان

وروى ابن سعد فى الطبقات قصة الخثعمية وذكر البيتين المنسوبين لعبد الله دون أن يذكر فيهما الشطر الأخير من البيت الثانى ، وكأن هذا أشبه ، أما الشعر المنسوب إلى الخثعمية فهو شبيه بموضعه ، وفى بيتيها الأخيرين توضيح يشبه أن يكون طبيعياً لدوافع الرغبة فى عبد الله بن عبد المطلب ، فهو شـاب مشبوب الحيوية ، خصيب البـدن ، ريان الدم ، قوى البنيان جميل المحيا ، باهر الطلعة ، لا يرى فى قريش فتى أحسن منه قامة ولا أوسم وسامة ، ولا أحلى منه منظراً ، ولا أعدل منه قدا ، ولا أملح منه وجهاً ، ولا أرفع منه حسباً ولا أعرق منه نسباً ،

---

(١) الحناتم : سحائب سود . (٢) الميث : المرس والإذابة .

وأما حديث النور الذى تقول الرواية أن النسوة المستعرضات له رأينه فى وجهه فطلبن منه ما طلبن من أجله فهو قد يكون حديث الرغبة العارمة التى حركتها المناسبة فى حادث الذبح والفداء ، فتخيلت رواء الشباب وإشراق الجمال ، ونخر الأحدوثة بهذا الحادث الفريد نور ابهر ، وغرة تسطع ، وليس بعجيب أن يكون عبد الله والد رسول الله صلى الله عليه وسلم تميز بجمال فوق جمال أقرانه وحسن فوق حسن لداته ، وحيوية أشب وأقوى من حيوية أمثاله لما يحمل من بذرة النبوة التى استدارت فى ذاته إكتمالا فاستنارت على وجهه حسناً وجمالا حسبه الراؤون غرة فى وجهه تسطع ، أو نوراً فى جبهته يلمع وليس هو — فى بديهة الرأى — شيئاً من أنوار الناس الحسية المعروفة ، ولكنه نور روحى قدسى تمثل فى قوة الحيوية الطافحة والجمال الغامر ، والإشراق الباهر ، فعبرت عنه كل رائية بما تمثلت أو تخيلت ، وفى قول الخثعمية :

كما غادر المصباح عند خموده فتائل قد ميثت له بدهان

لفتة فنية بديعة عميقة لا يقدر على تصويرها إلا أنثى امتازت فى أنوثتها وعرفت من أمر الرجال ما لم يعرف غيرها من أمثالها فعبد الله مر عليها فى أول مروره مرافقاً لأبيه وهو ريان الشباب

طافح الحيوية ، مياس الفتوة ؛ بكر الرجولة ؛ لم يعرف النساء ولا عرفه النساء ؛ ولم تعتصر حيويته ولم يستلب شبابه ولا انتزع رواؤه ؛ ولكنه بعد ذلك تزوج آمنة بنت وهب وهى أبرع فتاة فى قريش ؛ وللشباب عرامة وإسراف ؛ فلما خرج من عند زوجه وكان قد أودعها سر النبوة ونورها ومر بصاحبته المتعرضة أعرضت عنه بعد شغفها ؛ وحدثته نفسه بما تحدث به نفس كل فتى فى موقفه وطلب إليها ما كانت طالبته منه بالأمس فأبت عليه لأنها عفيفة شريفة ؛ كانت قد أرادت إلى شيء منه قد ذهب عنه فما حاجتها به ؟ أين تلك الحيوية الطـــافحة ؟ وأين ذلك الشباب الريان ؟ وأين إشراقة ذلك الجمال الفينان ؟ وأين الحسن المشبوب فى وجه عبد الله ؟ لقد استلبته أمينة بنت وهب سر جماله وحيويته فغادرته ذا بلا نعسان ؛ وخامداً كسلان ؛ ومعصوراً يابساً كما غادرت الفتائل المروسة بالدهن المصباح عند خموده ونفاذ زيته ؛ فما نفعها فيه وما فائدتها منه ؟ لقد فازت به آمنة بنت وهب ؛ وما كل قادح زنده يورى .

وأغرب روايات المتعرضات روايات تذهب إلى أن عبدالله بن عبد المطلب كانت له زوجة مع آمنة أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وهذه الزوجة هى التى عرضت عليه نفسها أو هو

كان قد طلبها فأبطأت عليه فذهب إلى زوجه آمنة . روى الطبرى عن محمد بن إسحاق أن عبد الله دخل على امرأة كانت له مع آمنة بنت وهب وقد عمل فى طين له وبه آثار من الطين فدعاها إلى نفسه فأبطأت عليه لما رأت به من آثار الطين ؛ فخرج عنها فتوضأ[1] وغسل عنه ما كان به من أثر ذلك الطين وعمد إلى آمنة فدخل عليها فأصابها فحملت بمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ ثم مر بامرأته تلك ؛ فقال : هل لك ؟ فقالت : لا ؛ مررت بى وبين عينيك غرة فدعوتنى فأبيت ودخلت على آمنة فذهبت بها ؛ وهذه رواية تبدو عليها آثار الصنعة ؛ ويظهر أن صانعيها وضعوها دفعاً لما تضافرت عليه الروايات من أن امرأة عرضت نفسها على عبد الله قبل زواجه بآمنة بنت وهب أن يستبضع منها والاستبضاع نكاح الجاهلية معروف يقصد به نساؤهن الإنجاب ممن يرين عليه مخايل النجابة ؛ فكأن واضعى هذه الرواية أرادوا المبالغة فى تطهير والد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يراد لهذا النكاح الذميم ، وقد يرجح هذا قول ابن كثير فى تاريخه : وقد

(١) إن ثبتت هذه اللفظة فمعناها — من غير شك — الوضوء اللغوى الذى يعرفه العرب فى جاهليتهم ويكون عطف ما بعدها عليها عطف تفسير وتوضيح .

كانت أم قتال رقيقة بنت نوفل أخت ورقة بن نوفل توسمت ما كان بين عيني عبد الله قبل أن يجامع آمنة من النور فودت أن يكون ذلك متصلا بها لما كانت تسمع من أخيها من البشارات بوجود محمد صلى الله عليه وسلم وأنه قد أزف زمانه، فعرضت نفسها عايه، قال بعضهم: ليتزوجها، وهو أظهر.

فانظر إلى قوله عن بعضهم ليتزوجها واسنظهاره لذلك تعلم أن زعمهم فى المتعرضة أنها كانت زوجة لعبد الله مع آمنة حديث خيله الإغراق فى إرادة تصون والد رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تلك الأنكحة الجاهلية الذميمة، ومن ثم قال ابن كثير عقب ذلك: وهذه الصيانة لعبد الله ليست له وإنما هى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه كما قال الله تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته).

وأنت ترى أن الصيانة حاصلة ولو لم تكن المتعرضة زوجة لعبد الله مع أم رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن الله تعالى صانه عن إجابتها إلى ما أرادت؛ وادخر هذا الشرف فوضعه حيث أراد؛ وقد أنكر بعض الرواة والمؤرخين أن يكون لعبد الله زوجة غير أم رسول الله صلى الله عايه وسلم وجزم بأنه لم يتزوج غيرها؛ وهذا ما لا نشك فيه وهو رأى جمهور علماء السير والتاريخ.

ويظهر من تعدد الروايات واختلاف أسماء المتعرضات وأوصافهن أن قصة التعرض ربما تكررت مع أكثر من امرأة واحدة، وفى كلها حفظ الله والد رسوله صلى الله عليه وسلم حتى وضع نوره حيث أراد.

وكأنما عز على الرواة أن يخلو حديث زواج عبد الله ابن عبد المطلب بآمنة بنت وهب من طرافة الحب والقصص المترف الناعم فأضفوا عليه لونا من هذه الألوان الطريفة المستملحة فى رواية زعمت أن آمنة بنت وهب حدثت بجمال عبد الله وحسنه فرغبت فى زواجه فتزوجته، حكى الطبرى عن الزهرى قال: إن عبد الله بن عبد المطلب كان أجمل رجال قريش فذكر لآمنة بنت وهب جماله وهيئته وقيل لها: هل لك أن تزوجيه فتزوجته، فدخل بها وعلقت برسول الله صلى الله عليه وسلم. قال الواقدى: هذا غلط، والمجتمع عليه عندنا فى نكاح عبد الله بن عبد المطلب ما حدثنا به عبد الله بن جعفر الزهرى عن أم بكر بنت المسور أن عبد المطلب جاء بابنه عبد الله فخطب على نفسه وعلى ابنه فتزوجا فى مجلس واحد، فتزوج عبد المطلب هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة، وتزوج عبد الله

ابن عبد المطلب آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهـــرة .

ولولا هذا النقد الذى غلط به الواقدى - وهو من متقدمى الرواة ومؤرخيهم - هـذه الرواية لقلنا إنهـا تـكملة للرواية المشهورة ، تتمشى معهـا فى صورتها الطبيعية إلى أن خطب عبد المطلب آمنة بنت وهب لابنه عبد الله ، فحدثها أبوها أو عمها - على اختـلاف الروايات فيمن زوجها - عن خطيبها عبد الله ابن عبد المطلب ، وعن شبابه وجماله وعن هيئته كالمرغب فيـه حتى تأنس فلا تنفر وترضى فلا تأبى ، فرغبت فيه بعلا ورضيته زوجا ، وتلك سنة معروفة عند بعض العرب فى استشارة بناتهن فى أمر زواجهن وترك حرية اختيار الزوج لهن ، ولـكن نقـد الواقدى وتغليطه الرواة فى هـــذه الرواية يشعر بأن الرواة والمؤرخين يذكرون هـذه الأقصوصة على أنها رواية مستقـلة فى بيان الطريقة التى وصلت بعبد الله أبى رسول الله صـلى الله عليه وسلم إلى زواج آمنة أمه عليه الصلاة والسلام .

ومهما يـكن من شأن هـذه الروايات فإن عبـد الله بن عبد المطلب بنى بزوجه آمنـــة بنت وهب سيد بنى زهرة

فى أهلها ، فأقام عندها ثلاثا ، وكانت تلك السنة عندهم إذا دخل الرجل على امرأته فى أهلها .

وكان عبد الله بن عبد المطلب يعيش على سنة آبائه الأماجد تاجرا سفارا ، يذهب مع تجار قريش فى عيراتها إلى أسواق العرب ومتاجر اليمن والشام ، ولم يكن واسع الثراء كأصحاب المضاربات والمرابين من تجار قريش ، ولم يكن فقيرا يقعده الفقر عن أسباب الكسب والعمل والحياة من أشرف طرائقها ، ولا سيما بعد زواجه ، فقد أصبح مسؤولا عن بيت فيه زوجته التى وجب عليه أن يعولها ويقوم على واجباتها ، وقد شعر بهذا شعورا ملك عليه أحاسيسه حتى إنه لم يمهله - فى أشهر الروايات - أن يقيم جانب إلى زوجته بعد أن بنى بها أكثر من أيام معدودات ثم أذن مؤذن العير بالرحيل إلى الشام للتجارة فخرج مع قومه مودعا من أبيه الشيخ الأسيف وزوجته الحبيبة على جدة عهده بها وإخوته وأخواته وهم يرقبون عودته ، ولكن الأقدار التى تعلو بحكمتها على مدارك العقول أبت على عبد الله الذبيح أن يرجع من سفرته هذه ليشهد آمنة الزوجة الحبيبة وقد تنفس حملها عن أكرم مولود يشهد الحياة أول ما يشهدها يتيما .

وهكذا مات عبد الله بن عبد المطلب فى هذه الرحلة وهو عائد من الشام مارا بأخوال أبيه عبد المطلب بنى عدى بن النجار، وهكذا دفن عبد الله أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم بيثرب مدينة الأسرار والأنوار ، ومأوى المهاجرين والأنصار، ومهبط الوحى ومنزل الأحرار ، ومثوى الكملة الأبرار .

ولأمر ما كانت المدينة المنورة مرقد عبد الله أبى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يشهد الوجود طلعة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، ولأمر ما كانت من بعده مثوى محمد صلى الله عليه وسلم ، ولله تعالى حكمة فوق مدارك العقول والأفهام .

قصة أصحاب الفيل

أما الحادث الثانى فى حياة عبد المطلب جد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى وعدنا بالحديث عنه لأهميته فى تاريخه فهو حادث أصحاب الفيل، فقد كان عبد المطلب هو صاحب كلمة قريش وزعيم مكة وسيدها الناطق عنها، وله مع أبرهة قائد جيش الفيل موقف غريب فى ظاهره، بيد أنه كان حكمة وكياسة فى حقيقته، وهذا الموقف يصور طبيعة المسالمة والتأله فى عبد المطلب خاصة وقريش عامة، ومن هنا كانت خصيصة عبد المطلب فى قريش وشرفه وسيادته عليهم، فليست قريش من مساعر الحروب فى العرب، ولم يعنون لها التاريخ فى أيام حروب الجاهلية إلا بما ألجئت إليه الجاء، ولم يكن ذلك عن ضعف فيها أو جبن عن لقاء أقرانها ولكن طبيعة حياتها فى حرم الله وجوار بيته هى التى صنعتها على هذه الصورة المسالمة؛ وكذلك لم يكن سيدها عبد المطلب بن هاشم من رجالات الحروب وأبطال الغزو والقتال؛ بل كان رجل سلم وسلام؛ لأنه شيخ

الحرم الذى يأمن فيه الخائف فلا يهاج ؛ وينتصف فيه من الظالم للمظلوم ؛ وقد غابت هذه الطبيعة على قريش وعلى شيخها عبد المطلب فى موقفهم من أصحاب الفيل فهذا جيش جاء لغزو مكة وهدم بيتها المحرم وقريش سادنة البيت وصاحبة مجده . وعبد المطلب شريف قريش وسيدها ؛ فما كان من قريش ولا كان من عبد المطلب نهوض للحرب ووقوف فى وجه هذا الجيش المهاجم ليصدوه عن بلدهم وبيتهم ؛ كما وقف فى وجهه قبائل من العرب مر بها فى طريقه فعرفت وجهته فحاربته وهزمها ؛ ومضى فى طريقه إلى هدفه حتى دنا من مكة وتسامعت قريش وعبد المطلب بأخباره وعدده وعدته ؛ فقالوا : لا طاقة لنا بحربه ؛ وأشار عبد المطلب على قومه بالخروج من مكة وإخلائها صيانة لهم من عبث الجيش ومعرته فلجأوا إلى شعف الجبال تاركين البيت لرب البيت يحميه ويمنعه ؛ لأن التعرض لحرب هذا الجيش إنما هو انتحار على أبشع صورة يسوق إليها التهور المغرور ؛ وكان عبد المطلب فى رأيه هذا أكيس من رجل يدفع بقومه إلى الانتحار فى غير طائل ؛ فسالم وخلص بقريش فلم يصبها ما أصاب غيرها من القبائل المتعرضة لهذا الجيش الكثيف .

وقدر عبد المطلب فى نفسه أن الله رب البيت سيحمى هذا البيت ، وراح فى قومه قبل أن يخرجوا عن مكة يدعون الله ويستنصرونه لبيته وحرمه ، فلما جاء الله بنصره وأنزل نقمته على أعداء حرمه وبيته عرفت العرب لقريش هذه المكانة فقالوا أنهم أهـــل الله وجيران بيته يحامى عنهم ، وازدادت مكانة عبد المطلب رفعة عند قومه لأنه أنقذهم وصان حرمتهم وذاع صيته وصيت قريش فى أرجاء الجزيرة وتداول الناس الأحاديث عن عبد المطلب وعن أبنائه وقومه فى قبائلهم وبيوتاتهم ومحافلهم وأسواقهم ، وما صنع الله لهم ، وقد اتصل ذلك بحديث ميلاد حفيد عبد المطلب محمـــد صلى الله عليه وسلم ابن ولده الحبيب عبد الله الذبيح ، وهذا الاتصال ربط ذلك الحادث بسيرة وتاريخ رسول الله صلى الله عليه وسلم على صورة تجلت فى الامتنان عليه وعلى قومه وأمته بما صنع الله له ولبيته العتيق فصانه وصان أهل جواره عن عبث الغزاة وفجورهم، ورد عليهم كيدهم فى نحورهم وأهلكهم هلاك استئصال بما لم تجر به عادة الناس فكان ارهاصا لمقدم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعثته وأنزل الله فى ذلك سورة من سور القرآن الكريم سجل فيها هذا الحادث خاصة أروع تسجيل فى أوجز عبارة وأوضح أسلوب .

فقال تعالى : (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول) .

وفى خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى مفتتح السورة بهذا الأسلوب التقريرى المعجب، وانصباب الاستفهام على الرؤية وهو لم يكن من شهود الحادث عند وقوعه دليل على أن هذا الحادث كان معروفا متعالما مشهورا بشهوده وآثاره لدى الخاصة والعامة حتى كان الحديث عنه ممن شهدوه إلى من لم يشهدوه حديث رؤية وعلم يقين يستوى مع المشاهدة والعيان ، وفى انصباب الاستفهام على رؤية كيفية فعل الله بهؤلاء الطغاة دون انصبابه على ذات الفعل أو أثره فقيل : « ألم تر كيف فعل ربك » ولم يقل ألم تر ما فعل أو آثار ما فعل ربك ، إشارة إلى تهويل الحادث وإيذان بوقوعه على كيفية وحالة هى فوق مستوى ما عهده الناس وجرت به عادة فيما بينهم من طرائق وقوع الأحداث .

وإضافة الفعل المعجب عن طريقة وقوعه إلى الله بعنوان الربوبية المختصة بمحمد صلى الله عليه وسلم على ما تقضيه الإضافة إلى ضميره الخطابى خاصة ، دون ضمير غيره أو دون مشاركة معه

رمز إلى مزيد اختصاص هذا الحادث به وأنه كان من أجله ، ومن أجل بعثه ومن هنا اتفقت كلمة أهل الإسلام — إلا من زاغ عن الجادة — على أن الله قدم هذا الحادث تشريفا لخاتم أنبيائه وتعظيما لشأنه ، قال الإمام فخر الدين الرازى : ولا شك أن هذه الواقعة كانت دالة على قدرة الصانع وعلمه وحكمته ، وكانت دالة على شرف محمد صلى الله عليه وسلم وذلك لأن مذهبنا أنه يجوز تقديم المعجزات على زمان البعثة تأسيسا لنبوتهم وارهاصا لها .

وإبهام ما فعل الله بهم فى صدر الكلام ثم توضيحه وتفصيله فى صورة الاستفهام التعجبى والتعبير عن مقاصدهم الفاجرة بالكيد الدال على خفى التدبير وسىء المكر ، وامتنان الله بجعل ذلك هباء مضيعا لا يحظى منه صاحبه بطائل دليل على شدة قهر الله لهم وبطشه بهم وعلى فظاعة ما كانوا يستهدفون من هدم بيت الله وتخريبه والعبث بحرمه وهتك حرمات قطانه وأهله وفى العناية بالتنصيص على طريقة إهلاكهم وذكر ما أهلكوا به بعنوان متعارف فى صورة لم تجربها عادة ولا تعارفها الناس فيما بينهم منذ كانت الحروب والغزوات وتجمعات الجيوش آية على

أن هذه النهاية السريعة الخاطفة والصورة البشعة الهائلة التى انتهى بها هذا الحادث ليست من سنن الحياة المألوفة المكررة ، ولكنها من سنن الوجود المدخرة لأحيانها ومناسباتها، فهو معجزة لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم مقدمة عليها إرهاصا لها وتأنيسا بوقوعها أعلم الله بها نبيه ممتنا بها عليه عند تشريفه بدواعيها .

وإلا فمتى كان معهود الناس ومتعارف الأحداث أن طيرا - بهذا العنوان الذى له صورة خاصة لدى من يسمعه - تفد جماعات فى إثر جماعات تحمل معها حجارة من طين يابس متحجر حتى كأنه طبخ بالنار، ثم تعمد هذه الجماعات من الطير إلى جماعات من الناس مخصوصة لا تتعداهم إلى غيرهم فترميهم بما حملت من الحجارة فتصيب مقاتلهم إلا قليلا ممن نجا سقيما ليكون عنوانا على هول ما أنزل الله بهم من نقمة فى هذا الحادث الجسيم، هذا هو الذى قال الله تعالى وقصه علينا فى صراحة لا تحتمل لبسا ولا تأويلا ، وقد آمن بهذا المؤمنون ، وعلموا أن سنن الكون أجل من أن يحيط بها علمنا ، وأخطر من أن تكون حبيسة فى دائرة عقولنا المحدودة، أن منها سننا عامة معهودة متعارفة وأن منها سننا خاصة تقع عندما تتهيأ لها دواعيها ، وخوارق العادات التى يجريها الله على أيدى أنبيائه ورسله

من سنن الكون الخاصة التى جعلها الله عنوانا على صدقهم وتكريمهم .

أما الذين وقفت بهم عقولهم عند مألوف الناس واحتكموا فى الحوادث إلى العادات الجارية المتكررة وأرادوا أن يخضعوا سنن الله فى الكون وإرادته فى خلقه وسلطان قدرته إلى ما جرت به العادة وتعارفه الناس فقد قطع بهم أن يؤمنوا بهذا كما آمن المؤمنون بجلال الله وواسع قدرته ومحكم إرادته ، وعظيم سلطانه ، وأبوا الا تحريف كلم الله عن مواضعه وتأويل آياته الصريحة الصادقة ، والتمسوا فى الأمور العادية ملجأ للتأويل .

وفى قصة الفيل تشبثوا بالأوبئة العامة والأمراض الجائحة ليجدوا لهم مخرجا فى تأويلها حتى لا تكون من سنن الله الخاصة فى الكون والمعجزات الباهرة لمحمد صلى الله عليه وسلم فتحدثوا عن الحصبة والجدرى وراحوا يفسرون بهما هذا الحادث ، قال الامام فخر الدين الرازى فى تفسيره : واعلم أن قصة الفيل واقعة على الملحدين جدا لأنهم ذكروا فى الزلازل والرياح والصواعق وسائر الأشياء التى عذب الله تعالى بها الأمم أعذارا ضعيفة ، أما هذه الواقعة فلا تجرى فيها تلك الأعذار ، لأنه ليس فى شىء

من الطبائع والحيل أن يقبل طير معها حجارة فتقصد قوما دون قوم فتقتلهم ، ولا يمكن أن يقال أنه كسائر الأحاديث الضعيفة لأنه لم يكن بين عام الفيل ومبعث الرسول إلا نيف واربعون سنة ويوم تلا الرسول هذه السورة كان قد بقى بمكة جمع شاهدوا تلك الواقعة ولو كان النقل ضعيفا لشافهوه بالتكذيب فلما لم يكن علمنا أنه لا سبيل للطعن فيه .

وليس بلازم — على المحقق من مذاهب العلماء — ان تكون اى المعجزات مقرونة بالتحدى ، بل من المعجزات ما يجب أن يكون مقرنا بالتحدى ، وذلك ما جعله الله برهانا على صدق مدعى الرسالة كالقرآن الكريم (١) بالنسبة لمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ والعصا بالنسبة لموسى واحياء الموتى

---

(٢) وإنما انفرد القرآن الكريم من بين جميع المعجزات المحمدية بجعله برهان الصدق وقرنه بالتحدى لمناسبته لعموم الرسالة لأن التحدى به عم ويعم جميع من أرسل إليهم إلى يوم القيامة بخلاف سائر المعجزات فأنها لم يشهدها إلا قوم بأعيانهم فليس فيها عموم التحدى فلم تجعل برهانا عاما على صدق الدعوى وأن كانت برهانا لمن شهدها ، ولم يعرف من طريق صحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم تعلق بهذه المعجزات المادية الصادقة الوقوع برهانا على صدق رسالته .

بالنسبة لعيسى عليهما السلام ومنها ما يكون لمحض التكريم والتشريف سابقا للنبوة فى زمانها والعمدة فيه اتفاقه مع القسم الأول فى خرق العادة ومخالفة مجرى سنن الحياة المتكررة المعهودة كتظليل الغمامة وشق الصدر وتسبيح الحصى وتكثير القليل من الطعام أو الماء مما وقع لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم قبل نبوته أو بعدها ولم يتحد به ولم يتخذه برهانا على صدقه وإنما جعله الله له تكريما لمقامه وتشريفاً لقدره. وقد أغرق رواة السيرة وقصاص التاريخ فى رواية القصة فلونوها بألوان شتى، وأدخلوا عليها من الغرائب ما أوحى به الخيال المضفاض.

ونحن بعد أن شرحنا ما تضمنته سورة الفيل من سور القرآن الكريم، وهو أصدق وأحكم مصدر لما يقصه ويرويه من الدلائل والإشارات على مغزى القصة فى السورة ومرماها وطريقة أدائها للحادث فى مقدمته ونتائجه ودقيق عنايتها بنهايته التى هى محط العظة والاعتبار، نرى أن نلم إلمامة موجزة بأشبه روايات القصة وأقربها إلى الحق الواقعى فى كتب السيرة والتاريخ.

وقد اختلفت الروايات فى سبب هـــذا الحادث ومبعثه الذى هاجه وحرك إليه، فذهب جمهور الرواة إلى رواية محمد

ابن إسحق المشهورة التي تزعم أن أبرهة الأشرم أمير الحبشة على اليمن رأى إقبال العرب على الحج إلى مكة لتعظيم الكعبة بيت جدهم إبراهيم وأبيهم إسماعيل . فأراد أن يتقرب إلى سيده النجاشي - وكان نصرانيا - بصرف العرب عن مكة وكعبتها فابتنى كنيسة صرف همته في زخرفتها وتزيينها وكتب إلى النجاشي : أني بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ، ولست بمنته حتى أصرف إليها حاج العرب . فلما تسامع العرب بما صنع أبرهة اشتد عليهم فذهب بعض المتحمسين من متدينيهم واحتال حتى دخل تلك الكنيسة فعبث بها وقذرها فغضب أبرهة وأقسم ليهد من الكعبة ويطأن مكة ، وذهب ابن هشام الكلبي ومقاتل بن سليمان إلى أن سبب حادث الفيل أن فتية من قريش خرجوا تجارا إلى أرض الحبشة فنزلوا على ساحل البحر إلى جوار بيعة للنصارى يسمونها الهيكل ، فأوقدوا نارا لطعامهم وتركوها وارتحلوا فهبت ريح عاصف على النار فأضرمت البيعة نارا فاحترقت فأتى الصريخ إلى النجاشي فأخبره فاستشاط غضبا فأتاه أبرهة ابن الصباح وحجر ابن شرحبيل وأبو يكسوم الكنديون وضمنوا له إحراق الكعبة وسبي مكة .

هاتان الروايتان هما أمثل الروايات في سبب القصة ، وكلتاهما

محتملة الوقوع ، فالرواية الأولى ترد السبب إلى دوافع سياسية واقتصادية ، فالحبشة قوم متغابون على هذا القطر العربى . اليمن . يحكمونه وهم أجانب عنه ، لا يطمئنون إلى أهله ويتوجسون خيفة من اجتماعهم بإخوانهم عرب الشمال فى أرض الحجاز ، وهذه طبيعة كل متغلب أجنبى ، فلما رأوا رحلات أهل اليمن فى مواسم الحج خشوا مغبة ذلك على اقتصادهم وخافوا عاقبته على وجودهم ، فأرادوا أن يصرفوا الناس عن هذه الرحلات فبنوا كنيستهم ليحج الناس إليها ويتحول اقتصاد الجزيرة وتجاراتها فى مواسمها إلى بلادهم ، وبذلك يستطيعون مراقبة من تحدثه نفسه بالخروج على سياستهم المتغلبة تطلعا إلى الحرية والاستقلال إلى جانب ما قصد إليه أبرهة من استرضاء النجاشى والزلفى إليه .

والرواية الثانية تردالسبب إلىالعصبية الدينية وتربطه بأرض الحبشة نفسها وكانت الصلات التجارية بين العرب والحبشة معروفة ، ونزول التجار بجوار الأديرة والبيع والهيا كل مشهور وعادة القوافل إذا نزلت منزلا أن توقدالنيران لتطعم وتستدفىء فإذا رحلوا لم يحملوا معهم جذوات الجمر فى دفين الرماد ، فإذا هبت الريح اتقدت وازدادت اشتعالا وسرت مع الريح ، فإذا صادفت مسعــــرا تبسعرت واستشرت فأهلكت ودمرت ،

وفى الهياكل والبيع أدهان القناديل ومجتمع الهشيم .

فإذا لحقت النيران بأوله لم تلبث حتى تأتى على آخره ، ولعل هذا كان أثرا من آثار أولئك الفتية التجار من أبناء قريش الذين نزلوا بجوار بيعة الحبشة فاحترقت ، وظن الحبشة بالعرب الظنون وأرادوا الثأر لبيعتهم وعرفوا أن الكعبة هى هيكل العرب ومتعبدهم المقدس فأرادوا تخريبها ، فكتب النجاشى إلى عامله على اليمن أو سار العامل بمن معه من الحبشان إلى مكة بجيش جرار يقدمه الفيلة وطليعتها أعظمها ، فلما علم به العرب أعظموه وفظعوا به ورأوا قتاله وصده واجبا عليهم ، فتصدى له بعض من كان فى طريقه من قبائل العرب ، وكان أول من خرج لجهاده ومقاتلته رجل من أشراف اليمن وأذوائهم يقال له ذو نفر فدعا قومه ومن أجابه من العرب فقاتلوه فهزمهم أبرهة وأخذ ذو نفر أسيرا ، ثم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمى على رأس قومه ومن تبعه من غيرهم فقاتلوه فهزمهم أيضا وأخذ نفيلا أسيرا فكان دليل الحبشة فى طريقهم حتى إذا مروا بالطائف ألقت إليهم ثقيف بطاعتها وأرسلت معهم رجلا يقال له أبو رغال يدلهم على الكعبة فأنزلهم مكانا قرب مكة يقال له المغمس وفيه مات أبو رغال فكان سبة على ثقيف ، وذهبت طايعة الحبشة فاستاقت إلى أبرهة أموال أهل

تهامة من قريش وغيرهم وأصابوا فيها مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم — وهو يومئذ كبير قريش وسيدها — ثم بعث أبرهة إلى أهل مكة رجلا يقال له حناطة الحميرى فقال لهم إن الملك يقول : إنى لم آت لحربكم ، إنما جئت لهدم هذا البيت ، فأن لم تعرضوا إلى بحرب فلا حاجة لى بدمائكم ، فلما دخل رسول أبرهة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها فقيل له : عبد المطلب ابن هاشم فجاءه فقال له ما أمره به ، فقال عبد المطلب : والله ما نريد حربا ، وما لنا بذلك منه طاقة ، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم ، فإن يمنعه منه فهو حرمه وبيته ، وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه . فقال له رسول أبرهة : فانطلق إليه ، فانه قد أمرنى أن آتيه بك فانطلق معه عبد المطلب فدخل على ذى نفر فى محبسه — وكان له صديقا — قبل أن يدخل على أبرهة . فقال له يا ذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا ؟ فقال له ذو نفر : وما غناء رجل أسير بيدى ملك ينتظر أن يقتله غدوا وعشيا ؟ ما عندى غناء فى شيء مما نزل بك إلا أن أنيسا سائس الفيل صديق لى فسأرسل إليه وأوصيه بك وأعظم عليه حقك وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلمه بما بدالك .

ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك . فقال عبد المطلب : حسبي . فبعث ذو نفر إلى أنيس فقال له : إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عين مكة ويطعم الناس بالسهل والوحوش فى رؤس الجبال . وقد أصاب له الملك مائتى بعير فاستأذن له عليه وانفعه عنده بما استطعت . فقال : افعل . فكلم أنيس أبرهة فقال له أيها الملك هذا سيد قريش ببابك ويستأذن عليك وهو صاحب عين مكة . يطعم الناس بالسهل والوحوش فى رؤوس الجبال . فأذن له عليك فيكلمك فى حاجته . فأذن له أبرهة . وكان عبد المطلب أوسم الناس وأعظمهم وأجملهم . فأجله أبرهة وأعظمه ونزل عن سريره فجلس معه على بساطه وقال له : حاجتك فقال عبد المطلب : حاجتى أن يرد على الملك مائتى بعير أصابها لى . فقال له أبرهة : لقد كنت أعجبتنى حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتنى . أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمنى فيه ؟ قال عبد المطلب : إنى أنا رب الإبل وإن للبيت ربا سيمنعه . قال أبرهة : ما كان ليمتنع منى . قال عبد المطلب : أنت وذاك فرد عليه إبله وانصرف عبد المطلب إلى قريش وأمرهم بالخروج إلى شعف الجبال والشعاب تخوفا عليهم معرة الجيش ، ثم قام

عبد المطلب . وهو آخذ بحلقة باب الكعبة فقال :

لا هم أن العبد يمـ ـنع رحله فامنع حلالك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم عدوا محالك
أن يدخلوا البلد الحـ ـرام فأمر ما بدالك

ثم انطلق مع قومه ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إن دخلها . فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ جيشه يقدمه أضخم أفياله ثم وجهه إلى الحرم فسقط كالبارك فضربوه ضربا شديدا فلم ينهض فوجهوه نحو اليمين وإلى كل جهة غير مكة فنهض يهرول . وأرسل الله عليهم طيرا يجيئهم جماعة فى أثر جماعة ترميهم بحجارة فأصابت مقاتلهم وخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون بكل مهلك وأصيب أبرهة فجعل جسمه يتناثر ويتساقط حتى انصدع صدره فمات بصنعاء .

هذا القدر من رواية القصة هو الذى أجمع عليه الرواة . وهو فى مجموعه ليس فيه شىء يعسر على العقل الإيمان بوقوعه لكن أهل الاغرام بالفضفضة والمبالغات السابحة فى بحار الخيال الطيار تزيدوا فى كثير من أطراف القصة وأطوارها تزيدا اخرجها عن الحقيقة التاريخية إلى حوادث التسلية والسمر ولا سيما فى طرف الإعجاز منها . وهو الطرف الذى ارتفعت به

قدرة الله عن الخضوع لنواميس العادة المتكررة وسنن الحياة المألوفة إلى أفق سنن الوجود النادرة التى لا تجىء وفق تلك النواميس العامة ، فقد تحدث هؤلاء المتزيدون عن الطير المرسلة ووصفوها بأوصاف لم يبق لها من حقيقة الطير التى أخبر بها الله تعالى إلا رفرفة الأجنحة والسبح فى فسيح الأرجاء وفيما عدا ذلك فهى جامعة لأشكال جميع ما خلق الله من حيوان معروف أو غير معروف ، ولم تنج من هذا التزيد الحجارة التى رمت بها هذه الطير أبرهة وقومه ، فلم يكفهم ماوصفها الله به . بل أضافوا إليها من الأوصاف الخيالية كل غريب وعجيب ولم يرضهم إلا أن تكون مبعوثة من جهنم ومكتوب على كل حجر اسم صاحبه ، وهكذا وهكذا مما جعل كثيراً من الناظرين والكاتبين، فى تفسير القرآن والسيرة النبوية والتاريخ الإسلامى إذا عرضوا لهذه القصة أجحفوا بالحقيقة التاريخية وردوا ما فيها من إعجاز قصد به التمهيد للنبوة والتشريف المكرم لمن اختير لها ، وذهبوا فى تأويل النصوص مذاهب معتسفة خشية التسليم بهذه المبالغات، الجوفاء التى لا تنقص شيئا من حقيقة الإعجاز فى القصة لو خلت عنها .

فهؤلاء المؤولون يأبون أن يقبلوا ظاهر القرآن فى أن الله

تعالى أرسل على أبرهة وجيشه جماعات من الطير تحمل معها حجارة شديدة الصلابة ترميهم بها حتى هلكوا كما يفهمه العرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، فالطير فى لغة العرب عامة معروف المعنى ، والحجارة كذلك معروفة المعنى ، والقرآن إذا عبر بهما أراد إلى هذا المعنى المكشوف البين المتبادر إلى فهم السامع ، ويبعد أشد البعد أن يكون القرآن الكريم قد أراد إلى هذا العسف الذى يحمل الألفاظ معانى لم تعرف إلا بعد عدة قرون من نزول القرآن ، فالمكروب الذى يريدون أن يجعلوه من محامل لفظ الطير فى سورة الفيل إذا كان فى عصرنا قد صار من الحقائق العلمية المسلمة فهو عند العرب وعامة المسلمين من الحقائق المجهولة التى يستحيل عليهم فهمها من كلمة (طير) فتفسير القرآن به إسراف فى التجنى على اللغة وتعالم على السلف من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن جاء من بعدهم من أعلام العلماء فى مدى القرون الماضية من تاريخ الإسلام إلى أن كشف العلم عن المكروب وحقيقته .

فإذا كان وزر المتزيدين فى الروايات أنهم تزيدوا وأغرقوا ، وقبلوا كل تافه وغثاء ، فوزر المتأولين أنهم أجحفوا وتنقصوا وظلموا الحقيقة ، وردوا ظاهر القرآن وصحيح الرواية لغير ضرورة ملجئة .

وإذا جاز التأويل فى شىء من موضوعات القرآن الكريم وصرف ألفاظه عن معانيها الظاهرة المتبادرة لاعتياصها على بعض الأفهام . فالقصص القرآنى أبعد ما يكون عن ذلك لأن ألفاظ هذا القصص من الوضوح والبيان بمكان رفيع ، لأن المقصود الأول من القصص فى القرآن هو العظة والعبرة والتأسى ، وذلك لا يتحقق إلا بألفاظ بينة المعانى واضحة الدلالة على مقصودها .

ولم يكتف بعض الكاتبين بالتأويل وصرف الألفاظ عن ظواهرها إنكاراً للإعجاز ، ولكنه فى سبيل الوصول إلى غرض معين أقحم على القصة عنصر الأوبئة العامة والأمراض الجائحة ، وتحدث عن الحصبة والجدرى وأن وباءهما تفشى فى جيش أبرهة ففتك به ، ولعل جراثيم الوباء جاءت مع الريح من ناحية البحر ، وهذا بلا شك لون من ألوان المجازفة فى الحكم على حقائق التاريخ ، لأن هذا الزعم لا يستند على شىء من الروايات الثابتة وإنما يعتمد على روايات واهنة وافقت هوى عند هؤلاء المتأولين فتمسكوا بها ، وهى مع ضعفها ذكرت الحصبة والجدرى كأثر من آثار الإعجاز فى الطريقة التى أنهت بها القدرة الإلهية الحادث على ما جاء فى التعبير القرآنى وقد راج هذا الزعم على شيخ المفسرين أبى جعفر الطبرى فقال : « فأقبلت الطير

من البحر أبابيل مع كل طير ثلاثة أحجار ، حجران فى رجايه ، وحجر فى منقاره فقـــذفت الحجارة عليهم ، لا تصيب شيئا إلا هشمته وإلا نفط ذلك الموضع فكان ذلك أول ما كان الجدرى والحصبة والأشجار المرة فأهمدتهم الحجارة » .

وروى الطبرى أيضا عن يعقوب بن عتيبة أنه حدث : أن أول ما رؤيت الحصبة والجدرى بأرض العرب ذلك العام وأنه أول ما رؤى بها مرار الشجر الحرمل والحنظل والعشر ذلك العام . قال ابن الأثير : وهذا مما لا ينبغى أن يعرج عليه ، فإن هذه الأمراض والأشجار قبل الفيل منذ خلق الله العالم.

* * *

وفى حديث الفيل لا نحب أن نغفل هذه الرواية الغريبة التى يحكيها القرطبى فى تفسيره فيقول : فحكى عبد المطلب أنه بعث ابنه عبد الله على فرس له ، ينظر ما لقوا من تلك الطير فإذا القوم مشدوخين جميعاً ، فرجع يركض فرسه كاشفا عن فخذه . فلما رآى ذلك أبوه قال : إن ابنى هذا أفرس العرب ، وما كشف عن فخذه إلا بشيراً ونذيرا فلما دنا من ناديهم بحيث يسمعهم الصوت قالوا : ما وراءك ؟ قال هلكوا جميعا . .

وهذه الحكاية إذا صحت ــ ولم يكن قد وقع فيها تصحيف

فى الاسم — دلت أن عبد الله أبا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم شهد حادث الفيل وأنه كان فى يومه شابا جلدا يعتمد عليه وكانت له دراية بالفروسية وخبرة بركوب الخيل فبعثه أبوه ليكشف حال جيش أبرهة بعد أن تركت لهم قريش مكة وتحرزت بشعف الجبال . فذهب وجاء يركض فرسه على هيئة يتعرف بها المجربون من رجالات قريش والعرب آية النجابة ، وقد عرف ذلك أبوه فقال : إن ابنى أفرس العرب ، غير أن شهود عبد الله حادث الفيل لا يتفق إلا على أساس وقوع الحادث قبل زواجه بآمنة بنت وهب أم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أخذنا بالرواية المشهورة التى تزعم أن عبد الله لم يلبث بعد زواجه أن توفى، أما إذا كان شهوده الحادث بعد زواجه فلا يتم إلا على رواية من يذهب إلى أنه عاش حتى ولد رسول الله وبلغ من العمر ثمانية وعشرين شهرا أو حتى مضى من حمله سبعة أشهر على ماسنحققه عند الكلام على الميلاد النبوى إن شاء الله بعونه وتوفيقه .

ميلاد محمد صلى الله عليه وسلم

وما أحتف به من الأحداث

ترسم كتب السيرة ومصادر التاريخ ميلاد محمد صلى الله عليه وسلم والحمل به فى صورتين مختلفتين : إحداهما فطرية طبيعية ، لأن محمدا صلى الله عليه وسلم فيها إنسان حملت به أمه كما تحمل سائر الأمهات ولدانهن زمانا وحالة .

روى القسطلانى فى مواهبه عن أبى زكريا يحيى بن عائذ أنه قال : بقى صلى الله عليه وسلم فى بطن أمه تسعة أشهر كملا ، لا تشكو وجعا ولا مغصا ولا ما يعرض لذوات الحمل من النساء.

وكانت تقول : والله ما رأيت من حمل هو أخف منه ولا أعظم بركة منه .

ويقول القسطلانى أيضا : واختلف أيضا فى مدة الحمل به ، فقيل تسعة أشهر وقيل عشرة، وقيل ثمانية، وقيل سبعة، وقيل ستة، وكل هذه الأزمنة محتملة فى الحمل بالولدان لكثير من النساء فى جميع العصور والبلدان، وما من زمن منها إلا وقد حفظ التاريخ وشهد الواقع أنه كان زمنا لحمل كثير من الولدان أو الولائد ،

فليس فى شىء منها خصوصية لمحمد صلى الله عليه وسلم ، تخرج بحمله عن معهود الناس وطبائع الحياة فيهم ، وأكثر الرواة يذهبون إلى اختيار أبى زكريا فى أن الحمل به صلى الله عليه وسلم كان تسعة أشهر كاملة ، وهـــذا ميل منهم إلى الواقع الفطرى فى تصوير زمان حمله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك جرت الرواية فى تصوير حالة الحمل به ، فأمه لم تشعر لحمله بمشقة ولا وجدت له ثقلة ، وكثيرا جدا من الولدان من لا تشق بهم أمهاتهم فى حملهن بهم ، فلا يجدن للحمل ألما ولا ثقلا ، بل كثيرات من الأمرات ولا سيما أبكارهن لا يشعرن بالحمل إلا بعد مضى زمنه لخفته عليهن وقوة بنيانهن مع اعتدال مزاجهن ، وكمال صحتهن .

فليس عجيبا أن تكون أم محمد صلى الله عليه وسلم - وهو بكرها فلم تعرف الحمل قبله ، وهو وحيدها فلم تحمل بعده - قد حملت به فلم تشعر أنها حملت إلا حينما أنكرت رفع حيضتها ، وليس غريبا الا تجد لحمله ثقلا ولا وصبا مما يعترى كثيرات من النسوة والحاملات ، قال ابن سعد فى الطبقات : إن آمنة بنت وهب لما حملت برسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تقول : ما شعرت أنى حملت به ولا وجدت له ثقلة كما تجد النساء إلا أنى قد أنكرت رفع حيضتى وربما كانت ترفعنى وتعود ، وروى أيضا من طريق شيخه الواقدى عن الزهرى أنها قالت .. لقد علقت به فما وجدت له مشقة حتى وضعته .

فليست خفة الحمل وعدم المشقة فيه مما يدخل في باب العجائب الخارقة لعادات الناس الجارية في مألوفاتهم ، ولا هو مما يدخل في شيء من خصائص التكريم والتشريف ، فهو أمر معهود مشهود مكرور لعامة الناس وخاصتهم .

وليس ثقل الحمل وظهور عوارضه اللاغبة مما يخرج عن سنن الحياة ، ولا هو في شيء من دلائل عدم الرعاية الربانية للوليد وأمه ، فإذا كان بعض الرواة قد روى خفة حمل آمنة برسول الله صلى الله عليه وسلم فإن بعضا آخر قد روى ثقله وشدته عليها حتى كانت تشكو منه لصواحباتها روى الطبري وغيره من حديث العامري عن شداد بن أوس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في جواب مساءلة العامري : أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى أخي عيسى بن مريم وإني كنت بكر أمي وإنها حملت بي كأثقل ما تحمل النساء وجعلت تشتكى إلى صواحباتها ثقل ما تجد .

ويحدثنا ابن سعد في طبقاته أن آمنة بنت وهب أم رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : قد حملت الأولاد فما حملت سخلة أثقل منه . وهذه رواية شاذة منكرة وليس شذوذها ونكارتها لما اشتملت عليه من حديث ثقل الحمل وشدته لمناقضتها لما روى من طرق كثيرة في خفة الحمل به ويسره على أمه ، ولكن لما فيها من زعم أن آمنة بنت وهب حملت بغير وحيدها محمد بن عبد الله

صلى الله عليه وسلم ، وهذا ما لا يشك فى بطلانه جمهور الرواة والمؤرخين قال الواقدى معقبا على هذه الرواية الزائفة : وهذا مما لا يعرف عندنا ولا عند أهل العلم لم تلد آمنة بنت وهب ولا عبد الله بن عبد المطلب غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولولا كلام الواقدى لأمكن تخريج هذه الرواية على إفادتها مجرد ثقل الحمل ، وذلك بأن تقرأ بضبط لفظ (حملت) بالبناء للمفعول وتكون تعبيرا عن معاناة الحمل عند كل والدة ، وتضبط لفظة (حملت) فى سخلة كذلك بالبناء للمفعول .

وهذه الصورة الفطرية الطبيعية تصور محمدا صلى الله عليه وسلم فى ميلاده إنسانا ولدته أمه فى يسر وبهجة وضيئا نظيفا ، حلو الملامح جميل المحيا كما تلد كثيرا من الولدان أمهاتهم ، وتلقته على يديها قابلته الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف الزهرية كما يتلقى القابلات سائر الولدان ، وقد بشر به جده عبد المطلب ففرح به فرحا شديدا ، لأنه رأى فيه خلفا من أبيه الحبيب ، يرى فى مطالعة محياه ذكريات الأبوة الحانية ، فأخذه بين يديه ودخل به الكعبة ، وقام عندها يدعو الله ويشكر ما أعطاه وقد شارك عمومة محمد عليه السلام أباهم الشيخ فرحته بولادة ابن لأخيهم عبد الله الذبيح الذى ذهب فلم يعد ، وقد عمهم الفرح وشملهم

البشر فتصدقوا وأهدوا وأعتقوا حتى من كشف الغيب عن عداوته لمحمد عليه السلام ، فهذا عمه أبو لهب - وقد سجل القرآن فى ذمه ما سجل - تذكر الرواية الصحيحة أنه لما بشرته مولاته ثوية بولادة النبى صلى الله عليه وسلم أعتقها ، وكانت بعد عتقها أول من أرضع رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عمه حمزة ابن عبد المطلب قبل أن يسترضعا فى بنى سعد بابن ابن لها يقال لها له مسروح وشاركهما فى لبنها أبو سلمة وكان النبى عليه السلام يبرها ويسأل عنها وعن أقاربها وفاء لها . روى البخارى ومسلم فى صحيحهما من حديث الزهرى عن عروة بن الزبير عن الزبير عن زينب بنت أم سلمة أم المؤمنين عن أم حبيبة بنت أبى سفيان أم المؤمنين قالت : يارسول الله انكح أختى عزة بنت أبى سفيان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو تحبين ذلك ؟ قلت : نعم ، لست لك بمخلية ، وأحب من شاركنى فى خير أختى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : فإن ذلك لا يحل لى ، قالت : فأنا نحدث أنك تريد أن تنكح درة بنت أبى سلمة ، قال : : بنت أم سلمة ؟ قلت : نعم ، قال : إنها لو لم تكن ربيبتى فى حجرى ما حلت لى ، انها لابنة أخى من الرضاعة ، أرضعتنى وأبا سلمة ثوية ، فلا تعرضن على بناتكن ولا أخواتكن . زاد البخارى قال عروة : وثوية مولاة لأبى لهب أعتقها فأرضعت رسول الله

صلى الله عليه وسلم فلما مات أبو لهب أريه بعض أهله بشر حيبة(١) فقال له : ماذا لقيت ؟ فقال أبو لهب : لم ألق بعدكم خيرا غير أنى سقيت فى هذه بعتاقى ثويبة واشار إلى النقرة التى بين الإبهام والتى تليها من الأصابع .

قال ابن كثير : قالوا : لأنه لما بشرته ثويبة بميلاد ابن أخيه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم أعتقها من ساعته فجوزى بذلك لذلك . وقال القسطلانى فى المواهب : وأرضعته صلى الله عليه وسلم ثويبة عتيقة أبى لهب أعتقها حين بشرته بولادته عليه السلام.

وقد صح من طرق كثيرة أن محمدا عليه السلام ولد يوم الاثنين لاثنتى عشرة مضت من شهر ربيع الأول عام الفيل من زمن كسرى أنو شروان ، ويقول أصحاب التوفيقات التاريخية إن ذلك يوافق اليوم المكمل للعشرين من شهر أغسطس سنة ٥٧٠ بعد ميلاد المسيح عليه السلام ، ووراء ذلك خلاف عريض فى زمن ميلاده يوما وشهرا وعاما لا طائل تحت استقصائه ،

---

(١) الحيبة : الهم والحزن . قال فى اللسان : وحديث عروة لما مات أبو لهب أريه بعض أهله بشر حيبة أى بشر حال .

ولكنه يشعر بصادق العناية فى تقصى واستيفاء ما يتعلق بحياته صلى الله عليه وسلم بما لم يتوافر فى سيرة شخصية من شخصيات الأنبياء والرسل والقديسين والقادة والمصلحين ،

ومكان ولادته معروف بمكة مشهور ، تقلبت عليه الأحداث فتغلب عليها حتى انتهى به الأمر إلى أن صار فى عصرنا دارا للحديث ، وقد كنت بمكة فى سنة ١٢٧٠ الداخلة فى سنة ١٣٧١هـ ورأيت أسس البناء عليه قائمة وكانت التبرعات تجمع له من أجواد المسلمين ولا شك أن هذا المكان كان جزءا من دار جده عبدالمطلب ، انتقلت إليها آمنة وهى حامل به صلى الله عليه وسلم وقد عق عنه جده عبدالمطلب فى يوم سابعه فرحا بمولده ـ روى البيهقى عن أبى الحكم والتنوخى قال : فلما كان اليوم السابع ذبح عنه جده عبد المطلب ودعا له قريشا ، فلما أكلوا قالوا : يا عبدالمطلب أرأيت ابنك هذا الذى أكرمتنا على وجهه ماسميته؟ قال : سميته محمداً : قالوا : فما رغبت به عن أسماء أهل بيته؟ قال أردت أن يحمده الله فى السماء وخلقه فى الأرض .

وفى رواية أن أمه حدثت أنه قيل لها فى النوم سميه محمداً فسمته به فلما وضعته أرسلت إلى جده عبد المطلب وكان على فراشه فى ظل الكعبة حوله ولده والملأ من قريش أنه قد ولد لك

غلام فأته فانظر إليه ، فأتاه هو ومن معه من ولده وقومه فنظر إليه وحدثته آمنة برؤياها وما أمرت أن تسميه فسماه بما قالت ، وهذا الاسم لم يكن من الأسماء الذائعة المنتشرة بين العرب ومن ثم استغربه الملأ من قريش لما سألوا جده عن اسمه الذى سماه به فأخبرهم ولكن التاريخ حفظ ذكر جماعة من العرب سموا بهذا الاسم تطلعا إلى ما كان مستفيضا على ألسنة أهل الكتاب والمتحنفين من ترقب ظهور نبى من بنى إسماعيل يسمى بهذا الاسم. والله أعلم حيث يجعل رسالته .

تنفس محمد عليه السلام نسيم الحياة يتيما فقد أباه قبل أن يشهد الوجود طلعته : فقد مات عبدالله بن عبد المطلب ورسول الله صلى الله عليه وسلم جنين فى بطن أمه ، وقد ترك له خمسا من الإبل وقطعة من الغنم وجارية هى حاضنته أم أيمن بركة الحبشية وقد أعتقها صلى الله عليه وسلم وزوجها مولاه زيد بن حارثة فولدت له أسامة بن زيد ، هذه هى الصورة الفطرية التى رسمتها كتب السيرة والتاريخ لميلاد محمد صلى الله عليه وسلم فى أشهر الروايات وأشبهها بالحق والواقع .

أما الصورة الأخرى التى رسمتها كتب السيرة ومصادر التاريخ لمحمد صلى الله عليه وسلم فى الحمل به وفى ميلاده فهى صورة مليئة

بالأعاجيب والخوارق والمعجزات ، وإن شئت قلت هي صورة كلها أعاجيب وخوارق ومعجزات ، حتى ما كان من أمره صلى الله عليه وسلم إنسانيا متمشيا مع الفطرية تجـــده في هذه الصورة المصنوعة قد انخرط في سلك الأعاجيب والخوارق المعجزة في منزع من التكلف في التأويل وضرب من التعسف في التخريج ، بخفة الحمل به على أمه إذا رويت في سيرته وجب أن تكون خارقة للعادة داخلة في باب الإرهاصات المعجزة ، وثقلة الحمل به وشدته على أمه إذا رويت في سيرته وجب أن تكون خارجة عن مألوف الناس ومكرور عاداتهم ، فهي إرهاص معجز لا يكون إلا لمن كتب في رقيم الأنبياء ، وإذا اختلفت الروايات فجاء في بعضها خفة حمله على أمه وأنها لم تشعر بوجع ولا وحم وجاء في بعضها الآخر ثقل الحمل وشدته شدة تشكوها إلى صواحباتها وجب أن يوفق بين هذه الروايات المتخالفة على أساس إثبات كل حالة وعلى أن تكون كل حالة في وضع غير طبيعي لتكون إرهاصا معجزا ، قال القسطلاني في المواهب بعد أن ساق حديث شداد بن أوس في مساءلة العامري لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن بدء شأنه :

ففيه أن أمه عليه السلام وجدت الثقل في حمله ، وفي سائر الأحاديث أنها لم تجد ثقلا ، وجمع الحافظ أبو نعيم بينهما بأن

الثقل به كان فى ابتداء علوقها به والخفة عند استمرار الحمل به فيكون على الحالين خارجا عن المعتاد المعروف .

وللباحث - بداهة - أن يتساءل ولماذا كل هذا التكلف ؟ وما الحامل عليه ؟ هل يضير سيرة محمد عليه السلام أن يكون فى حمله إنسانا بشرا يخف حمله كما يخف حمل الولدان من الأناسى ويثقل ويشتد كما يثقل ويشتد حمل الأجنة من بنى آدم ؟ وهل يخدش النبوة أن يكون النبى فى حمله جاريا على مقتضى طبيعة الاحياء ؟

الأعاجيب الكونية والخوارق المعجزة

تحقيق تاريخى وتحليل علمى

ليس من رأينا ولا فى مذهبنا أن ننكر الإرهاصات المعجزة جموداً مع الجامدين المتعالمين الذين يريدون أن يخضعوا جلال الألوهية وعظم سلطانها لسلطان عقولهم فى حدود ما يعرفون من سنن الحياة ، وهذا غرور بليد ، لأن ما عرف من سنن الحياة تافه قليل إلى جانب ما لم يعرف ، وحتى الذى عرف من سنن الحياة لا ينكر هذا الضرب من الخلق والتكوين الذى يراه من يقيسه إلى سنن الحياة العامة المألوفة المتكررة معجزاً خارقاً لقوانينها ، وهو فى نظامه وتكوينه وأسبابه خاضع لسنن خاصة تعرفها الحياة فى أوقات ومناسبات خاصة ، فهو فى حقيقة أمره من سنن الله القائمة على أسباب ومناسبات مطردة فى بابها .

وإنما مذهبنا فى تقبل هذه الإرهاصات أن تثبت بها الرواية ثبوتاً لا يحتمل الطعن والتجريح على ماذهبنا إليه فى حادث الفيل اعتماداً على النص القرآنى ، فهل جاءت الرواية التاريخية فى حادث الحمل بمحمد عليه الصلاة والسلام بهذا التفريق بين أول الحمل واستمراره بما يسوغ هذا التأويل؟ ولماذا لا يكون العكس صحيحاً

فتكون خفة الحمل فى أوله ويكون ثقله وشدته فى استمراره ؟ وهذا هو الموافق للفطرة التى فطر الناس عليها وبه يتم الجمع والتوافق بين الروايات والجمع بين الأحاديث إذا صحت بها الرواية كلها .

وهذه الأعاجيب والإرهاصات المعجزة لا تقف عند شخصية محمد عليه السلام ، فتجعله متكلما فى المهد ساجداً رافعاً أصبعيه إلى السماء كالمتضرع إلى غير ذلك . ولكنها تبدأ بأمه فتجعلها مكلمة فى يقظتها مرة وفى منامها مرة أخرى بكلام طويل ترويه كتب السيرة ومصادر التاريخ من النثر والشعر ، وتنتبه من نومها فتجد عند رأسها صحيفة من ذهب مكتوب فيها أبيات من الشعر تعويذة لوليدها ، ثم تتلقى اسمه تلقيا ، وتتنزل عليها الملائكة ساعة ولادتها فتمسح بأجنحتها على فؤادها فيذهب ما بها من أوجاع وآلام ، وتسقى شربة بيضاء ليست من شراب الدنيا وتتنزل عليها نسوة كالنخل طوالا فترعب منهن فيعرفنها بأنفسهن ليذهب عنها الروع وإذا هن آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران وطائفة من الحور العين حتى إذا وضعته تنزلت عليها الملائكة عيانا فى صور وألوان وأحوال غاية فى العجب وأخذوه منها وغيبوه عنها وطافوا به مشارق الأرض ومغاربها على الإنس

والجن والملائكة والطيور والوحوش ليعرفوه إلى شيء كثير وكثير جداً لا يحيط به الحصر .

والعجيب فى هذه الأعاجيب والإرهاصات أنها لا تقف عند حد ولكنها تتصل بكل شيء فهى فى الأرض وفى السماء ، وفى البر وفى البحر ، ومع الإنس ومع الملائكة ومع الجن ، وفى أرض العرب ، وفى بلاد العجم ، فإيوان كسرى ارتجف ليلة ميلاد محمد عليه الصلاة والسلام وسقطت منه أربع عشرة شرفة ، وخمدت نار فارس ولم تخمد قبل ذلك بألف عام وغاضت بحيرة ساوة ورأى الموبذان رؤيا أفزعت كسرى فأوفد عبد المسيح إلى سطيح فسجع وهدر وحذر وأنذر ، وبشرت وحوش المشرق وحوش المغرب ونطقت الأصنام وهتفت الأنعام ، وتكلمت الجمادات إلى ما لا يحصى كثرة .

ولو أن باحثاً حاول أن ينسب هذه الإرهاصات المروية فى حمله وولادته صلى الله عليه وسلم إلى ما روى من معجزاته الكونية بعد نبوته ــ وهو وقت الحاجة إليها إن كانت إليها حاجة ــ لوجد الفارق شاسعاً والبون بعيداً فى العدد والنوع والأسلوب ، فهنا ـ فى الحمل والولادة ـ يجد كثرة غامرة وأنواعا مختلفة الألوان ، وأسلوباً عنيفاً ، وهناك بعد النبوة ـ يجد عدداً

محصوراً من المعجزات فى أنواع متقاربة تكاد تكون محصورة فى أسلوب هادىء يرمى إلى تثبيت الإيمان وإيقاظ الوجدان إلى رحمة الله وواسع قدرته فى تشريف رسوله وتكريمه بألوان من سنن الحياة الخاصة بمن اصطفاهم الله لهداية الخلق.

على أن أكثر روايات الإرهاصات فى الحمل والميلاد يقفيها رواتها بقولهم: لا أصل له أو شديد الضعف، أو مطعون فيه، أو متكلم فيه، ونحو ذلك مما يدل على أنه ما كان ينبغى أن تسود بمثله صحائف النور فى السيرة العطرة لأكرم النبيين وسيد المرسلين.

وعلى ضوء ما أصلناه للبحث عند الحديث على حادث الفيل، وما عرضنا له هنا فى الأعاجيب والخوارق المعجزة نرى :ـ

أولا : أن وقوع حوادث كونية تخفى على العقول أسبابها وعواملها المنشئة ـ وهو ما نسميه بالأعاجيب ويسمى فى مشهور العلماء بالإرهاصات إن وقع قبل النبوة وبالمعجزات والآيات إن وقع فى زمان النبوة ـ أمر قامت على جوازه ووقوعه الدلائل من النصوص القطعية فى الكتب السماوية والنقول التاريخية التى بلغت فى جملتها مبلغ التواتر القاطع، ومن البراهين العقلية التى تقرر قيومية الخالق عز شأنه وإطلاق قدرته من قيود القوانين والعادات المعلومة فى حدود مدارك العقول الإنسانية إلى سنن

كونية وقوانين للوجود فوق آفاق تلك العقول تحدث على وفقها تلك الأحداث الكونية والأعاجيب الإعجازية إذا تطلبتها أسبابها وحانت مناسباتها والله فعال لما يريد لا يسأل عما يفعل .

ثانياً : أن القرآن الكريم وهو أثبت وأصدق نص تاريخى لا يأتيه الباطل - من بين يديه ولا من خلفه - قص علينا فى قصص الأنبياء بعض آياتهم المعجزة من الأحداث الكونية التى وقعت على أيديهم مما جرى مجرى التشريف والتكريم ومما تحدوا به أقوامهم مما لا يمكن أن يدخل تحت سنة من سنن الحياة المعروفة للعقول والمعهودة فى عادات الناس ومألوفهم وقد سمى القرآن بعض تلك الآيات الكونية المتحدية براهين ، فانقلاب عصى موسى حية تسعى وإخراج يده بيضاء من غير سوء ، وانفلاق البحر له ولقومه ونتق الجبل فوقهم كالظلة ، وإحياء عيسى للموتى ، وإبراؤه الأكمه والأبرص وإنباؤه قومه بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم وخلقه من غير أب ، وإيتاء أمه مريم عليها السلام رزقا دون حركة آلية أو تسبب مما بعث كافلها زكريا عليه السلام على التعجب ؛ ونقل عرش بلقيس من المسافة البعيدة فى أسرع من لمح البصر ، وما وقع لأصحاب الكهف ، وعدم إحراق النار إبراهيم عليه السلام ، وسائر آيات

الأنبياء فى قصصهم التى لا تحتمل تمحلا ولا تأويلا كل ذلك من الأعاجيب المعجزة والخوارق التى وقعت فعلا وشهدها الوجود واستفاضت بها روايات التاريخ بنقل الأجيال عن الأجيال منذ كانت النبوة لبنى الإنسان إلى يوم الناس استفاضة تدفع بمنكريها إلى محابس الممرورين وذوى العته العقلى ونقص التكوين الإدراكى .

ثالثاً : إذا ثبت وقوع الأعاجيب المعجزة والحوادث الكونية الخارقة لمعروف العقول فى سنن الحياة العامة فالنظر فيما يروى منها جملة فى سيرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قبل نبوته أو فى زمنها يجرى على سنن تلك الآيات وقوانينها ويبق على الباحث النظر فى إثبات أفراد تلك الحوادث والجزئيات التى سجلتها السيرة النبوية فما ثبت منها بطريق صحيح السند صادق الرواية وجب قبوله والإذعان بوقوعه ، لأن رده أو التشكك فيه بعد ثبوته بهذه الطريقة التى لا طريق للإثبات التاريخى فوقها رد لبرهان العقل القاطع ورد لنص القرآن فى إثبات الآيات المعجزة ، ولا فرق بين آية وآية ، ورد البرهان العقلى والنص القرآنى إلحاد فى دين الله أو جهل بسنن الحياة أو تشكيك فى قدرة الله .

ومالم يثبت منها هذا الثبوت فنحن فى حل من إنكار وقوعه أو التوقف

فى الحكم عليه إثباتا أو نفيا والتوقف أسلم وأحكم- كما يقول علماؤنا- لأنه محتمل الثبوت وقد قامت الدلائل فى العلم التجريبى وفى وسائل البحث التاريخى على أن كثيرا مما كان ينكر من الحقائق العلمية والحوادث التاريخية أصبح ثابتا مقررا فى بدائه العقول وكثيرا مما كان يزعم حقائق علمية ومقررات تاريخية صار فى مهب الأساطير والخرافات ، فالتسرع فى الإنكار خطل فى الرأى ، والتسرع فى التصديق قبل الإثبات غميزة فى العقل .

وعلى هذا الهدى جرينا ونجرى فى البحث بتوفيق الله تعالى فنعرض لما يروى فى السيرة العطرة من هذه الأعاجيب الكونية المعجزة نحاكمه إلى صحة السند وصدق الرواية ، فإذا ثبت لهذه المحاكمة وفاز فيها بعنوان الوجود الواقعى سجلناه مؤمنين مذعنين، وإذا لم يثبت وطاحت به الرواية أو خانه السند الصحيح طرحناه حيث ينتهى غير آسفين .

وأعلى ذلك عندنا وأرفعه فى منازل القبول والصدق القاطع ما يذكره القرآن فى صراحة ظاهرة ، أو يشير إليه إشارة لماحة، وبين المرتبتين من الفرق ما بين الأسلوبين فى التعبير ، فلا يجوز التلبث فى قبول المرتبة الأولى والإيمان بها ، ولا يقبل أن يمشى التأويل فى ساحتها ، تشبثا من المتأولين بمعروف العقول وقضايا

العلم وقوانين المنطق ، ومألوف سنن الحياة لأن معروف العقول وقضايا العلم وقوانين المنطق ومألوف سنن الحياة مخلوقة لله تعالى فهى محكومة بواسع قدرته ومطلق سلطانه فى تصريف خالقه فلا يسوغ فى معروف العقول السليمة وقضايا العلم الصحيح وقوانين المنطق المستقيم أن تجعل حاكمة على خالقها ، وإلا كانت الألوهية ضربا من الوثنية التى يصطنعها الناس بعقولهم وعواطفهم وأخيلتهم .

والمسألة هنا ليست مسألة عقل يحكم أو منطق يقيس ويبرم ثم ينتهى كل شىء ، وإنما هى مسألة عقل يبحث فى أصل الإيجاد والإبداع ، فإذا استقام له أن يقيم هذا الأصل على دعائم ثابتة جاءت الحوادث الجزئية بطبيعتها خاضعة لناموس الإيجاد والإبداع العام فقط دون أى ناموس آخر يحكمها فى وجودها الجزئى .

وإذا صح للعقل أن الإيجاد والإبداع صفة دائمة تقتضيها الألوهية وتجعلها سارية فى ذرات الكون وجزئيات الوجود ، ثم طلبنا إلى هذا العقل أن يحدد لنا أسلوب الألوهية فى الإيجاد وطريقتها فى التكوين والإبداع لم يحر جوابا لأنه أعجز من أن يصل إلى هذه الحقيقة وهى أبدا أمامه فى كل لحظة من لحظات الحياة ، وإلى ذلك يشير القرآن الحكيم فى طرف من قصة إبراهيم عليه السلام حيث يقول : « وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف

تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم » فإبراهيم عليه السلام مؤمن أرسخ الإيمان موقن أشد الإيقان بأن إيجاد الحياة فى الموتى إعادة أو بدء اصفة الإلهيـة الخالقة القادرة ، ولكنه أراد إلى يقين آخر فى معلوم جديد وهو أن يريه الله حالة الإيجاد والإبداع وأسلوبه وطريقته ، ولذلك قيل له تطمينا لقلبه على طريق الاستفهام التقريرى : أنت مؤمن بما هـو كمال خلقك ومنتهى مجال إنسانيتك فى الاعتراف بقدرة الخالق على الإيجاد والإبداع ، وهذا هو غاية مجال العقل الذى يجب أن يقف عنده ثم أجيب إلى ما طلب بطريق الرمز التمثيلى إشارة إلى أن هـذه مرتبة روحانية محضة فوق متعارف العقول .

ولنا فى هذه الآية فهم قائم على أساس ما قاله بعض الأئمة فى تفسير (فصرهن إليك) بمعنى ميلهن إليك بعقد أواصر المحبة الجاذبة من غير اختيار ، فإذا تم هـذا ففرقهن عنك فى أماكن متباعدة وكن منهن بحيث يرينك ويسمعن نداءك ثم ادعهن وافهم كيف يأتينك ساعيات إليك ولله المثل الأعلى وهو عزيز لا يغلب ، حكيم تصدر شئونه على مقتضى حكمته فى تدبير خلقه .

أما قول جمهور المفسرين أن معنى (فصرهن إليك) فقطعهن فإنه إلى كونه يحمل المتعلق - وهو محط الإفادة بمضيعة فى البين ، هو بمعزل عن المقصود من سوق السؤال والإجابة .

أما المرتبة الثانية ، وهى الأعاجيب التى يشير إليها القرآن ولا يذكرها صراحة فإن تأيدت بروايات صحيحة السند من السنة النبوية كان حظها فى الإيمان بها وقبولها مثل حظ سابقتها ، ولكن لا على أنها هى التفسير للنص القرآنى قطعا كما فى المرتبة السابقة ، بل على أنها وجه لتخريج النص وفهمه مع قيام صحة غيره من الوجوه المحتملة إذا استقام لها الدليل ، وإن لم تجد لها عضدا قويا من الرواية الصحيحة قبلنا ما يذكر فيها من تأويل قويم على أنه معنى راجح على استنباط ما تشير إليه من حادث كونى معجز دون أن ينفى صحة أن يكون هذا الحادث الكونى المشار إليه معنى من معانى النص المحتملة .

ودون ذلك مراتب أعلاها ما يروى فى المصادر المعتبرة عند ذوى العلم بسند صحيح وطرق متعددة ، وأدناها ما ينفرد بروايته مصدر ضعيف أو راو لا يتحرز .

أما الآثار والأحاديث الموضوعات والأباطيل التى ينص الأئمة على وضعها واختلاقها فلا تصلح أن تكون فى مراتب الاعتداد والحسبان .

والأمثلة على ما ذكرناه من المراتب كثيرة فى السيرة النبوية، ولا تعوز الباحث ، فهو يجدها أنى طلبها ، وحادث الفيل أوضح مثال على ما ذكره القرآن الحكيم من الأعاجيب المعجزة فى صراحة ظاهرة ومن هنا بسطنا القول فيه بسطا يجلى ما فيه من إعجاز يرد ما زعم فيه من تأويل يخرجه عن حقيقته المعجزة التى سيق فى القرآن للامتنان بها على محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم تشريفا له وتكريما ، وتنويها بذكر قومه وبلده .

ويشارك حادث الفيل فى هذه المرتبة قصة انشقاق القمر ، فقد ذكرها القرآن فى صراحة ظاهرة وتضافرت على رواياتها المصادر العالية فى روايات ارتفعت على الصحة حتى كادت تكون متواترة وسنعرض لها عند فرصتها من البحث .

وقصة شق صدره صلى الله عليه وسلم وهو فطيم عند ظئره فى بنى سعد كما فى بعض الروايات وهو المعمول عليه المنصور عند جمهور الأئمة ، أو ليلة الإسراء به كما فى بعض الروايات الأخرى ، مثال للمرتبة الثانية من الأعاجيب الكونية التى أشار إليها القرآن إشارة لماحة وتأيدت بروايات صحيحة الأسانيد ، فقد ذكر كثير من المفسرين أن قول الله تعالى : (ألم نشرح لك صدرك) ، إشارة إلى هذه القصة المعجزة، وقد تأيد ذلك برواية

لمسلم فى صحيحه ذكر فيها قصة شق الصدر زمن الطفولية ، وبرواية له وللبخارى فى صحيحهما ذكرا فيها قصة شق الصدر ليلة الإسراء وأورد الترمذى قصة شق الصدر فى تفسير (ألم نشرح) وسنعرض بشىء من البسط لهذه القصة أيضا عند مناسبتها ، ويدخل فى هذا تظايل الغمامة وقصتها مروية فى جامع الترمذى وغيره من كتب الحديث ودواوين السنة .

ومن قبل المرتبة الثانية أنباء أهل الكتاب والآخذين عنهم من متحنفه العرب ومتدينيهم بزمن مولده وبعثه والتنويه بذكره ، لأن القرآن ذكر أنهم يجدون محمداً صلى الله عليه وسلم بنعته وأسمه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ، وقد جاءت الروايات الصحيحة عن اخبارهم بما علموا قبل أن يظهر شأنه ويدخلهم الحسد فيدفعهم إلى كتمان أمره صلى الله عليه وسلم .

وقصص تكثير القليل من الطعام أو الماء حتى يكفى الجم الغفير من الناس طعاما مشبعا وشرابا رويا وطهورا نقيا ، وقصة تكلم البقرة التى حمل عليها صاحبها متاعة وركبها فقالت إنى لم أخلق لهذا أمثلة لأعلى مراتب ما لم يذكر فى القرآن تصريحا أو إشارة ولكنه روى فى المصادر المعتبرة بأسانيد صحيحة ، فقد روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما هذه القصص بروايات متعددة وطرق كثيرة ، ورواها غيرهما من أصحاب السنن والصحاح .

وقصة رد الشمس يوم قريظـة حتى تصلى العصر فى وقتها تذكر فى مصادر لا يتفق عليها مهرة النقاد والمحدثين ، فهى مثال لأدنى ما يذكره القرآن أو يشير إليه ، فقـد خرجها الطحاوى فى مشكل الحديث عن أسماء بنت عميس ووثق رواتها ، وضعف ابن الجوزى حديثها بل كذبه وحكم بوضعه فقال : وغلو الرافضة فى حب على عليه السلام حملهم على أن وضعوا أحاديث كثيرة فى فضله ، منها : أن غابت الشمس ففاتت عليا عليه السلام صلاة العصر فردت له الشمس، وهذا من حيث النقل محال ، ومن حيث المعنى فإن الوقت قد فات وعودها طلوع متجدد ولا يرد الوقت اه، ونضيف إلى ذلك أن الشمس لم ترد للنبى صلى الله عليه وسلم ومعه جمهور أصحابه فى إحدى سفراته ، وقد نزلوا واديا . فقال النبى صلى الله عليه وسلم لبلال : (اكلأ لنا الفجر) فناموا ونام بلال فلم يوقظهم إلا حر الشمس ، فرحلوا عن الوادى ، ثم صلوا الصبح ، أما الموضوعات والأباطيل فأمثالها أكثر من أن يعدمنها ، وفى قصص الميلاد نبع فياض لها .

وقد تمحك بعض الباحثين — فى سبيل إنكار الأعاجيب والمعجزات الحسية — بالسنن الكونية وإخبار القرآن أن سنة الله لن تجد لها تبديلا ، وهذا إيهام مضلل لأن سنة الله التى لن تجد لها

تبديلا هى السنة الكونية بمعناها الأعم الأشمل التى تشمل السنن العامة مما يدخل فى معروف العقل ومألوف العادة ، والسنن الخاصة التى ترتفع فوق مستوى معروف العقول وتختص الألوهية بالإحاطة بأسبابها وأسلوب إيجادها ، فالأعاجيب الكونية والمعجزات الخارقة لمألوف العادة عند مناسباتها من سنة الله التى لن تجد لها تبديلا .

وأدخل من هذا فى الإيهام المضلل قول منكرى المعجزات الكونية : إن حياة محمد صلى الله عليه وسلم كانت كلها حياة إنسانية سامية ، وإنه لم يلجأ فى إثبات رسالته إلى ما لجأ إليه من سبقه من أصحاب الخوارق .

وهذا غلط أو مغالطة ، أو هو من قول الحق الذى أريد به الباطل ، لأن إنسانية حياة محمد صلى الله عليه وسلم وسموها كلام لا يتحدث به عن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما يتحدث به عن محمد الإنسان العبقرى العظيم المصلح وما شاكل كل ذلك من كلمات وعنوانات براقة يقصد بها إلى صرف الأنظار عن خصيصة النبوة والرسالة التى ارتفع بها محمد صلى الله عليه وسلم فوق سمو الإنسانية وكمالها ، وهذه الخصيصة هى مناط عظمة النبى والرسول وليس مناط عظمته إنسانيته السامية ، لأن هذا قدر

يمكن دعوى الاشتراك فيه ، لأنه مكسوب محصل وقد أبان الله تعالى فى القرآن الحكيم عن فيصل التفرقة بين الكمال البشرى والكمال النبوى بما أفاد أن الكمال النبوى مرتبط بالوحى والرسالة كما قال تعالى (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى) .

أما النبوة والرسالة فهى هبة الخالق عز شأنه وإن كانت لا توهب إلا لمن كمل له السمو الإنسانى ، فهى معنى زائد فوق السمو الإنسانى به يفضل الأنبياء والمرسلون سائر الإنسانيين الكملة ، ولأمر ما وصف ابن الدغنة سيد القارة أبا بكر الصديق رضى الله عنه ـ كما رواه البخارى ـ بما هو عين ما وصفت به خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها محمدا صلى الله عليه وسلم ، وهى نعوت وخلال كانت له صلى الله عليه وسلم قبل نبوته ورسالته أى أنها أوصاف إنسانية سامية تدل على الكمال فى الإنسانية وأن صاحبها بمعزل عن الارتكاس فيما يخدش الكمال الإنسانى .

فالإنسانية السامية لا تجعل صاحبها نبيا ولا رسولا ، ولا تدل وحدها على أن صاحبها نبى أو رسول ، ولكنها قد تجعله عبقريا أو مصلحا أو عظيما أو بطلا ، أو ما شئت من هذه النعوت التى هى أعلى ما تصل إليه الإنسانية من خصائص السمو المكسوب

والكمال المفطور ، ألا ترى أن محمدا صلى الله عليه وسلم فى سمو إنسانيته قد اختاره الله لمرتبة من الكمال الروحى فوق هذا السمو الإنسانى هى مرتبة النبوة والرسالة ، وبقى الصديق فى سموه الإنسانى إنسانا كاملا ، لك أن تقول أنه عبقرى أو مصلح أو عظيم وأنت مطمئن إلى أنك لم تنقص كماله الإنسانى ولم تخدش إنسانيته السامية ، ولكنك إذا قلت عن محمد نبى الله ورسوله أنه عبقرى أو مصلح أو عظيم أو بطل وأنت تضعه موضعه من الكمال الوجودى كنت مجحفا بالحقيقة العليا فى هذا الكمال ، وهى حقيقة النبوة والرسالة التى يمتاز بها النبى والرسول عن سائر الكملة من بنى الإنسان .

ومعاذ الله أن نقول إن إنسانية أبى بكر الصديق أو إنسانية إنسان ما فى الوجود يمكن أن تكون فى ميزان واحد مع إنسانية النبى والرسول ، بله إنسانية خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ولكننا أردنا إلى أن نقول إن الصفات التى تواضع عليها الناس وجعلوها صفات الإنسانية السامية قد تكون هى صفات العبقريين والقادة والمصلحين والأبطال والعظماء من البشر ، وليست هى خصيصة إنسانية الأنبياء والرسل التى هى سر الاختيار ومناط الاصطفاء فى قول الله تعالى : « الله أعلم حيث يجعل رسالته »

فمحمد صلى الله عليه وسلم قبل نبوته إنسان كامل كانت حياته كلها إنسانية سامية . فهو عبقرى ومصلح عظيم إلى ما شاكل ذلك من نعوت الكمال الإنسانى الذى يفطر عليه أو يكسبه الإنسان بوصف إنسانيته .

ولا ريب أن هذه النعوت ليست وقفا على إنسان دون إنسان ممن أعدتهم الفطرة لها ، وإن كانت الأفراد تتفاوت فى مقادير التكمل فيها ، فالذين أعدهم الله من كملة الإنسانية لتلقى فيض النبوة أكمل وأسمى إنسانية من سواهم مع التفاوت فيما بينهم (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) .

ومحمد صلى الله عليه وسلم بعد نبوته نبى اصطفاه الله لرسالته ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وهذا معنى فوق السمو الإنسانى ، له مقومات خاصة يعجز عن اللحاق بها جميع العباقرة والقادة والمصلحين من غير الأنبياء والمرسلين ، فلا مدخل لسمو إنسانية محمد صلى الله عليه وسلم فى نبوته ورسالته إلا بقدر أن هذا الكمال الوهبى لا يجىء إلا فوق كمال فطرى يزداد بالكسب والتحصيل واستقامة السلوك قبل مجىء النبوة والرسالة .

أما بعد مجيئها فالأمر أمرها ولا مدخل للإنسانية السامية إلا على أنها قالب يصب فيه التدبير الإلهى الأعلى .

وأما قول منكرى المعجزات الحسية : أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يلجأ في إثبات رسالته إلى ما لجأ إليه من سبقه من أصحاب الخوارق ، فهو إمعان في الإيهام المضلل لأن الأعاجيب الكونية والخوارق المعجزة ليست مسألة كسبية يلجأ إليها الأنبياء ويحصلونها متى أرادوا وكيفما أرادوا، وإنما هي آيات الله يجريها على يد من يشاء من عباده الذين اصطفاهم لرسالته متى شاء وكيفما شاء .

وقد جعلها الله برهانا على صدق من أجراها على يده وأذن في التحدى بها كما يبينه قول الله تعالى بعد أن ذكر آيتي موسى عليه السلام : « فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملإه » ، وبعضها للتشريف والتكريم وتقرير الإيمان في نفوس بعض من تمر بهم لحظات من القلق النفسى لتطمئن قلوبهم وتسكن وجداناتهم كما في كثير من الآيات الكونية التي أوتيها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يجعلها براهين على صدقه ولم يتحد بها اكتفاء بالآية العظمى ، القرآن العظيم ، فمن ذلك ما رواه الترمذى عن سمرة بن جندب قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نتداول في قصعة عن غدوة حتى الليل يقوم عشرة ويقعد عشرة، قلنا : فما كانت تمد ؟ قال : من أى شيء تعجب ؟ ما كانت تمد

إلا من ها هنا ، وأشار بيده إلى السماء . وما رواه عن علي بن أبي طالب قال : كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم بمكة فخرجنا في بعض نواحيها ، فما استقبله جبل ولا شجر إلا وهو يقول : السلام عليك يا رسول الله ، وكحديث حنين الجذع الذي كان يخطب إليه النبي صلى الله عليه وسلم ، روى البخاري والترمذي واللفظ له عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب إلى لزق جذع واتخذوا له منبرا فخطب عليه فحن الجذع حنين الناقة ، فنزل النبي صلى الله عليه وسلم فمسه فسكن . ومنه ما رواه الإمام البخاري من طريق مالك بن أنس عن اسحق ابن عبد الله بن طلحة عن أنس بن مالك قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وحانت صلاة العصر والتمس الناس الوضوء فلم يجدوه فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضوء فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده في ذلك الأناء وأمر الناس أن يتوضئوا منه ، قال أنس : فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه فتوضأ الناس حتى توضئوا من عند آخرهم .

وقريب من هذا ـ وهو واضح في حكمة التأليف والترغيب ما رواه البخاري في صحيحه عن عمران بن حصين قال : كنا في

سفر مع النبي صلى الله عليه وسلم وذكر أنهم ناموا عن صلاة الصبح حتى علت الشمس فارتحلوا ثم نزلوا فصلوا مع النبي صلى الله عليه وسلم إلا أحدهم اعتزل فلم يصل فسأله النبي صلى الله عليه وسلم : ما منعك يا فلان أن تصلي مع القوم ؟ قال: أصابتني جنابة، ولا ماء ، فقال عليك بالصعيد فإنه يكفيك، ثم سار النبي صلى الله عليه وسلم فشكى إليه الناس من العطش فنزل فدعا عليا وآخر معه وقال لهما : اذهبا فابتغيا الماء. فانطلقا فتلقيا امرأة بين مزادتين أو سطيحتين من ماء على بعيرلها فقال لها : اين الماء قالت: عهدى بالماء أمس هذه الساعة ونفرنا خلوفا. قالا لها : انطلق إذن قالت: إلى اين ؟ قالا : إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت : الذى يقال له الصابىء قالا : هو الذى تعنين فانطلق ، فجاءا بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم وحدثاه الحديث ، فاستنزلها عن بعيرها ودعا النبي صلى الله عليه وسلم بإناء ففرغ فيه من أفواه المزادتين أو السطيحتين وأوكأ أفواهما وأطلق العزالى ونودى فى الناس اسقوا واستقوا فسقى من شاء واستقى من شاء ، وكان آخر ذاك أن أعطى الذى أصابته الجنابة إناء من ماء وقال : اذهب فأفرغه عليك ، وهى قائمة تنظر إلى ما يفعل بمائها وأيم الله لقد أقلع عنها وإنه ليخيل إلينا أنها أشد ملأة منها حين ابتدأ فيها ، فقال

النبي صلى الله عليه وسلم ، اجمعوا لها فجمعوا لها من بين عجوة ودقيقة وسويقة حتى جمعوا لها طعاما فجعلوها فى ثوب وحملوها على بعيرها ووضعوا الثوب بين يديها ، ثم قال لها : تعلمين ما رزأنا من مائك شيئا ولكن الله هو الذى أسقانا ، فأتت أهلها وقد احتبست عنهم ، قالوا : ما حبسك يا فلانة ؟ قالت : العجب ، لقينى رجلان فذهبا بى إلى هذا الذى يقال له الصابىء ففعل كذا وكذا فوالله إنه لأسحر الناس من بين هذه وهذه ، تعنى السماء والأرض أو أنه لرسول الله حقا ، فكان المسلمون بعد ذلك يغيرون على من حولها من المشركين ولا يصيبون الصرم الذى هى منه فقالت يوما لقومها : ما أرى أن هؤلاء القوم يدعونكم عمدا فهل لكم فى الإسلام ؟ فأطاعوها فدخلوا فى الإسلام .

ففى هذه الآية العظيمة والأعجوبة المعجزة ما أدى إلى ادخال قوم بجملتهم إلى الإسلام دون أن يحتاجوا إلى شىء مما يصنع مع غيرهم فى قبول الدعوة والتصديق بها .

والحق أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم كان فى غنية بالقرآن الكريم ـ وهو معجزته الخالدة الغامرة القاهرة ـ

عن التحدى بهـــذه الآيات الباهرات والأعاجيب المعجزات مع ثبوتها فى جملتها ثبوتا لا يشك فيه أهـل الإيمان ، لأنه لم يثبت بطريق قاطع أنه تحدى بحادث من هذه الحوادث العظيمة، فهى آيات تشريف له صلى الله عايه وسلم وتنويه بذكره وآيات تكريم لذوى الصـدق من أمته وآيات تثبيت لبعض المؤمنين ، وآيات ترغيب وتأليف لبعض من فى قلوبهم استعداد لقبـول الهداية ، ولـكن عقولهم قـد تقصر عن التعمق فى فهم دلائل العقل ومرامى القرآن ، فتجذبهم بعض هذه الآيات والأعاجيب إلى حظيرة الإيمان حتى تنيء عقولهم وأفئدتهم إلى ظل من الهداية ظليل . روى الترمذى عن ابن عبـاس قال : جاء أعرابى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بما أعرف أنك نبى ؟ قال : إن دعوت هذا العذق من هذه النخلة أتشهد أنى رسول الله ؟ فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسـلم فجعل ينزل من النخلة حتى سقط إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : ارجع ، فعاد ، فأسـلم الأعرابى ، فهذا الإعرابى جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلب الإيمان والهداية ، وهو إلى أعرابيته لا بد وأن يكون النبى صلى الله عليه وسلم قد أدرك بما منحه الله من معرفة

صادقة لخصائص النفوس البشرية أن هـذا الرجل ليست لديه خصيصة التوجه إلى السمو المعنوى الذى امتاز به القرآن فـكان مناط إعجازه ، وإنما هو من ذوى الإحساس المادى والعقل المقيد بأغلال الحواس ، فاقتضت الحكمة أن يجرى معه على مقـدار استعدداده فأجابه إلى ما طلب وأراه هذه الآية التى تجذبه برسن حواسه إلى التصديق ، فصـدق وأسلم ، وليس ذلك من التحدى بالمعجزة ولـكنه ترغيب وتأليف ورفع للأشواك من طريق السالكين المتوكئين على عصا الحس والمشاهدة ، وهذا الأعرابى مثل لكثير من طوائف الناس وجماعاتهم فى كل عصر وجيل .

إخبار أهل الكتاب ومتحنفة العرب

بمولد محمد صلى الله عليه وسلم وبعثته

من الأعاجيب الكونية والخوارق المعجزة ـ التى تستند إلى روايات تاريخية صحيحة ترويها المصادر العالية من كتب الحديث والسنة ودواوين التاريخ ، ويؤيدها القرآن الكريم بالإشارة إلى منابعها التى تستقى منها ـ بشائر أهل الكتاب من اليهود والنصارى وإنباءاتهم بزمن مولده صلى الله عليه وسلم ومبعثه ، وبحثهم عن بلده وأسرته وتعرف أخباره وأحواله والكشف عن أوصافه ونعوته اعتمادا على ما ذكرته كتبهم المقدسة وتناقله أخلافهم عن أسلافهم من التنويه بذكره والتصريح باسمه ودلائل وجوده وتعيين بعض خصائصه مما لا يقدم على إنكاره إلا ممار مكابر جاحد .

وقد كان لذلك من المد والجزر فى تيار الرسالة المحمدية ما سجله القرآن الحكيم فى كثير من آياته البينات، ففيهم نزل قوله تعالى : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » .

فهم قبل أن يستبين لهم حظهم من رسالته كانوا يظهرون ما عندهم من دلائل وأمارات يعرفون بها أمر محمد صلى الله عليه وسلم معرفة لا يدخلها شك ، ولما طغت عليهم نزعات البغى والحسد دفعتهم إلى كل خبيثة من خبائث الفجور والغدر وكتمان ما علموا من الحق ، وتحريف ما وجدوا من الآيات إلا من عصم الله من خيرتهم الذين استجابوا لله وللرسول .

وكان جهل العرب وشظف عيشهم مما مكن لليهود فى حياتهم فهم منذ نزلوا فى جزيرة العرب وحلوا بين أهلها مهاجرين استطاعوا أن يقبضوا على زمام الحياة الاقتصادية والاجتماعية والدينية فى يثرب، البلد الذى توطنوه مع أهله من الأوس والخزرج والذى صار فيما بعد مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومركز الدعوة الإسلامية وعاصمة الخلافة الراشدة .

كانت مكة محطا تجاريا للقوافل الغادية والرائحة من الجنوب إلى الشمال، ومن الشمال إلى الجنوب ، ومن الشرق إلى الغرب ، ومن الغرب إلى الشرق ، وبهذا كانت أعظم أسواق العرب ومتاجرهم ، يؤمها أكابر التجار الذين كانت لهم صلات تجارية ببلاد الشام فى شمال الجزيرة وببلاد اليمن فى جنوبها ، وقد كان

هذان القطران معترك الاستعمار الأجنبى من الفرس والرومان، يتغالبون عليه ، فغلب الرومان على الشام وأدخلوا إليه المسيحية التى كانت نيران الحروب مستعرة فيما بينها وبين أشتات اليهودية القابعة فى خرائب أورشليم .

فانتهز أمراء الرومان الحاقدين على اليهود لفسادهم فى الأرض فرصة المسيحية الدين الجديد الذى اعتنقوه ليتخذوا منه سيفا يقضون به على أعدائهم الأقدمين من هؤلاء اليهود المتعصبين المفسدين وأغروا بهم الشعب باسم الدين الجديد وهم من ورائه يمدونه بوسائل الاضطهاد والتعذيب والتقتيل حتى شعر اليهود أنهم فى طريقهم إلى الفناء المحقق ، فلم يجدوا بدا من الهجرة إلى مأوى بعيد يأوون إليه إبقاء على ما بقى لهم من أثر، فهاجروا إلى أبناء عمومتهم العرب وكانت يثرب أقرب بلد وأنسبه فى الجزيرة لهجرتهم لما فيها من حياة الاستقرار ووسائلها الزراعية والصناعية واستقر بهم المقام بعيدا عن مبعث الحماسة الدينية فى مكة التى قد تحرك عليهم شرا أشد مما فروا منه ، فحطوا بيثرب رحالهم وسرعان ما أصبحوا سادة الحياة الإقتصادية فى هذا البلد العربى وأصبح أهله أجراء عندهم وعمالا لهم يعملون بأجور تسد منهم رمق الحياة .

وكان من الطبيعى أن تهاجر عصبية اليهود الدينية معهم إلى يثرب لأنها جزء من حياتهم وكان من الطبيعى أن يرحلوا بتجارتهم إلى مكة أعظم أسواق العرب ، ويتخذوا منها متسوقا لتجارتهم ويقيم بها بعضهم للمضاربة والمرابحة ، وكان من الطبيعى ألا يتخلوا عن شعائر دينهم وأن يقيموها بين هؤلاء الوثنيين من العرب وأن يتحدثوا إليهم حديثا يهمز وثنيتهم فى يسر لا يهيجهم ولا يثيرهم ، ولكنه يتعالى عليهم فى بعض الأمر بالتوحيد والنبوة المتوارثة فى بنى إسرائيل ، وكان من الطبيعى أن ينقل عنهم هذا الحديث وأن يتسمع إليه كثير من الناس بين منكر ومتعجب ومفكر ومتأمل ، وكان من الطبيعى أن تكون قريش فى مكة هى أشد المتصلين باليهود الوافدين عليها للتجارة لمكانها التجارى والدينى ، وهما الأمران اللذان يعنيان اليهود حيثما حلوا وإن كانوا أعنى بالناحية التجارية لجانبها المادى الذى يأخذ على اليهود مسالك الحياة فينظرون إليها أبدا من زاويته ولا يتحرزون أن يجعلوا الدين وسيلة من وسائله إذا رأوا ميزان الحياة المادية يطلب إليهم ذلك .

ومن المعروف أن رؤوس تجار قريش كانوا من

بنى عبد مناف ثم من بنى هاشم ، وكان عبد المطلب جد رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد بنى هاشم، فكان تجار اليهود فى مكة يجاورونه ويحتمون بجاهه، قال ابن الأثير: وكان لعبد المطلب جار يهودى يقال له أذينة يتجرو له مال كثير، فغاظ ذلك حرب ابن أمية وكان نديم عبد المطلب فأغرى به فتيانا من قريش ليقتلوه ويأخذوا ماله فقتله عامر بن عبد مناف بن عبد الدار وصخر ابن عمرو بن كعب التيمى فلم يعرف عبد المطلب قاتله فلم يزل يبحث حتى عرفهما وإذا هما قد استجارا بحرب بن أمية فأتى حربا ولامه وطلبهما منه فأخفاهما فتغالظا فى القول حتى تنافرا إلى النجاشى ثم إلى نفيل بن عبد العزى فنفر عبد المطلب على حرب فترك عبد المطلب منادمة حرب وأخذ منه مائة ناقة فدفعها إلى ابن عم اليهودى وارتجع ماله إلا شيئا هلك فغرمه من ماله .

وقد أخذت قريش عن عملائها من تجار اليهود بعض ذرائعهم فى التكسب والتجارة ، فشاعت فيهم المعلامات الربوية والمضاربات الفاحشة ، ولكنهم تحاموا أن يسمعوا لهم فى أمر الدين ، لأنهم فى وثنيتهم البايدة لا تتحرك عواطفهم إلى أمر

الدين إلا من طريق عقائدهم التي تضمن لهم السيادة والشرف في حرمهم ، روى ابن كثير أن أمية بن أبي الصلت قال في بعض أسفاره لأبي سفيان بن حرب : هل لك يا أبا سفيان في عالم من علماء النصارى إليه يتناهى علم الكتاب نسأله قال أبو سفيان قلت : لا أرب لي فيه ، والله لئن حدثني بما أحب لا أثق به ولئن حدثني بما أكره لأجدن منه ، فذهب أمية وخالفه شيخ من النصارى فدخل علي ، فقال : ما يمنعك أن تذهب إلى هذا الشيخ ؟ قلت : لست على دينه ، قال : وإن ، فإنك تسمع منه عجبا وتراه ، ثم قال لي : أثقفي أنت ؟ قلت : لا ، ولكن قرشي قال : فما يمنعك من الشيخ فوالله إنه ليحبكم ويوصي بكم .

لكن نفرا قليلا من متحنفة العرب أضراب ورقة ابن نوفل وزيد بن عمرو وأمية بن أبي الصلت وقس ابن ساعدة وعثمان بن الحويرث وعبد الله بن جحش والجارود بن المعلى ، كانوا بفطرتهم وبما تلقفوه من أفواه أهل الكتاب يتطلعون إلى السماء وينكرون بعقولهم ، وبما معهم من العلم ما عليه قومهم من سخافات وثنية .

فكان قس يقف بالأسواق والمجامع فيقول : أيها الناس إن لله ديناً هو أحب إليه من دينكم هذا الذى أنتم عليه ، وكان زيد يقول لقريش : للشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء ماء وأنبت لها من الأرض لم تذبحونها على غير اسم الله ، وكانوا إذا سمعوا حديث النبوة والوحى والتوحيد اشرأبت أنفسهم لتروى ظمأها الروحى فى أرض قاحلة من الرى العقلى مجدبة من الغذاء السماوى، ولكن اليهود قوم متزمتون أشد التزمت فى ديانتهم متعصبون أشد التعصب ليهوديتهم لا يعنيهم إلا أن تبقى لهم ، فيبقى لهم سلطانها وتراثها ، فهم المنفردون فى حياة أهل الديانات الذين لم يسعوا لنشر ديانتهم والدعوة إليها ولو واتتهم ألف فرصة وفرصة ، فلم يعبأوا لهذا النفر المتعطش إلى التوحيد ليدخلوه فى حظيرة ديانتهم ، فبقى على فطرته منهم فريق يتطلع ويترقب ويسمع ، وساح فى الأرض منهم فريق فلقيته النصرانية الداعية لنفسها فعرف منها وأنكر وهجم فريق فادرعها وتوقف فريق حتى وافاه الأجل - وكما غلبت المسيحية على يد الرومان اليهود بالشام فدفعتهم إلى الهجرة والاستقرار ببلاد العرب ، غلبتهم على يد الحبشة باليمن ، ولكنها هنا أفنتهم واستقرت مكانهم ، حتى سلط الله عليها الفرس فشتتوا شملها ، وطاردوا أهلها فانزوى جمعهم بنجران حتى أدركهم الإسلام .

لم يكن للنصارى من الأثر فى الجزيرة العربية مثل ما كان لليهود ، لأن هؤلاء كانوا على اتصال بالحياة العملية المادية فى التجارة والزراعة والصناعة بقدر ما تسمح به تصاريف الحياة ، وهذا الاتصال كان أداة فعالة فى تأثيرهم والأخذ عنهم والاستماع إليهم ، فانتشر عنهم دون قصد منهم شيء عن ديانتهم ولا سيما فيما كانوا يترقبونه من أحداث كونية أخبرت عنها كتبهم ، وبشارات بنبى يبعث تحدث بها أسلافهم ، وأمارات ونعوت لهذا النبى روتها أسفارهم ، فلما أظلهم زمانه أفصحوا عن مكنون أنفسهم وأخبروا به علانية وتناقلت أخباره الألسنة حتى وصل الأمر إلى المتحنفين والمعتافين والكهان ، وذاعت القصص والأحاديث فكان منها الصحيح الثابت ، ومنها الضعيف الواهن ، ومنها المكذوب الباطل .

أما النصارى فكانوا على عكس إخوانهم اليهود ، فإذا كان فى اليهود تزمت يرقى إلى الجمود فى الدعوة الدينية ففى النصارى بحبحة واتساع ، يدعون إلى دينهم ويبشرون به ويرغبون فى إدخاله على من استطاعوا من جماعات الناس وإدخال من استطاعوا إدخالهم فى حظيرته ، بيد أنهم معتزلة منزوون فى حياتهم العملية المادية ، ولا شك أن أثر الحياة العملية أقوى فى تجاوب الأفكار

والنحل . ومن هنا كان صوت النصرانية فى بلاد العرب أخفت من صوت اليهودية ، وكان النصارى فيها أضعف شأناً من اليهود ولكن ذلك لم يمنع أن تمشى المسيحية إلى بعض القلوب والأفكار، فدان بها بعض المتحنفين كقس بن ساعدة وورقة بن نوفل ، وتحدثوا بمثل ما كان يتحدث به اليهود من البشارات والأمارات والنعوت التى ذكرتها كتبهم المقدسة ورواها رهبانهم وقسيسوهم، وكثرت القصص والأخبار ، فكان منها الثابت القوى ، ومنها الزائف الضعيف .

على هذا الأساس قام هذا اللون من الروايات والقصص التى تحتل جانباً من السيرة النبوية متصلة بأسرة محمد صلى الله عليه وسلم ، ومتصلة بحمله وميلاده ، ومتصلة بحياته طفلا وشابا ، ومتصلة به نبياً ورسولا ، وهنا يتحول هذا اللون إلى ذلك العنف فى الجدل والحجاج ويتحول الى ذلك العنف فى الحياة ، وهنا عنى به القرآن الكريم فقص فى شأن اليهود كثيراً وحكى من شأن النصارى كثيراً ، وذكر فى صراحة قاطعة أن محمداً صلى الله عليه وسلم مكتوب فى كتبهم بأخص أوصافه وأنهم يجدونه فيها باسمه « أحمد » ويجدون أصول رسالته ودعائم شريعته وفى ذلك يقول القرآن الكريم واصفاً للمتقين الذين كتب لهم الله رحمته :

« الذين يتبعون الرسول النبي الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم » .

فالنبي الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل هو محمد بن عبد الله الهاشمى القرشى سليل إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام ، واليهود والنصارى يعلمون هذا علم اليقين والقرآن جبههم بقوله : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ... » ولا تزال أسفارهم بعد ما أحلوا بها من التحريف والتبديل تحمل بعض هذه البشارات التى يسلطون عليها فاسد التأويل ، وأنت تستطيع أن تأخذ إليك سفر التثنية من أسفار التوراة فتجد فيه هذا النص (أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به) فإخوة بنى إسرائيل هم العرب لأن جدهما إبراهيم عليه السلام ، هذا إجماع تاريخى منا ومنهم ومن جميع أهل التاريخ فى أرض الله فلا سبيل للشك فيه ، ووسط العرب هم قريش ، ووسط قريش هاشم كما ورد فى صحيح مسلم عن واثلة بن الأسقع عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله اصطفى كنانة من ولد

إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى هاشما من قريش واصطفانى من بنى هاشم ».

ولم يجىء نبى بعد موسى عليه السلام بشريعة كاملة مستقلة غير محمد عليه الصلاة والسلام ، فهو النبى المماثل لموسى الذى خوطب بهذا النص ، ولا معنى للأخوة لو كان هذا النبي الموعود من بنى إسرائيل كما يزعم المحرفون ، لأنه حينئذ يكون من أنفسهم لا من إخوتهم ، وجعل كلام الله فى فمه كناية عن عدم تعاطى الكتابة والاعتماد على الحفظ والتلاوة وهو معنى الأمية التى هى أخص أوصاف محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقول الله تعالى من سورة الصف : « وإذ قال عيسى ابن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ».

وهذا نص صريح قاطع فى أن عيسى عليه السلام بشر قومه برسالة رسول يجىء من بعده اسمه أحمد ، ولم يزعم أحد قط أن اسم أحمد سمى به رسول جاء بعد عيسى عليه السلام غير خاتم النبيين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

ولما كانت هذه البشارات قائمة على نصوص قاطعة صريحة فى التوراة والإنجيل يعلمها أتباعهما يقينا جعل الله هذا العلم

آية على صدق محمد صلى الله عليه وسلم فى رسالته فقال تعالى : «أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل » فكان علم أهل أهل الكتاب بصدق رسالة محمد لوجود نعته واسمه فى كتبهم آية للشركين على إثبات رسالته .

ومن هنا كانت الإنباءات التى تعيها المصادر المعتبرة بروايات صحيحة عن بعض الأحبار والرهبان وما نقله عنهم المتحنفة والمعتافون عن زمن ميلاد النبى صلى الله عليه وسلم وعن نعته وبعض خصائصه واسمه وبلده وبعثه ومهجره وما يلقى من قومه وما يتم به أمره من قبيل الآيات والأعاجيب التى أشار إليها القرآن وتأيدت بروايات صحيحة ، فهى من الآيات التى لا ترد ولا يتسلط عليها التأويل ، ويجرى مجراها ما ماثلها من الأخبار التى صاحبت حياة النبى صلى الله عليه وسلم فى أطواره المتعددة ولا سيما بعد البعثة ، ذلك الوقت الذى تنبهت فيه عند اليهود حاسة المحافظة على البقاء نتيجة لتنبه الوعى القومى عند أصحاب الوطن الأصلاء من عرب الأوس والخزرج الذين استغلهم اليهود واستغلوا وطنهم استغلالا اقتصاديا أنزلهم فيه منزلة التابع الأجير ، فلما لم يجدهم إيقاد نيران الفتن بينهم والسعى بالإفساد أرادوا أن يستغلوا هذه الظاهرة الدينية التى ينفردون بها

ظاهرة الإخبار عن نبي يبعث، وأن زمانه قد اقترب وأنه يدعو إلى التوحيد، ويحارب الوثنية والوثنيين، وأنهم ينتظرونه ليؤمنوا به، ويكونوا في صفه ويكون في صفهم إلبا على هؤلاء العرب الوثنيين يقتلونهم معه، وبدأوا ينشرون هذه البشارات ويذيعون أخبار النبي صلى الله عليه وسلم.

روى البيهقي وأبو نعيم عن حسان بن ثابت قال: إني لغلام ابن سبع سنين أو ثمان أعقل ما رأيت وسمعت إذا بيهودي يصرخ ذات غداة يا معشر يهود، فاجتمعوا إليه - وأنا أسمع - فقالوا: ويلك مالك؟ قال قد طلع نجم أحمد الذي يولد به في هذه الليلة.

وروى الحافظ أبو نعيم في دلائل النبوة عن مالك بن سنان قال: جئت عبد الأشهل يوما لأتحدث فيهم ونحن في هدنة من الحرب فسمعت يوشع اليهودي يقول: أظل خروج نبي يقال له أحمد يخرج من الحرم، فقال له خليفة بن ثعلبة الأشهلي كالمستهزئ به: ما صفته؟ فقال رجل ليس بالقصير ولا بالطويل في عينيه حمرة يلبس الشملة ويركب البعير سيفه على عاتقه، وهذا البلد مهاجره، قال مالك: فرجعت إلى قومي بني خدرة وأنا يومئذ أتعجب مما يقول يوشع، فأسمع رجلا منا يقول: فيوشع يقول هذا وحده؟

كل يهود يثرب يقولون هذا ، قال مالك بن سنان : فخرجت حتى جئت بنى قريظة فأجد جمعا فتذاكروا النبى صلى الله عليه وسلم فقال الزبير بن باطا : قد طلع الكوكب الأحمر الذى لم يطلع إلا لخروج نبى أو ظهوره ولم يبق أحد إلا أحمد وهذا مهاجره .

وروى ابن سعد عن عائشة أم المؤمنين بسند حسنه الحافظ ابن حجر فى شرح البخارى أنها قالت : كان يهودى قد سكن مكة فلما كانت الليلة التى ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يامعشر قريش هل ولد فيكم الليلة مولود ؟ قالوا : لا نعلم ، قال : انظروا فإنه ولد فى هذه الليلة نبى هذه الأمة أحمد الآخر بين كتفيه علامة ، فانصرفوا فسألوا ، فقيل لهم : ولد لعبد الله ابن عبد المطلب غلام فسماه جده محمداً ، فالتقوا بعد من يومهم فأتوا اليهودى فى منزله ، فقالوا علمت أنه ولد فينا مولود ؟ قال : ابعد خبرى أم قبله ؟ قالوا : بل قبله ، قال : فاذهبوا بنا إليه فخرجوا معه حتى دخلوا على أمه ، فأخرجته إليهم فرأى الشامة فى ظهره ، فغشى على اليهودى ثم أفاق فقالوا : ويلك . مالك ؟ قال : ذهبت النبوة من بنى إسرائيل وخرج الكتاب من أيديهم ، وهذا مكتوب ، يقتلهم ويبز أحبارهم فازت العرب بالنبوة ،

أفرحتم يامعشر قريش،أما والله ليسطون بكم سطوة يخرج نبؤها من المشرق إلى المغرب .

وروى أيضا عن عامر بن ربيعة قال : سمعت زيد بن عمرو ابن نفيل « يقول: أنا أنتظر نبيا من ولد إسماعيل ثم من بنى عبدالمطاب ولا أرانى أدركه وأنا أومن به وأصدقه وأشهد أنه نبى فإن طالت بك مدة فرأيته فأقرئه منى السلام وسأخبرك ما نعته حتى لا يخفى عليك ، قلت : هلم ، قال : هو رجل ليس بالطويل ولا بالقصير ولا بكثير الشعر ولا بقليله ، وليست تفارق عينه حمرة وخاتم النبوة بين كتفيه واسمه أحمد وهذا البلد مولده ومبعثه ثم يخرجه قومه منها ويكرهون ما جاء به حتى يهاجر إلى يثرب فيظهر أمره ، فإياك أن تخدع عنه فانى طفت البلاد كلها أطلب دين إبراهيم فكل من أسأل من اليهود والنصارى والمجوس يقولون هذا الدين وراءك وينعتونه مانعته لك ويقولون: لم يبق نبى غيره ، قال عامر : فلما أسلمت أخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم قول زيد بن عمرو وأقرأته منه السلام فرد عليه السلام ورحم عليه وقال : قد رأيته فى الجنة يسحب ذيولا .

وروى الطبرانى والبيهقى فى محادثة طويلة بين أمية بن أبى الصلت وأبى سفيان بن حرب ، قال أمية : جئت هذا العالم

(راهبا نصرانيا) فسألته عن أشياء ، ثم قلت : أخبرنى عن هذا النبى الذى ينتظر ؟ قال : هو رجل من العرب ، قلت : قد علمت أنه من العرب ، فمن أى العرب هو ؟ قال : من أهل بيت تحجه العرب ، قلت : وفينا بيت تحجه العرب قال : هو من إخوتكم من قريش ، فأصابنى والله شىء ما أصابنى مثله قط ، وخرج من يدى فوز الدنيا والآخرة وكنت أرجو أن أكون إياه قال أبو سفيان : فإذا كان ماكان فصفه لى ، قال : رجـــل شاب حين دخل فى الكهولة ، بدو أمره يجتنب المظالم والمحارم : ويصل الرحم ، ويأمر بصلتها ، وهو محوج كريم الطرفين ، متوسط فى العشيرة ، أكثر جنده من الملائكة ، قال أبو سفيان : فقدمنا مكة فقضيت ماكان معى ، ثم انطلقت حتى جئت اليمن تاجرا ، فكنت بها خمسة أشهر ثم قدمت مكة ، فبينا أنا فى منزلى جاءنى الناس يسلمون على ، ويسألون عن بضائعهم حتى جاءنى محمد بن عبدالله وهند عندى تلاعب صبيانها ، فسلم على ورحب بى ، وسألنى عن سفرى ومقامى ولم يسألنى عن بضاعته ، ثم قام ، فقلت لهند والله إن هذا ليعجبنى ما من أحد من قريش له بضاعة إلا وقد سألنى عنها وما سألنى هذا عن بضاعته ، فقالت لى هند : أو ما علمت شأنه ؟ فقلت وأنا فزع : ما شأنه ؟ قالت : يزعم أنه رسول الله فوقذفتنى وتذكرت قول النصرانى ، فرجفت حتى

قالت لى هند : مالك ؟ فانتبهت ، فقلت : إن هذا لهو الباطل ، لهو أعقل من أن يقول هذا ، قالت : بلى والله إنه ليقولن ذلك ويدعو إليه ، وإن له لصحابة على دينه ، فقلت : هذا هو الباطل قال : وخرجت فبينا أنا أطوف البيت إذ بى قد لقيته فقلت له : إن بضاعتك قد بلغت كذا وكذا وكان فيها خير ، فأرسل من يأخذها ولست بآخذ منك فيها ما آخذ من قومى فأبى على ، وقال : إذن لا آخذها ، قلت ، فأرسل فخذها وأنا آخذ منك مثل ما آخذ من قومى ، فأرسل إلى بضاعته فأخذها وأخذت منه ما كنت آخذ من غيره . قال أبو سفيان : فلم أنشب أن خرجت إلى اليمن ، ثم قدمت الطائف فنزلت على أمية بن أبى الصلت ، فقال لى : يا أبا سفيان قلت : ما تشاء قال : هل تذكر قول النصرانى ؟ قلت : أذكره ، وقد كان ، فقال : ومن ؟ قلت : محمد بن عبد الله ، قال : ابن عبد المطلب ؟ قلت : ابن عبد المطلب ، ثم قصصت عليه خبر هند ، قال : الله يعلم وأخذ يتصبب عرقا ، ثم قال : يا أبا سفيان لعله ، إن صفته لهى ولئن ظهر وأنا حى لأطلبن من الله عز وجل فى نصره عذراً ، قال أبو سفيان : ومضيت إلى اليمن فلم أنشب أن جاءنى هنالك استهلاله ، وأقبلت حتى نزلت على أمية بن أبى الصلت بالطائف ،

فقلت : يا أبا عثمان قد كان من أمر الرجل ما قد بلغك وسمعته فقال : قد كان لعمرى ، فقلت : فأين أنت منه يا أبا عثمان ؟ فقال : والله ما كنت لأومن برسول من غير ثقيف أبداً قال أبو سفيان : وأقبلت إلى مكة ، فو الله ما أنا ببعيد حتى جئت مكة فوجدت أصحابه يضربون ويحقرون ، فجعلت أقول : فأين جنده من الملائكة ؟ فدخلنى ما يدخل الناس من النفاسة .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يذكر أمية بن أبى الصلت ويستنشد شعره لما فيه من دلائل التوحيد والثناء على الله تعالى روى مسلم والإمام أحمد عن عمرو بن الشريد عن أبيه قال : كنت ردفا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لى : أمعك من شعر أمية بن أبى الصلت شىء ؟ قلت : نعم ، قال : فأنشدنى ، فأنشدته بيتا ، فلم يزل يقول لى كلما أنشدته بيتا إيه حتى أنشدته مائة بيت ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن كاد يسلم .

ويحدثنا ابن سعد فى طبقاته عن بعض الأنصار أن يهود بنى قريظة كانوا يدرسون ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتبهم ويعلمونه الولدان بصفته واسمه ومهاجره إلينا ، فلما

ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم حسدوا وبغوا وقالوا : ليس به .

وكان المشركون يرون أن أهل الكتاب أعلم بهذا الشأن فكانوا يسألونهم وكان هؤلاء يخبرون بما عندهم ، روى ابن سعد عن أبي عباس قال : بعثت قريش النضر بن الحارث بن عاقة ، وعقبة بن أبي معيط وغيرهما إلى يهود يثرب . وقالوا لهم : سلوهم عن محمد ، فقدموا المدينة فقالوا : أتيناكم لأمر حدث فينا ، منا غلام يتيم فقير يقول قولا عظيما ، يزعم أنه رسول الرحمن ، ولا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة ، قالوا : صفوا لنا صفته ، فوصفوا لهم ، قالوا : فمن تبعه منكم ؟ قالوا : سفلتنا ، فضحك حبر منهم ، وقال : هذا النبي الذى نجد نعته ونجد قومه أشد الناس له عداوة .

وقال ابن إسحاق : وكانت الأحبار من يهود والرهبان من النصارى والكهان من العرب قد تحدثوا بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه لما تقارب من زمانه ، أما الأحبار

من يهود والرهبان من النصارى فعما وجدوا فى كتبهم من صفته وصفة زمانه وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه .

ثم بين ابن إسحاق عن جماعة من الأنصار ما كان يتحدث به يهود يثرب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وسبب بغيهم وحسدهم، إنكارهم ما كانوا يعاينونه ويتدارسونه من ذكره فقال : وحدثنى عصام بن عمرو بن قتادة عن رجال من قومه قالوا : إن مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله وهداه لما كنا نسمع من رجال يهود ، كنا أهل شرك أصحاب أوثان وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا ، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور ، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : إنه قد تقارب زمان نبى يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فكنا كثيرا مانسمع منهم ذلك ، فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم أجبنا حين دعانا إلى الله تعالى وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم إليه ، فآمنا به وكفروا به ، ففينا وفيهم نزل هؤلاء الآيات من البقرة : « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » .

هذا قليل من كثير من الروايات التى روتها كتب الدلائل

النبوية ورواها بعض كتب الحديث والسنة وقد اخترنا منها وتحرينا ما وسعنا التحرى أن نتحامى الروايات التى يدخلها التزيد ويحوكها الخيال ، فليس من الإنصاف التاريخى أن تهدر هذه الكثرة الغامرة من الروايات فى هذا الجانب من السيرة النبوية تحت تأثير الإيهام بمعروف العقول وقضايا العلم وحكم المنطق ومتعارف سنن الحياة ، وفرغنا من مناقشة هذا الإيهام فى صدر بحث الأعاجيب الكونية والخوارق المعجزة ، وأقمنا بذلك أصلا نرد إليه ما يعرض فى طريق البحث منها .

محمد فى المهد

رضاعه

صلى الله عليه وسلم

كان لموت عبد الله بن عبد المطلب أبى محمد صلى الله عليه وسلم فى رحلته التى خرج إليها تاجراً وهو فى مقتبل شبابه بعيد حادث الذبح وبنائه بزوجه آمنة بنت وهب أم محمد صلى الله عليه وسلم أثر من الحزن الفادح والألم الممض على نفس أبيه الشيخ الذى أفنت السنون جلده وناء بأثقالها ، فلما بشر بميلاد حفيده محمد صلى الله عليه وسلم صب به صبابته بأبيه من قبله - وكان أبو محمد صلى الله عليه وسلم عبد الله أحب أبناء عبد المطلب إليه وحظى محمد صلى الله عليه وسلم عند جده حظوة لم تكن لأحد من ولده ، فأخذه من مهده بين يديه وطاف به حول الكعبة يباركه ويدعو له ، ويستعذب النظر إليه فى حنان الأبوة الثاكلة ، ثم رده إلى أمه وعاد إلى مكانه فى ظل البنية المقدسة يفكر ويقدر

ويطلب له المراضع فى نساء البوادى على عادة سكان المدن والقرى من العرب فى استرضاع أولادهم فى البادية اتقاء لوخامة المدن ووضر الحواضر، وتخريجاً فى التعرب والتفاصح وانتجاعا لجو البادية صحة وانطلاقا مع مظاهر الطبيعة فى الأرض والسماء، وكانت المرضعات يردن مكة فى المواسم تطلباً للرضع الذين يؤملن فيهم جدة وسعة من العطاء، وكان فى قبائل العرب وبيوتاتهم بيوت وقبائل عرفت بخصب الدر ونقاء الجو وصفاء الطبيعة وفصاحة اللهجة ونصاعة البيان ونقاء المربى. منهم بنو سعد ابن بكر من قبيلة هوازن المعروفة بتعربها وفصاحتها، فلما ورد نساؤها مكة عرض عليهن فيمن عرض من الرضع محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، فأقبلن على غيره، وأعرضن عنه: لأنهن عرفن أنه يتيم، وكن يرتجين وسيع العطايا وغامر المنح من آباء الأطفال، وكان فى نساء بنى سعد السيدة حليمة بنت عبد الله بن الحارث، ويظهر أنها كانت أرقهن حالا، فلم يرغب فيها آباء الأطفال وذووهم، وأصاب صواحباتها طلبتهن من الرضع وبقى محمد صلى الله عليه وسلم بغير مرضع، وبقيت حليمة بغير رضيع، وعرض عليها فجعلت تقول: يتيم ولا مال له، وما عست أمه أن تفعل، وهنا نترك الرواية التاريخية تحدثنا

على لسان حليمة بما اتفق عليه الرواة أو قريب منه . روى ابن اسحاق بسنده عن جعفر بن أبي طالب قال : حدثت عن حليمة بنت الحارث أنها قالت : قدمت مكة في نسوة من بني سعد نلتمس بها الرضعاء في سنة شهباء(1) فقدمت على أتان لي قمراء(2) كانت أذمت(3) بالركب ومعي صبي لنا وشارف(4) لنا والله ماتبض(5) بقطرة وما ننام ليلتنا أجمع من صبينا ذاك ، ما نجد في ثديي ما يغنيه ولا في شارفنا ما يغذيه ، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج فخرجت على أتاني تلك ، فلقد أذمت بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعجفاً ، فقدمنا مكة ، فوالله ما علمت منا امرأة وإلا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم

(1) سنة شهباء لا خضرة أو لا مطر بها .

(2) أتان قمراء : هو من القمرة : لون إلى الخضرة أو بياض تشوبه كدرة .

(3) أذمت بالركب : حبستهم لإعيائها وانقطاع سيرها . قال في اللسان : وفي حديث حليمة السعدية : فخرجت على أتاني تلك فلقد أذمت بالركب أي حبستهم لانقطاع سيرها .

(4) الشارف : الناقة المسنة الهرمة .

(5) هو من قولهم بض الماء يبض إذا سال قليلا .

فتأباه إذا قيل أنه يتيم تركناه ، قلنا : ماذا عسى أن تصنع إلينا أمه ؟ إنما نرجو المعروف من أبى الولد ، فأما أمه فماذا عسى أن تصنع إلينا ، فوالله ما بقى من صواحبى امرأة إلا أخذت رضيعا غيرى ، فلما لم نجد غيره وأجمعنا الانطلاق قلت لزوجى الحارث ابن عبد العزى: والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ليس معى رضيع ، لأنطلقن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه ، فقال: لا عليك أن تفعلى فعسى أن يجعل الله لنا فيه بركة ، فذهبت فأخذته فوالله ما أخذته إلا أنى لم أجد غيره ، فما هو إلا أن أخذته فجئت به رحلى فأقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن فشرب حتى روى وشرب أخوه (ولدها) حتى روى ، وقام صاحبى إلى شارفنا تلك فإذا أنها لحافل تحلب ما شرب وشربت حتى روينا ، فبتنا بخير ليلة ، فقال صاحبى حين أصبحنا : يا حليمة والله إنى لأراك قد أخذت نسمة مباركة ، ألم ترى ما بتنا به الليلة من الخير والبركة حين أخذناه ، فلم يزل الله تعالى يزيدنا خيراً ثم خرجنا راجعين إلى بلادنا ، فوالله لقطعت أتانى بالركب حتى ما يتعلق بها حمار ، حتى إن صواحبى ليقلن ويلك يا بنت أبى ذؤيب ؟ هذه أتانك التى خرجت عليها معنا ؟ فأقول : نعم والله إنها لهى ، فقلن والله إن لها شأناً حتى قدمنا أرض بنى سعد وما أعلم أرضا من أرض الله

أجدب منها ، فإن كانت غنمي لتسرح ثم تروح شباعا لبناً فنحلب ما شئنا وما حوالينا أحد تبض له شاة بقطرة لبن وإن أغنامهم لتروح جياعا حتى إنهم يقولون لرعاتهم: ويحكم انظروا حيث تسرح غنم بنت أبي ذؤيب فاسرحوا معهم ، فيسرحون مع غنمي حيث تسرح فتروح أغنامهم جياعا ما فيها قطرة لبن وتروح أغنامي شباعا لبناً نحلب ما شئنا ، فلم يزل الله يرينا البركة نتعرفها حتى بلغ سنتين فكان يشب شبابا لا يشبه الغلمان ، فوالله ما بلغ السنتين حتى كان غلاماً جفراً ، فقدمنا به على أمه ونحن أضن شيء به مما رأينا فيه من البركة ، فلما رأته أمه قلت لها : دعينا نرجع بابننا هذه السنة الأخرى فإنا نخشى عليه وباء مكة ، فوالله ما زلنا بها حتى قالت : نعم فأقمنا به شهرين أو ثلاثة ، وفي رواية ابن سعد أن أمه آمنة هي التي طلبت رده معهم خشية عليه من وباء مكة ، ويظهر أنه ليس بين الروايتين اختلاف حقيقي ، لاحتمال أن تكون حليمة قدمت به على أمه زائرة فرأت صبابة أمه به فخافت أن تحبسه عنها وقد استوفى أقصى أمد الرضاع فعجلت بطلب رده معها لتطمئن فوجدت من أمه رغبة في رده معهم . قال ابن سعد : قال محمد بن عمر (الواقدي) عن أصحابه: مكث عندهم سنتين حتى فطم وكأنه ابن أربع سنين ، فقدموا به

على أمه زائرين لها ، وأخبرتها حليمة خبره وما رأوا من بركته فقالت آمنة : ارجعى بابنى فإنى أخاف عليه وباء مكة ، فوالله ليكونن له شأن . فرجعت به[1] .

وحكى ابن كثير رواية فيها غرابة قال : ذكر أن عبد المطلب أمر ابنه عبد الله أن يأخذه فيطوف به فى أحياء العرب ليتخذ له مرضعة فطاف حتى استأجر حليمة على رضاعه وأقام عندها ست سنين تزيره جده فى كل عام .

وغرابة هذه الرواية لما فيها من أن أبا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان موجوداً حين ميلاده وأنه هو الذى استرضعه فى بنى سعد واستأجر له حليمة ، وهى رواية لا تتفق إلا مع رواية أن أباه عاش حتى بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من عمره سبعة أشهر أو ثمانية وعشرين شهراً على ما ذكرناه سابقاً وهنا

---

(١) الجفر : الذى استغنى عن الرضاع وقوى على الأكل : وقدساق ابن منظور فى اللسان هذا الحديث فقال : وفى حديث حليمة ظئر النبى صلى الله عليه وسلم قالت: كان يشب فى اليوم شباب الصبى فى الشهر فبلغ ستا وهو جفر ، ثم قال: والجفر الصبى إذا انتفخ لحمه وأكل وصارت له كرش . ويلاحظ أن فى رواية ابن منظور مخالفة لرواية ابن اسحاق فى تقدير الزمن .

روايتان ضعيفتان والرواية الثانية أن أباه توفى وهو جنين فى بطن أمه ، وهو قول جمهور المؤرخين ومؤلفى السيرة .

وذكر ابن سعد وغيره أن ظئره حليمة رأت بعد أن رجعت به إلى باديتها وكانت لا تدعه يذهب بعيداً عنها ، غمامة تظله إذا وقف وقفت ، وإذا سار سارت فأفزعها ذلك من أمره فقدمت به على أمه لترده إليها وهو ابن خمس سنين فأضلها فى الناس فالتمسته فلم تجده فأتت عبد المطلب فأخبرته فالتمسه عبد المطلب فلم يجده وجعل ينشده بأبيات من الشعر فوجده ورقة بن نوفل ورجل آخر من قريش فأتيا به جده فأخذه على عاتقه وذهب فطاف به يعوذه ويدعو له ثم رده إلى أمه آمنة .

وذكر ابن سعد أيضاً أن جماعة من اليهود مروا على ظئره حليمة - وكانت أمه آمنة قد أخبرتها ببعض شأنه وأوصتها بحفظه والحرص عليه - فقالت لهم : ألا تحدثونى عن ابنى هذا ، فإنى حملته كذا ووضعته كذا ورأيت كذا كما وصفت أمه فقال بعضهم لبعض اقتلوه ، فقالوا : أيتيم هو ؟ فقالت حليمة : لا ، هذا أبوه وأنا امه ، فقالوا : لو كان يتيما لقتلناه ، فذهبت به حليمة وقالت : كدت أخرب أمانتى ..

وكان عمه حمزه مسترضعا معه فى بنى سعد عند امرأة أخرى غير ظئر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال ابن سعد : كان حمزة بن عبد المطلب رضيع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أرضعتهما امرأة من العرب كان حمزة مسترضعا له عند قوم من بنى سعد بن بكر ، وكانت أم حمزة قد أرضعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما وهو عند أمه حليمة ، وقد سبق أن ثويبة جارية أبى لهب أرضعتهما وأبا سلمة فهما أخوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرضاع بابن ثويبة ، ويزيد حمزة لبن السعدية.

هذه هى قصة رضاعه صلى الله عليه وسلم فى جملة رواياتها التى ترويها كتب السيرة ولا يكاد كتاب منها يخلو عن طرف من أطرافها حتى قال ابن كثير فى تاريخه بعد أن روى حديث ابن اسحاق الذى صدرنا به وهو أجمعها وأوفاها وعليه معول جمهرة المؤرخين : وهذا الحديث قد روى من طرق أخر ، وهو من الأحاديث المشهورة المتداولة بين أهل السير والمغازى.

وليس فى القصة على النهج الذى سقناها فيه ما يباعد بينها وبين الواقع التاريخى ، فاسترضاع السادة من أهل الحواضر والمدن أبناءهم فى البوادى ، ووفود نساء البادية لأخذ الرضع ،

بتجين الخير وسعة العطاء من آبائهم ، وإحجامهن عن يتيم لم يعرف ثراؤه ، واندفاع حليمة إلى أخذه بعد أن لم تجد رضيعاً غيره ترجع به مع صواحبها وظهور البركة فى دار حليمة وغنمها وشارفها ، وشبابه شباباً ممتازاً فى صحته ونموه عن لداته وأقرانه من الأطفال والغلمان ، ورده إلى أمه لزيارتها ، وحرص ظئره على بقائه عندها لما رأت فيه من البركة والخير ، وحرص أمه على رده مع ظئره إلى البادية خشية عليه من وباء مكة التى تغص فى المواسم بالوافدين عليها من الأصحاء والمرضى، وعناية أهل الكتاب من اليهود بشأنه وتطلبهم له ، وحرص ظئره حليمة على تعرف أحواله ، بعد حديث أمه معها عنه وعن مشاهداتها فى أيام حمله وحين ولادته وفراستها فى أنه سيكون لابنها شأن ، ومساءلة حليمة اليهود عنه ، وكتمها يتمه لتنجو به من غدرتهم التى انتووها ، كل اولئك من الأمور التى لا ينكرها الواقع ولا تأباها سنن الحياة العامة .

ومن هنا نقول إن هذه الصورة لمهد محمد صلى الله عليه وسلم ورضاعه صورة فطرية إنسانية مكملة لتلك الصورة الفطرية التى صورت حمله وميلاده تصويراً تاريخياً ، وكما كان وراء تلك

الصورة صورة أخرى مصنوعة لا تعرفها الفطرة الإنسانية ولا توائم السنن العامة للحياة فكذلك وراء صورة مهده ورضاعه صورة لهما مليئة بالأعاجيب الكونية والخوارق المعجزة ، والفيصل فى قبول هذه الخوارق هو ما أصلناه من النظر الممحص فى سندها وصحة رواياتها ، فإذا استقام لها ذلك قبلناها على أنها أثر من اثار القدرة الإلهية القاهرة ، يكرم الله بها عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم كرامة تشريف .

تحقيق قصة شق صدره

صلى الله عليه وسلم

شق الصدر من الإنسان، وإخراج قلبه الحسى المعروف فى التكوين الجسمى للإنسان بأنه لحمة صنوبرية الشكل فى داخل القفص الصدرى، وسط مائلا إلى الجهة اليسرى قليلا فى الأعم الأغلب وتتصل به مفاتيح الحركة الدموية ومغاليقها، وقنواتها، ثم فتح هذا القلب فتحا ماديا حسيا، وإخراج علقة دموية منه، وغسله بالماء، ثم إعادته إلى مكانه بعد خياطته، وخياطة الصدر، والتئامه مع بقاء الحياة الإنسانية بعد ذلك كله، كانت أمورا تأباها قوانين الحياة العامة، وتنكرها معارف العقول وتردها أبسط قضايا العلم وبدائه المنطق فى تاريخ الحياة.

فإذا وقعت وشهدتها الحياة الوجودية كانت من غير شك جارية على غير ما عرفته العقول من سنن الحياة، وعلى غير ما عرفه العلم التجريبى فى قوانين الحياة، بل تكون جارية على سنن خاصة خارقة لمتعارف العقول، متخطية قضايا العلم فى تجاربه الحسية.

وهذه السنن الخاصة لا ينكرها العقل ، لأنه دائب البحث فى أسرار الكون وسنن الله فيه ، ولا يزال يكشف عن كثير من هذه الأسرار والسنن مما كان يجهله ، ولم يقف هذا العقل عند هذه القضايا العلمية المعروفة له باعتبارها نهايات لمدركاته ، ولم يؤمن بأنها هى الغاية لجولاته فى الكون المحجب بسحائب الغيب بل هو مؤمن أشد الإيمان أن وراء ما وصل إليه من حقائق أمورا كثيرة لم تكشف له وهو دائب العمل فى سبيل إدراك المجهول من حقائق الكون وسنن الله المنظمة لوجوده .

والراسخون من العلماء يرون أن ما وصلوا إليه إنما هو قطرة من محيط العجائب الكونية والسنن الإلهية ، ولم يدع أحد منهم أن العقل يستطيع أن يصل إلى مجهول الأسرار جميعها فى هذا الكون العظيم .

وجيلنا اليوم ، وهو فى آخر القرن الرابع عشر الهجرى ، وآخر القرن العشرين الميلادى ، يشهد أعمالا فى طب الجراحة وزرع الأعضاء الداخلية والخارجية فى جسم الإنسان وسائر الحيوان ، كانت فى الماضى من المحالات فى نظر العقل والعلم ، ولا نذكر هذا لنفسر به المعجزات الألهية التى يجريها الله تعالى على مقتضى سننه الخاصة تكريما لأنبيائه ورسله لأن شأن

هذه المعجزات أن تجرى على مقتضى سُنن إلهية خاصة تختلف فى أسلوبها وحقائقها مع أسلوب وحقائق السنن الإلهية العامة وكلها من عند الله .

ومن ثم كان وقوع هذا الحدث الخطير ، لمحمد صلى الله عليه وسلم من أعجب الأعاجيب الكونية ، وأعظم خوارق السنن العامة ، وأضخم الآيات الحسية التى تحيلها عادات الناس ومألوفاتهم وتستبعدها العقول بالنظر لمعارفها من سنن الحياة العامة المتكررة وبالنظر إلى قضايا العلم التجريبى .

وبمجرد إحالة العادة المألوفة للناس فى مجرى حياتهم العامة ، وبمجرد استبعاد العقول المقيدة بأغلال الحس والحواس ، وسنن الحياة العامة المكررة لا يكفى للحكم بعدم الوقوع ، وتبقى المسألة فى دائرة الإمكان ، مستندة إلى سلطان القدرة الآلهية والإرادة الربانية التى لا تتقيد بسنن الحياة العامة ، ومعروف العقول ، وقضايا العلم ، لأن الله تعالى الذى خلق هذه السنن العامة لنظام الحياة ، وأوصل العقول إلى معارفها ، وهداها إلى قضايا العلم ، هو الذى يخلق سننا خاصة لأحداث خاصة يجريها فى أوقاتها ومناسباتها .

فليس من العدل العلمى ، ولا من الإنصاف العقلى تحكيم

متعارف العقول ، وقضايا العلم ، ومألوف الناس فى عاداتهم وتجاربهم فى سنن الله ، وتقييدها بما عرف من قضايا تجريبية أو معارف عقلية .

ولو حكم متعارف العقول ومألوف العادات فى فهم سنن الله تحكيما مطلقا لبطلت أصول الديانات السماوية ، لأن العادات ، ومتعارف العقول ، وقوانين المنطق الإنسانى لا تدرك حقيقة النبوة فتحيلها بصورتها الدينية ، لأن النبوة قائمة على الوحى ، وهو معنى لم تحدد حقيقته بغير الاتصال البشرى بالملأ الأعلى الذى هو غيب مطلق فى حقيقته ، وطريق الاتصال به من قبل البشر ، واتصاله بالبشر ، وكل ما يعرفه العلم (الدينى) عن الوحى أن يتم باتصال فرد من البشر يصطفيه الله لنبوته ، بروح علوى تسميه الشرائع السماوية (ملكا) وهو أمر يجهل العقل الإنسانى حقيقته ، وفى هذا الاتصال تتلقى الشخصية البشرية عن هذا الروح العلوى أمورا من قبل الله تعالى ، هى شرائعه التى يتعبد بها خلقه .

وهنا يتساءل العقل الإنسانى ، كيف يتصل فرد من البشر بما فيه من خصائص البشرية (بملك) بماله من خصائص

الملكوتية ؟ وكيف يتلقى عنه ما يبلغه عن الله تعالى ؟ ثم يتساءل العقل مرة أخرى، كيف يتلقى الملك عن الله عز وجل ما يؤديه إلى آحاد البشر ؟) .

ولا ريب أن العقل سيقف أمام هذا التساؤل فى جانبيه حائرا ، لا يحير جوابا يطمئن إليه فى حدود معارفه وقضايا علمه وأقيسة منطقه ، ولا يخرجه من هذه الحيرة إلا التسليم والإقرار بأنه ليس من حقه أن يرفض جميع مالم يعلم ، ولا جميع ما لم يفهم ، لأنه أمام نفسه يعلم أنه لم يحط خبرا بكل ما يمكن أن يعلم ، وأن ما يجهله من سنن الكون أكثر بكثير مما علمه .

وإذا انتهى العقل إلى هذا الموقف وجب عليه أن يسلم بقوة القدرة الإلهية على الخلق والإبداع ، واتساع سنن الله تعالى فى الكون بما يستطيع أن يصل إليه من البراهين القاطعة على قهر القدرة لقوانين الطبيعة وما وصل إليه العلم والعقل من سنن الحياة فى الكون ، وأن يسلم مطلق تصرفاتها ليسهل عليه الإيمان بما صح الإخبار به من أحداث لم تجر على مقتضى معروف من العلم ، وإنما جرت على مقتضى نمط خاص فى سنن الله تعالى .

فالتقيد بحكم العادة المتكررة ومتعارف العقول ، وقضايا العلم هادم لجميع أصول الديانات السماوية ، فالذين يتشبثون بهذا التقيد فى فهم حقائق الأحداث الكونية يجعلون من معارف العقل وقضايا العلم حواجز إمام فهم سنن الله تعالى فى الكون وهم عندئذ بين أمرين : إما إيمان ينتهى بهم إلى التسليم بالعجز عن إدراك بعض الحقائق الكونية التى جاءت بها الأديان السماوية بأخبار ثابتة الصحة عن طريق الرواية ، وإما إلحاد ينكر جاحدا أصل الديانات الإلهية فلا يبقى ، فى نظرهم بين الحقائق الوجودية نبوة ولا رسالة من الله إلى الخلق ، وهذا ما انتهى إليه ملاحدة الماديين .

وجميع المؤمنين بالديانات السماوية ، عامتهم وخاصتهم يطمئنون إلى أن هذا اللون من العجز هو محض الإيمان الذى يأخذ بصاحبه إلى ساحة رضا الله تعالى ، وهو فى حقيقته تكريم للعلم والعقل .

ورد ما يعتاص فهمه على العقول من الأحداث لعدم جريه على مقتضى معارف العقل وقضايا العلم إلى سلطان القدرة الإلهية فى الخلق والإبداع ، وإلى الإيمان بأن الله

تعالى يفعل فى ملكه ما يشاء كما يشاء هو نهج القرآن الكريم، ففى قصة زكريا عليه السلام حينما بشر بأن الله تعالى سيرزقه غلاما وكان قد بلغ من الكبر سن اليبس والجفاف الذى لا يكون معه ولادة وإنجاب، وكانت امرأته عقيما لا تلد، فتعجب من أمر نفسه أن يخرج منه ومن زوجه ولد — وهما على حالهما التى لا يظهر فيها سبب قريب أو بعيد لإخراج الولد منهما، وعبر عن تعجبه بما حكاه الله عنه فى قوله: « أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من من الكبر عتيا » فجذبه الله من دائرة الأسباب والتقيد بالسنن العامة، إلى حظيرة الإطلاق، والسنن الخاصة، فقال له: « كذلك الله يفعل ما يشاء » أى شأن الله فى الإيجاد والإبداع فوق الأسباب ومتعارف العقول والعادات، وكيف تقيده الأسباب والسنن وهو خالقها ومبدعها ؟.

فقدرته تعالى على إبراز الأحداث من الغيب إلى الوجود العينى لا تتقيد بأسباب جرت بها السنن العامة فى نظام الكون، لأن وراء هذه الأسباب والسنن العامة أسبابا وسننا خاصة يفعل بها ما يشاء كما يشاء متى شاء، ولذلك

زاد نبيه زكريا تلطفا فى جذبه إلى حظيرة الإطلاق ، فنبهه إلى ما هو أعظم من إيجاد الولد منه ومن زوجه وهما على حالهما من البعد عن الإنجاب فقال له (هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا) .

وفى قصة مريم عليها السلام حينما بشرت بالولد من غير أب عجبت من أمر نفسها أن تأتى بولد ، وليس لها زوج يكون منه الولد فى مجرى العادة ومتعارف العقول ، وعبرت عن عجبها بما حكى الله عنها : « أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر » فنبهها الله تعالى إلى مطالع جلاله وعظيم قدرته حتى لا تقف مع الأسباب والسنن العامة ومتعارف العقول ومجريات العادة ، فقال لها : « كذلك الله يخلق ما يشاء » أى أن شأن الله تعالى ألا تتقيد قدرته فى إيجاد ما يشاء بما تعرفه العقول وتعهده العادات من أسباب ، وإنما مرد أمره فى الخلق والإبداع إلى قضائه ، فإذا قضى الأمر كان ما قضاه بكلمته وحكمته :

« إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون » .

وفى قصة إبراهيم عليه السلام وزوجه أم إسحاق عليه السلام لما بشر بالولد من زوجه العجوز العقيم ، وهو شيخ كبير عتا عن الإنجاب ، ضحكت امرأته من أمرها وأمر زوجها فرحة ضاحكة من شدة سرورها بالبشرى ، وقالت معبرة عن عجبها لوقوفها آنئذ مع الأسباب والسنن العامة : « أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً إن هذا لشىء عجيب » .

فنبهها الملائكة المبشرون إلى أن هذا الإنعام من أمر الله الذى لا يتقيد بظواهر الأسباب ولا ينبغى التعجب من أمر الله لأن أمره جل شأنه فوق الأسباب والسنن العامة ، ومتعارف العقول ، ومجارى العادات فى الكون لأن الله تعالى يفعل ما يريد .

فعلى الذين يؤلهون العقل ، ويتعبدون لمعارفه ، ويجمدون مع متكرر العادات أن يكفكفوا من غلوائهم فى تفسير الأحداث الكونية فى الإنسان وفى غيره من سائر الموجودات فما اتضح لهم تفسيره واطمأنوا إليه قبلوه — بحمد الله — وإن لم يتضح لهم تفسير بعض الأحداث لاذوا بالتواضع العلمى ، ووضعوا نصب أعينهم هذا القانون الإلهى المعبر عن أصدق ما وصل

إليه العقل والعلم ، وما يمكن أن يصلا إليه : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

وهم يعلمون أن العقل والعلم عجزا عن تفسير كثير من الحقائق الكونية ، وهما دائبان على البحث وراءها ، عساهما يصلان إلى شيء مما عجزا عنه .

وحسب الباحثين أن يقفوا مع العقل والعلم فى أوج توثباتهما الفكرية والتجريبية ليعلموا — إن كان هناك وسيلة للعلم — ما شأن الحياة بأعم معانيها فى الكون ؟ وماذا بلغ العقل والعلم من الكشف عن حقيقتها ما هى ؟ وما كنهها ؟ والحياة بها كل شيء فى الوجود ، أو هى كل شيء ، فإذا كان العقل والعلم لم يصلا إلى معرفة حقيقتها فى عمومها ، ولم يصلا إلى حقيقتها فى الإنسان خاصة ، فكيف يعطى العقل والعلم حق التحكم فى تفسير الأحداث الدينية التى تستند إلى أمور غيبية لا تزال محجبة عنهما .

إن العلم والعقل لهما مكانتهما التى لا تجحد ، وبهما تتقدم الحياة نحو الكشف عن المجهول ، وعلى المتعصمين بالعلم والعقل أن يسيروا معهما فى حدود مبلغ أمرهما ، دون أن يتجاوزوا بهما طبيعتهما فى تفسير الأحداث .

ونكرر ما قدمنا أن الفيصل فى قبول ما يروى من أحداث كونية، وأعاجيب دينية خارقة لنواميس السنن العامة فى الكون مما جرى على أيدى أنبياء الله ورسله هو صحة الرواية صحة لا تتعرض لطعن فى النقل أو تجريح فى السند، ثم بعد ذلك وجوب التسليم بما صح الإخبار به، ورد إبداعه إلى الله تعالى وعظيم قدرته وبالغ حكمته.

وقصة شق صدر محمد صلى الله عليه وسلم سبيلها سبيل هذه الأحداث الكونية الدينية فما شأن الروايات التى تحدثت بها؟ وما مكانها من الاعتبار عند أهل النقد والتمحيص؟

تروى هذه القصة فى كتب السير والمغازى، ودواوين الحديث والسنة، وكتب التاريخ والطبقات بروايات مختلفة فى زمنها ومكانها، وطريقة وقوعها، والحالة التى وقعت بها.

ويشبه أن تكون كتب السير متفقة على رواية محمد بن إسحاق عن ظئر رسول الله صلى الله عليه وسلم حليمة السعدية التى سقنا طرفا منها عند الحديث عن رضاعه صلى الله عليه وسلم وفيها تتابع حليمة الحديث فتقول كما فى رواية الطبرى وابن هشام، وابن الأثير، وابن كثير: فرجعنا به فوالله إنه بعد مقدمنا به

بأشهر مع أخيه فى بهم لنا خلف بيوتنا إذ أتانا أخوه يشتد فقال لى ولأبيه : ذاك أخى القرشى قد جاءه رجلان عليهما ثياب بياض فأضجعاه وشقا بطنه وهما يسوطانه ، فخرجت أنا وأبوه، فشتد فوجدناه قائما منتقعا وجهه ، فالتزمته والتزمه أبوه ، وقلنا له : مالك يابنى ؟ قال : جاءنى رجلان عليهما ثياب بياض فأضجعانى فشقا بطنى فالتمسا فيه شيئا لا أدرى ما هو . . . . قالت حليمة : فرجعنا إلى خبائنا وقال لى أبوه : والله يا حليمة لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب فألحقيه بأهله قبل أن يظهر به ذلك ، فاحتملناه فقدمنا به على أمه، فقالت : ما أقدمك به يا ظئر وقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك ؟ فقلت : قد بلغ الله بابنى وقضيت الذى على وتخوفت الأحداث عليه فأديته إليك كما تحبين ، قالت : ما هذا بشأنك فاصدقينى خبرك ، قالت حليمة : فلم تدعنى حتى أخبرتها الخبر ، قالت : قد تخوفت عليه الشيطان ؟ فقلت : نعم، قالت : كلا والله ما للشيطان عليه سبيل وإن لبنى لشأنا .

هذه الرواية ساقها بنصها الإمام ابن كثير فى تاريخه، وهو مؤرخ ناقد ممحص وقد عقب عليها كما قدمنا بقوله : وهذا الحديث قد روى

من طرق أخر ، وهو من الأحاديث المشهورة المتداولة بين أهل السير والمغازى وليس هذا التعقيب تصحيحا فنيا، فالشهرة والتداول بين أهل السير والمغازى ليست عنوانا على صحة الحديث فنيا، وكتب السيرة والمغازى لم توصف عند أهل الشأن بالصحة وربما كان أمرها عندهم أخنى فى درجات القبول لما فيها من الجمع بين الغث والسمين ، والصحيح والسقيم ، والقوى والضعيف ، وطريق تمييز هذا من ذاك هو الرجوع إلى كتب الحديث المعتبرة وأقاويل رجال النقد فى رواة الحديث وسنده ، وقبل ذلك لا يصح الحكم على ما فيها والأخذ به أو رفضه ورده .

وذا هو محمد بن اسحاق صاحب هذه الرواية المشهورة المتداولة يروى من طريق آخر كما تنقله عنه المصادر المتقدمة نفسها فيقول: حدثنى ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم قالوا له : أخبرنا عن نفسك قال : نعم أنا دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى عليهما السلام ، ورأت أمى حين حملت بى أنه خرج منها نور أضاءت له قصـــور الشام واسترضعت فى بنى سعد بن بكر فبينا أنا فى بهم لنا أتانى رجلان عليهما ثياب بيض معهما طست من ذهب مملوء ثلجا فأضجعانى فشقا بطنى ثم استخرجا قلبى فشقاه فأخرجا منه علقة سوداء فألقياها ، ثم غسلا قلبى وبطنى بذلك الثلج حتى إذا أنقياه رداه

كما كان ، ثم قال أحدهما لصاحبه زنه بعشرة من أمته فوزنني بعشرة فوزنتهم . ثم قال : زنه بمائة من أمته فوزنني بمائة فوزنتهم ، ثم قال : زنه بألف من أمته فوزنني بألف فوزنتهم ، فقال : دعه عنك فلو وزنته بأمته لوزنهم . قال ابن كثير معقبا على هذه الرواية : وهذا إسناد جيد قوى .

وإذا كان هذا إسنادا جيدا قويا فالرواية به رواية جيدة قوية ، وهى لا تختلف عن الرواية المشهورة المتداولة فى أصل وقوع قصة شق الصدر بصورة معجزة خارقة لجميع ماعرف الناس من سنن الحياة العامة ، فهى عاضدة للرواية المشهورة ، وتزيد هذه الرواية أنها حديث مرفوع ، يحدث به النبى صلى الله عليه وسلم عن نفسه .

ومن مجموعهما نرى أن شق الصدر الشريف كان حادثا واقعيا شهده الوجود بصورته المعجزة فى بادية بنى سعد وأنه كان فى أول أدوار طفولية محمد صلى الله عليه وسلم وهو عند ظئره والرواية المشهورة أوضح فى ذلك ، لأنها صرحت أنه صلى الله عليه وسلم ذهبت به ظئره لزيارة أمه بعد اكتمال رضاعه فى سنتين وأنها استردته معها فرد وبعد رده بأشهر وقع حادث شق الصدر ، فهو على اليقين بالنظر لهذه الرواية كان فى أوائل العام الثالث

من عمره صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكر القسطلانى فى المواهب أن القصة وقعت بعد مقدم ظئره به راجعة من عند أمه بشهر أو ثلاثة .

وما فى الروايتين من اختلاف وراء ذلك فهو اختلاف الإجمال والتفصيل وليس بضار شيئا فى جوهر الموضوع .

وقد جاءت قصة الشق فى رواية مطولة جدا من حديث شداد بن أوس رواها أبو نعيم فى الدلائل ورواها الطبرى فى التاريخ والقسطلانى فى المواهب وجمع غيرهم ، وقد نقد هذه الرواية ابن كثير من جهة سندها فقال: وقد روى أبو نعيم الحافظ فى الدلائل من طريق عمر بن الصبح هذه القصة مطولة جدا ولكن عمر بن صبح هذا متروك كذاب متهم بالوضع فلهذا لم نذكر لفظ الحديث إذ لا يفرح به .

وقد جاءت القصة أيضا فى حديث رواه أبو نعيم والإمام أحمد وصححه الحاكم عن عتبة بن عبد الله أن رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم فقال : كيف كان أول شأنك يا رسول الله ؟ قال : كانت حاضنتى من بنى سعد بن بكر فانطلقت أنا وابن لها فى بهم لنا ولم نأخذ معنا زادا ، فقلت : يا أخى اذهب فأتنا بزاد

من عند أمنا فانطلق أخي ومكثت عند البهم فأقبل طائران أبيضان كأنهما نسران ، فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو ؟ قال: نعم، فأقبلا يبتدراني فأخذاني فبطحاني للقفا فشقا بطني ثم استخرجا قلبي فشقاه فأخرجا منه علقتين سوداوين فقال أحدهما لصاحبه : ائتني بماء ثلج فغسلا به جوفي ثم قال : ائتني بالسكينة فذراها في قلبي ، ثم قال أحدهما لصاحبه : خطه فخاطه وختم على قلبي بخاتم النبوة ، فقال أحدهما لصاحبه : اجعله في كفة واجعل ألفا من أمته في كفة ، فإذا أنا انظر إلى الألف فوقي أشفق أن يخر على بعضهم فقال : لو أن أمته وزنت به لمال بهم ، ثم انطلقا فتركاني وفرقت فرقا شديدا ، ثم انطلقت إلى أمي فأخبرتها بالذي لقيت ، فأشفقت أن يكون قد لبس بي فقالت ؛ أعيذك بالله ، فرحلت بعيرا لها وحملتني على الرحل وركبت خلفي حتى بلغنا إلى أمي، فقالت : أديت أمانتي وذمتي وحدثتها بالذي لقيت فلم يرعها، وقالت : إني رأيت خرج مني نور أضاءت منه قصور الشام .

وهـــذه الرواية تتفق مـع الروايتين السابقتين في جوهر الواقعة ، وهو أنه صلى الله عليه وسلم شق بطنه وأخرج منه قلبه فشق وغسل ثم أعيد وخيط عليه وختم بخاتم النبوة ، وذلك في أول طفوليته وهو عند ظئره في بادية بني سعد بن بكر .

وتختلف معهما فيما حكته من أنه صلى الله عليه وسلم هو الذى ذهب إلى ظئره وقد فرق مما وقع له فرقا شديدا حتى خشى أن يكون قد لبس عليه فسكنت ظئره روعه وأعاذته بالله مما أشفق على نفسه منه ، وأما الروايتان السابقتان فلم تعرض إحداهما لهذا ولعله من باب الاختصار ، وعرضت له الرواية المشهورة فذكرت أن الذى ذهب فأخبر أمه هو أخوه من الرضاع وأن ظئره هى التى خافت عليه وردته إلى أمه بمكة .

قال ابن كثير : وثبت فى صحيح مسلم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان .. فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب واستخرج منه علقة سوداء . فقال : هذا حظ الشيطان ، ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ثم أعاده فى مكانه وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعنى ظئره - فقالوا : إن محمدا قد قتل ، فاستقبلوه وهو منتقع اللون .

قال أنس : وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط فى صدره .

هذه رواية ارتفعت عن جميع ما سبقها من جهة علو السند

وصحته وقوته ، فحسبك بمصدرها أحد الصحيحين ، وحسبك برواتها أنهم ممن اتفق على توثيقهم والرواية عنهم الشيخان البخارى ومسلم ، فلاسبيل إلى التشكيك فى وقوع القصة بعدها ، وهى واضحة فى أن القصة وقعت والنبى صلى الله عليه وسلم فى طفوليته يلعب مع الغلمان عند ظئره فى بادية بنى سعد .

وروى عبد الله بن أحمد بن حنبل فى زوائده على مسند أبيه عن أبى هريرة قال : يا رسول الله ما أول ما ابتدئت به من أمر النبوة ؟ قال : إنى لفى صحراء أمشى ابن عشر حجج إذ أنا برجلين فوق رأسى يقول أحدهما لصاحبه أهو هو؟ قال : نعم . فأخذانى فألصقانى لحلاوة القفا ، ثم شقا بطنى وكان أحدهما يختلف بالماء فى طست من ذهب والآخر يغسل جوفى ، فقال أحدهما لصاحبه: افلق صدره ، فإذا صدرى فيما أرى مفلوق ، لا أجد له وجعا ، ثم قال : اشقق قلبه ، فشق قلبى ، فقال : أخرج الغل والحسد منه ، فأخرج شبه العلقة فنبذ به ، ثم قال : أدخل الرأفة والرحمة قلبه فأدخل شيئا كهيئة الفضة ، ثم أخرج ذرورا كان معه فذر عليه ، ثم نقر إبهامى ، ثم قال : اغد ، فرجعت بما لم أغد به من رحمتى للصغير ورقتى على الكبير .

وفى هذه الرواية مخالفة جوهرية فى الزمن والسن التى كان عليها محمد صلى الله عليه وسلم وقت وقوع القصة فهى صريحة فى أنها وقعت وسنه عشر سنوات، ولم يقل أحد أنه كان وهو فى هذه السن لا يزال فى بادية بنى سعد فالصحراء المذكورة هنا هى غير صحراء السعديين الذين كان مسترضعا فيهم، فالمخالفة بين هذه الرواية والروايات السابقة فى الزمان والمكان، ومن ثم جزم بعض العلماء بتعدد القصة .

ومن الروايات المحددة لسنه صلى الله عليه وسلم وقت وقوع القصة رواية الواقدى عن أصحابه كما يرويها تلميذه محمد بن سعد فى الطبقات قال : مكث عندهم - بنى سعد - سنتين فقدموا به على أمه زائرين لها وأخبرتها حليمة خبره وما رأوا من بركته فقالت آمنة ارجعى بابنى فإنى أخاف عليه وباء مكة، فوالله ليكونن له شأن، فرجعت به، ولما بلغ أربع سنين كان يغدو مع أخيه وأخته فى البهم قريبا من الحى فأتاه الملكان هناك فشقا بطنه واستخرجا علقة سوداء فطرحاها وغسلا بطنه بماء الثلج فى طست من ذهب، ثم وزن بألف من أمته فوزنهم فقال أحدهما للآخر دعه فلو وزن بأمته كلها لوزنهم، وجاء أخوه يصيح بأمه : أدركى أخى القرشى، فخرجت أمه تعدو ومعها

أبوه فيجدان رسول الله صلى الله عليه وسلم منتقع اللون ، فنزلت به إلى آمنة بنت وهب وأخبرتها خبره ، وقالت : إنا لا نرده إلا على جدع أنفنا ، ثم رجعت به أيضا فكان عندها سنة أو نحوها لا تدعه يذهب مكانا بعيدا .

فهذه الرواية تخالف سابقتها فى تعيين سن محمد صلى الله عليه وسلم وقت حدوث شق الصدر بأربع سنوات ، وتجعله متصلا بقصة رضاعه فى بنى سعد وتجعل باديتهم مكانا للقصة فهى موافقة للرواية المشهورة المتداولة فيما عدا تعيين السن، فالرواية المشهورة حددته بسنتين وأشهر ورواية زوائد المسند حددته بعشر سنين ، وهذه بأربع سنوات .

وقد وقف العلماء عند هذا الاختلاف بعد اطمئنانهم إلى سلامة السند فى الروايات التى سقناها أن يدخله طعن ينزل بواحدة منها إلى الوضع والكذب ، ولكنها تنتهى إلى درجة من الصحة والحسن متفاوتة القوة ، فرجح فريق منهم بعض الروايات على بعض وجزم بأن القصة وقعت مرة واحدة فى طفولية محمد صلى الله عليه وسلم ، وإلى ذلك جنح القاضى عياض ، وهو إمام ضليع الإمامة فى الحديث السيرة ومعرفة الأسانيد ، وعارضه الإمام السهيلى مرتضيا أن القصة

وقعت مرتين ، قال ابن حجر فى الفتح : وهو الصواب ، ولعل مرد ذلك ما فى الروايات من اختلاف جوهرى فى زمن القصة ومكانها مع عدم ضعف السند ضعفا يقتضى إهداره وطرحه ، وإلى تعدد القصة أكثر من مرة مال القسطلانى فى المواهب فقال : وهذا الشق روى أنه وقع له عليه الصلاة والسلام مرات فى حال طفوليته إرهاصا ، وتقدم المعجزة على زمان البعثة جائز للإرهاص .

هذه الروايات والنقول والأقاويل كلها تدور على أساس أن شق الصدر وقع له صلى الله عليه وسلم قبل بعثته بالرسالة وأن ذلك كان فى طفوليته فيما بين السنة الثالثة إلى السنة العاشرة من عمره المبارك ، وأصح ما فى ذلك وأحراه بالقبول رواية صحيح مسلم ، وهى على إجمالها واضحة فى إثبات القصة ثبوتا لا يعتريه ريب ولا لبس ، وواضحة فى أن ذلك كان إرهاصا معجزا ، ولا يكون كذلك إلا إذا كان فى حال اليقظة على الطريقة التى لا تبقى معها حياة فى العادة ومتعارف الناس .

غير أن بعض الروايات جاءت فيها ألفاظ ربما كانت مشعرة بأن الأمر فى القصة لم يخرج عن كونه رؤيا منام رآها رسول الله

صلى الله عليه وسلم . فقد جاء فى رواية ابن عساكر من حديث عروة بن الزبير عن أبى ذر الغفارى قال : قلت : يا رسول الله كيف علمت أنك نبى حين علمت ذلك واستيقنت أنك نبى ؟ قال : (يا أبا ذر أتانى ملكان وأنا ببعض بطحاء مكة) وساق الحديث حتى ذكر شق الصدر وخياطته وجعل الخاتم بين كتفيه ، إلى أن قال النبى صلى الله عليه وسلم : (فما هو إلا أن وليا عنى فكأنما أعاين الأمر معاينة) فهذا ظاهر فى أن الأمر لم يكن معاينة محققة ، ولكنه كان شبيها بالمعاينة من جهة وعيه جميع ما جرى له وعدم ذهاب شىء عن وعيه منه ، وفى هذه الرواية تعيين لمكان القصة وأنها كانت ببعض بطحاء مكة ، ولذلك ذهب بعض العلماء إلى أن هذه قصة أخرى غير قصة بادية بنى سعد التى اتفق عليها الرواة ولعل هذه كانت فى مبدأ النبوة وكان أول ما بدئ به صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصادقة ، فتكون من هذا القبيل .

وليس لهذه الكلمة الواردة فى هذه الرواية قوة رد جميع الروايات المتقدمة بما فيها رواية مسلم وكلها صريحة فى أن القصة وقعت وقوعا ماديا فى اليقظة من قبيل الإرهاص والإعجاز .
على أن مكان العناية فى الأمر أن شق الصدر معجزة من معجزات

محمد صلى الله عليه وسلم التى لم يقصد بها إلى التحدى ولم تجعل برهانا على إثبات الرسالة ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يخبر بها إلا جوابا لسائل ، وهذا القدر ثابت فى روايات توشك لكثرتها أن تجعل الحادث متواتر الحديث تواترا معنويا .

ومما يجزم الشك ويرفع الاشتباه ويزيل الالتباس ما رواه البخارى فى حديث الإسراء عن أنس بن مالك قال : كان أبو ذر يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فرج عن سقف بيتى وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدرى ثم غسله بماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيمانا فأفرغه فى صدرى ثم أطبقه ، وهذا يطابق فى المعنى حديث أبى ذر المتقدم .

وقد تكلم العلماء فأوسعوا فى شرح ألفاظ القصة وذكروا حكمتها وحكمة كل فعل جرى فيها من الغسل بماء زمزم أو غيره ، ونزع العلقة ، وذر السكينة ، وإدخال الإيمان والحكمة والرأفة والرحمة ، بما لا يدع مجالا لمؤمن فى التوقف عن قبول القصة والإيمان بها .

ولا عبرة بعدم اطمئنان المستشرقين وجماعة من الباحثين

المعاصرين إلى القصة ووقوعها ، فلو لم يكن فى رواياتها إلا رواية الشيخين البخارى ومسلم لكانت فى أعلى مراتب الصحة من ناحية السند . وأما غمز القصة بطفولية النبى صلى الله عليه وسلم واستعظام ما حدث به على سنه فى الرواية ، فهذا من قبيل الإيهام المضلل لأن تحديد السن لم تتفق عليه الروايات ، على أننا نسأل عبيد الاستشراق والمستشرقين : ما قولكم فى رواية البخارى وهى صريحة فى أن القصة وقعت بعد النبوة ليلة الإسراء ؟ والحديث معكم فى وقوع القصة لا فى زمانها ومكانها ، لأن ذلك تحقيق تاريخى لا يضير البحث ألا تؤمنوا به ، وكيف يستعظم تحدثه صلى الله عليه وسلم على سنه ، والأمر كله من قبيل الإعجاز ؟ على أن تحدثه كان وهو نبى رسول ، إذ سئل من بعض أصحابه فأجاب بما جاء فى الرواية .

والذى يعنى البحث أن قصة شق الصدر حادث كونى ومعجزة عجيبة وقعت لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وجاءتنا بها الروايات الصحيحة الثابتة ، ولا يردها تشكيك مستشرق ولا مستغرب ، ولم يتخذ منها النبى صلى الله عليه وسلم آية للتحدى والبرهنة على صدق رسالته كغيرها من المعجزات الكونية والخوارق العجيبة قبل البعثة أو بعدها ، ونحن نعلم أن هذا

اللون من الآيات المعجزة لو لم يذكر فى سيرة نبينا محمد صلى الله عايه وسلم لم ينقص من جلالها شيئا ، وأن معجزته العظمى الخالدة التى حملت بين طواياها التحدى بها هى القرآن العظيم ، ولكن حقائق التاريخ يجب أن يرتفع بها البحث إلى قدس الحق بعيدا عن التعصب الحقود والتقليد الأبله ، والتأثر بالنزعات الجافية لطبيعة الدين والإيمان به ، وعلى الذين يؤرخون لمحمد صلى الله عليه وسلم ويكتبون فى سيرته أن يجعلوا نصب أعينهم أن محمـــدا صلى الله عايه وسلم نبى من أنبياء الله ورسول من رسل الله ، وأن عظمته فى نبوته ورسالته ، لا فى عبقريته وبطولته ، فهو بالنبوة والرسالة قد سما على العبقرية والبطولة وإنما فضله على إخوانه الأنبياء والمرسلين بما منحه الله تعالى من فضل فى شريعته التى ختم الله الشرائع بها وجعلها جامعة لجميع ما جاءت به الشرائع المتقدمة من خير وإصلاح وتهذيب مع زيادة ما يقتضيه تقـــدم الإنسانية فى تفكيرها وعقلها وروحها وضميرها .

ولعل هـذا هو ما أشار إليه القرآن الكريم بعد أن ذكر أولى العزم من الرسل فى آية « وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم

على قومه ، فقال تعالى : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » فهدى الجميع هـــدى لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فهو الجامع لما تفرق في جميع الأنبياء والمرسلين من الفضائل والمحامد ، وإليه ينتهي خيرهم وفي شريعته تنطوى شرائعهم ، فهى خاتمة الشرائع وهو خاتم النبيين وإمام المرسلين .

محمد صلى الله عليه وسلم
فى طفوليته

لعل التصور المقارب للواقع التاريخى يستطيع أن يسعف القلم ليرسم صورة موجزة مقاربة لمطلع حياة طفولية نهدت فى لفائف اليتم لأكرم من ضمه مهد فى حياة البشرية ، حتى يستشف البحث من وراء ذلك حقائق الوجود الواقعى فى مشهد الحياة لهذه الشخصية الكريمة .

تولى الله أمر محمد صلى الله عليه وسلم منذ أول لحظة حظى فيها الوجود بإشراق طلعته ، فنشأه تنشئة جمع له فيها خصائص الفطرة الإنسانية فى أعلى مراتبها وأرفع درجاتها فلم يكله إلى أب يكفله ويربيه، وللأبوة أثرها على الطفولة وتوجيهها فى الحياة؛ ومن ثم كان فقد محمد صلى عليه وسلم أباه قبل أن ينسم نسيم الوجود فى هذه الدنيا العريضة نعمة من أجل نعم الله ، فهو لم يشهد أباه ولم يعرف عنه وعن شمائله وأخلاقه وعاداته ووسائله فى عيشه إلا ما حدثته به أمه عنه فى طفولته ، وهى كسيرة القلب حزينة

الفؤاد لفراق ذلك الزوج الحبيب والأب الكريم ، ومحمد صلى الله عليه وسلم يوم أن عقل هذا الحديث وتصور منه صورة أبيه كان قد أخذ سمتا فى الحياة لا تغيره الأحاديث ، ولا تؤثر فيه الصور الذهنية المركبة من مجموعة قصص عمن كان ، إلا كما يؤثر بريق التاريخ اللامع فى توجيه أمة تكنفها عناصر الحياة بدوافعها الحية المتدفقة ، وأى أثر لهذا البريق غير الإعجاب بالماضى الذى ذهب ولن يعود ؟

ولد محمد صلى الله عليه وسلم يتيما ، لم يستشعر عطف الأبوة يفيض به قلب والد فطره الله - كغيره من الوالدين - على لون من الحنان لم يعطه الله غير قلوب الوالدين ، وللطفولة إلهام تقرأ آياته فى نظراتها الحالمة ، وبسماتها الساهمة ، وفى هذا الإلهام ضرب من الإدراك الخافت الذى يلمس به الطفل حنان الأبوة وعطفها ، فترسم على فمه بسمة صادقة وعلى عينيه نظرة صافية صفاء الفطرة الخالية من الرسوم والأصداء ، ولقد ارتسمت على فم محمد صلى الله عليه وسلم تلك البسمة الصادقة وطافت بعينيه تلك النظرة الصافية ، ونظرت إليه أمه آمنة بنت وهب ، وكانت قريبة عهد بفراق زوجها الجبيب ، فجدد نظرها فى نفسها حزنا مبرحا وألما كظيما ، فرأت على ثغره ابتسامة متوهجة وفى عينيه

تطلع إلى السماء ، ولعل خيالها المصور أسعفها فأراها فى وجه وليدها المحبوب وجه والده الحبيب ، وتنازعتها عاطفتان، عاطفة الوالدة وقد أشرق عليها وجه وليدها وقرة عينها؛ وعاطفة الزوجة فقدت زوجها الحبيب ، ولكنها تتمثله وترى وجهه فى وجه هذا الوليد الحبيب، وتغلبت عاطفة الأمومة الحانية على عاطفة الزوجة الودود، وضمت آمنة وليدها إلى صدرها ، واختلطت عليها الأحاسيس واستنار وجهها وحن ثديها فأرضعت ابنها ، فكان لبنها أول غذاء غذى به ونمت عليه خلاياه ، ثم تناولته بين يديها ثويبة أم مسروح جارية عمه أبى لهب فألقمته ثديها فرضع منه ما شاء من رى وشبع ، وظل بين أمه وظئره الأولى مدة لم يذكر التاريخ تحديدها حتى أهل على مكة موسم المراضع فقدم السعديات إليها يطلبن الرضع وفيهن حليمة بنت الحارث فكان محمد صلى الله عليه وسلم نصيبها ، وكانت هى من حظه وحملته وارتحلت به إلى باديتها ، وكان الصدر الذى يضمه ليس صدر آمنة أمه ، ولكنه صدر حليمة ظئره وفرق كبير بين العاطفتين عاطفة الأمومة الوالدة وعاطفة الأمومة المرضعة ، فحرم حنان أمه بعد أن مضى القدر فحرمه عطف أبيه .

ذلك لون من اليتم الجديد ، قضت به العادات المتوارثة

فيما بين العرب ، فهو صلى الله عليه وسلم قد حرم عاطفة الأبوة المشفقة ، وبوعد من عاطفة الأمومة الحانية ، ونشأ بعيدا عن بلده وقومه ، وبلده حاضرة البلاد العربية ، لها من طبيعة الحواضر مايسمها بميسم اللين والدعة ، وقومه أهل شرف وسيادة فى بلده ، وللشرف والسيادة آثارهما على الأخلاق والتطبع وتوجيه الغرائز والسلوك ، نشأ فى بادية بين قوم من العرب عرفوا بصفاء البيان ، وفصاحة اللسن ، ضاق عيشهم وعصفتهم السنون ، يعيشون فى بادية ضاحية الأديم تصهرها الشمس إذا أسفرت ، وتتلألأ فى سماء لياليها النجوم الزواهر ، ويضيئها القمر المنير ، ويزمجر فى أرجائها الرعد ، ويلمع فى آفاقها البرق ، وتهدر فى وديانها العواصف وتطبعها الحياة بطابع قاس متقلب ، تنتشر على صفحتها هنا وهناك خيام يأوى إليها فئام من الناس إذا هجع الليل ، أو هجر النهار ، يسرحون بالبهم يرتادون لها المراعى وظلال الشجر وعيون المياه ومجارى الوديان ومجتمع الأنهار والغدر ، ومساقط الغيث ومنابت الكلأ ، وذلك هو كل ما يشغل أهل البيئة ، وفيما سواه فراغ لا يملأه من العمل كثير ولا قليل ، فهى بيئة تدعو إلى التأمل والتفكر ، وتقليب النظر فى ملكوت الله تعالى ومظاهر الوجود . ما وراء هذا الفضاء الأفيح ؟ وما هذه القبة

الزرقاء ؟ وما هـذه السابحات المتلألئات فى أديمها ؟ وما هـذا الجرم الفضى الذى يبعث على هذه الأرض بأنواره المظلة بنسائم الأسحار ؟ وما هذا اللهب المنبعث مع خيوط الضياء الوهاج من هذا الجرم النهارى السابح فى آفاق السماء ؟ وما الذى يمسك ذلك ويدبره على هذا النظام المحكم البديع ؟ وما هذا الصوت الهائل المزعج الذى يصحب دائما الغيث مبشرا أو نذيرا ؟ وما هـــذا الضوء الخاطف بلمعانه فى أطراف السماء ؟ وما هذه العواصف المزمجرة ؟ وما الذى يهيجها ويحركها ؟ وما هذه النباتات والأشجار فى أشكالها وألوانها وروائحها وطعومها ؟ من أين جاءت وكيف نبتت ثم ما أنا ؟ ومن أنا ؟ ومن أين جئت ؟ وإلى أين أذهب ؟ ثم ما هذه الحياة ؟ وما هذا الوجود ؟ ما مبدؤه ؟ وما غايته ؟ وهل فوقه قوة تدبره ؟ وإرادة قاهرة تحركه ؟ وما حقيقة تلك القوة المدبرة الحكيمة .

كل هذه أسئلة لا بد أن تمر على خاطر من يقيم فى بيئة مثـل البيئة التى كانت مهدا لمحمد صلى الله عليه وسلم فى بادية بنى سعد ابن بكر ، ولا بد أن تنفعل لها الخواطر التى تمر بها ، وتتأثر بها الفطر المصقولة التى جعل الله لها قابلية الانطباع لمـا يمر عليها ، أما النفوس الصدئة والفطر الكثيفة فليس لها من ذلك الانفعال شىء ، فكم من نفوس شهدت جلال الصحراء وجمالها كما شهدها

محمد صلى الله عليه وسلم فى طفوليته ، ولكن قليل جدا هم الذين تأثروا بذلك الجلال الوجودى والجمال الكونى ، وانفعلت له فطرهم كما تأثر محمد صلى الله عليه وسلم وهو طفل لم يجاوز الخامسة من عمره ، وحتى هذا القليل لم يكتب له طرف مما كتب التاريخ من تسبيحات الفكر فى محاريب الوجود ، بل ضلوا وضل ذكرهم فى متاهات الصحراء ، وبقى محمد صلى الله عليه وسلم وحده على ربوة الوجود يجاذب هذا الجلال ترانيم التقديس فى صور من التأملات والتفكير .

رجع محمد صلى الله عليه وسلم من بادية بنى سعد إلى مكة بعد أن بلغ من عمره سنوات هى سن تبلغ فيها الطفولية أول مراحل الشباب ، والشباب حماسة ونشاط وقـــوة وتطلع إلى معرفة كل مجهول ، وأى شىء فى حياة الصحراء مجهول ؟ أليست الحياة فيها مكشوفة عريانة ؟ الأرض وما عليها من جبال ووديان وحيوان ونبات ، والسماء وما فيها من شموس وأقمار ونجوم وكواكب ، والجو بعواصفه وأمطاره ورعوده وبروقه ، كلها أمور مرئية مشهودة ، ولكن ما مبلغ علم الناس بها ، لا شىء سوى هذه الظواهر المكرورة فى كل وقت وحين ، أما ما وراء ذلك فهو محجب مغلق ، فأى شىء إذاً فى حياة الصحراء معلوم ؟.

هذه الحيرة الفكرية هى الآية الأولى التى قرأها محمد صلى الله عليه وسلم فى كتاب الوجود على صفحة الصحراء وهى التى رجع بها إلى مكة السادرة فى غى وثنيتها ، السكرى بخمر أصنامها ، المحجوبة عن التفكير فى جمال الكون بتجارتها وأسواقها ومواسمها وأعيادها وعاداتها ، فنظرت إليه ونظر إليها ، نظرت إليه بمنظار وثنيتها فلم تره يمشى إلى أصنامها لاهيا كما يمشى أطفالها لاهية عابثة بل رأت فيه طفلا ينطوى على نفسه وكأنه يحمل من هموم الدنيا وأحزانها ما صرفه عن اللهو واللعب ، وارحمتا لهذا الصبى! إنه يتيم ، يرى لداته من الأطفال يرتمون فى أحضان آبائهم فيضمونهم إلى صدورهم فيملأه الحزن ألا يرى له أبا بين هؤلاء الآباء ، كذلك فكرت مكة فى نظرتها إلى محمد صلى الله عليه وسلم فى صمته وعزلته عن معابثها وملاهيها ، ونظر إليها محمد صلى الله عليه وسلم من خلال حيرته الفكرية ، فرأى صورا هزلية ، ورأى مسخا للكرامة الإنسانية ، ما هذه الأحجار المنحوتة ؟ وما هذا الدوار بها ؟ وما هذه القرابين ؟ ولمن يتقرب بها ؟ وفيم هذه الدماء المسفوكة والمساكين غرثى والفقراء جوعى لا يصلون إلى شىء ولا يصل إليهم شىء . ولكن ما حيلة محمد صلى الله عليه وسلم وهو طفل فى هذه الهامات الضخمة واللحى المسترسلة

والرقاب الغليظة والأصوات المفزعة والمجد الزائف الموروث.

والشرف المؤثل ؛ فهي التي تطوف بهذه الأحجار ؛ وهي التي تهذل وتمسخ ؛ لو كان يسمع له لقال وتكلم ؛ ولعله أن يكون .

وفي حياة محمد صلى الله عليه وسلم الخاصة وما يشغله عن صخب مكة ولهوها العابث حول أحجارها ؛ فليذهب الى أمه ليسكن إلى ضمه صدرها وحنان قلبها ؛ وقد كان يزورها مع ظئره فتخطف له الحديث خطفا عن أبيه وأسرته وقومه وبلده ؛ فأنت محمد بن عبد الله الكريم بن الكريم أبوك أنضر فتيان مكة وأشبها شبابا ؛ وأعلاها ذكرا ؛ الذي لم تنس مكة حادث نحره في قصة ذبحه ؛ فأين هو ؟ إنه .. وتخنق آمنة العبرة فلا تستطيع أن تمضي في الحديث ؛ فينظر إليها وليدها الحبيب ؛ ماذا ؟ أنت تبكين ياأماه ؛ وتضم آمنة ابنها إلى صدرها ضمة توشك أن تطوى عليه جوانحها ؛ ثم تعود إلى الحديث في طرف آخر منه : وهذا السيد العظيم الذي يلتف حوله الملأ من صناديد قريش يسمعون لقوله ويبتدرون نظراته هو جدك شيبة الحمد عبد المطلب بن هاشم سيد الحرم وشريف مكة وكبير قريش ؛ وهؤلاء الفتيان البهاليل المساميح حول هذا الشيخ في وقفة الإجلال له إنهم أعمامك وإخوة أبيك وهؤلاء الصيد الأماجد الذين يملؤون السمع والبصر يغدون في طرقات مكة ويروحون في عنجهية واستعلاء إنهم قريش قومك وعشيرتك ; وهذا البلد

الأمين بلدك ؛ فأنت ابن الأكرمين ؛ أهل الله وجيران بيته وسكان حرمه ، تدين العرب بالطاعة لهم ، وتسمع لقولهم وتعنو الجباه لحرمة بلدهم .

وعرف محمد صلى الله عليه وسلم أنه يتيم وأن أباه ليس في غيبة لها أوبة ، ولكنه مضى إلى حيث لا يعود ؛ ويخرج إلى حيث فراش جده في ظل الكعبة ؛ فيلقى أعمامه حافين حوله ؛ ولما يخرج اليهم الشيخ العظيم ؛ فيذهب ليجلس على مجلس جده ويأبى أن يجلس حيث أعمامه ؛ فيهم أولئك الأعمام بتنحيته ويلقاهم أبوهم في همهم هذا فيأخذ بيد محمد صلى الله عليه وسلم ويجلسه معه ويمسح ظهره بيده ويظهر له رقة وحبا لم يكونا لأحد من ولده ويقول : دعوا ابني فوالله إن له لشأنا .

سفر محمد صلى الله عليه وسلم إلى يثرب ووفاة أمه وهى عائدة به إلى مكة

ويرجع محمد صلى الله عليه وسلم بعد مجلسه عند جده إلى أمه فتحدثه وتداعبه ، وفيم يطيب الحديث بين آمنة وابنها الحبيب إلا عن ذلك الراحل الأريب ، ويتصل الحديث عن عبد الله وتختلس آمنة النظر إلى ابنها وفى عينيها عبرات ، ويلمح محمد صلى الله عليه وسلم وجه أمه تكسوه مسحة من الحزن الصامت وتلتقى عيناه بعينيها فتضمه إلى صدرها الحنون وتنسى أحزانها وتقبل عليه فى ابتسامة تعبر عن آمالها وأحلامها وتخبره عن رحلة أبيه ووفاته والبلد الذى دفن فيه ، وصلته بأهل ذلك البلد فى شىء من التفصيل ، فكأنما حنت نفسه إلى زيارة أقاربه فى ذلك البلد الذى يحوى جدث أبيه ، وكأنما صادف ذلك من نفس أمه رغبة موافقة ورأت فى شبابه — وكان قد بلغ سنه ست سنوات قوة على احتمال السفر ، فتحملت به ومعه حاضنته أم أيمن التى أورثها له أبوه فأزارته أخوال جده

عبد المطلب ، وهناك لعب مع لداته ورآه يهود يثرب فتحدثوا عنه وسمعتهم حاضنته فتوجست عليه منهم وأبلغت سيدتها فرحلوا عائدين إلى مكة ، ولما كانوا على نحـــو ثلاثة وعشرين ميلا من يثرب وقد بلغوا قرية « الأبواء » مرضت آمنة أم محمد صلى الله عليه وسلم مرضا بلغها الأجـــل ودفنها هناك ابنها الحبيب وحاضنته أم أيمن وعادا على بعيريهما إلى مكة . قال ابن سعد فى الطبقات : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أمه آمنة بنت وهب فلما بلغ ست سنين خرجت به إلى أخواله بنى عدى بن النجار بالمدينة تزورهم به ومعه أم أيمن تحضنه ، وهم على بعيرين فنزلت به فى دار النابغة فأقامت به عندهم شهرا ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر أمورا كانت فى مقامه ذلك ، لما نظر إلى أطم « قصر » بنى عدى بن النجار بعد هجرته عرفه وقال : « كنت ألاعب أنيسة جارية من الأنصار على هذا الأطم ، وكنت مع غلمان من أخوالى نطير طائراً كان يقع عليه » ونظر إلى الدار فقال « ههنا نزلت بى أمى » وفى هذه الدار قبر أبى عبد الله بن عبد المطلب وأحسنت العوم فى بئر بنى عدى بن النجار » وكان قوم من اليهود يختلفون ينظرون إليه فقالت أم أيمن : فسمعت أحدهم يقول : هو نبى

هذه الأمة ، وهذه دار هجرته فوعيت ذلك كله من كلامه ، ثم رجعت به أمه إلى مكة فلما كانوا بالأبواء توفيت آمنة بنت وهب فقبرها هناك ، فرجعت به أم أيمن على البعيرين اللذين قدموا عليهما ، وكانت تحضنه مع أمه ، ثم بعد أن ماتت ، وقال القسطلانى فى المواهب : وقد كنت أم أيمن بركة دايته وحاضنته بعد موت أمه ، وكان عليه السلام يقول لها (أنت أمى بعد أمى) .

لك الله ياسيدى يارسول الله ، خرجت فى رفقة أمك الحبيبة شوقا إلى زيارة بلد ضم جسد أبيك الذى لم يشهد إشراق طلعتك ولم تشهد شخصه فى حياته وكان قدر الله تعالى الحكيم رصدا لوالدتك فى طريق عودتها بك إلى بلدك الحرام وجدك الشيخ العظيم ، لجمع لك ربك يتم الأبوين ، ليستخلصك بالتربية ، ويصطنعك بالتأديب حتى تكون نشأتك ربانية وتأديبك الهيا فتتم لك النعمة وتعظم من الله عليك المنة ، فتستأهل للخلود فى آيات متعبدة متلوة آناء الليل وأطراف النهار : « والضحى ، والليل إذا سجى ، ماودعك ربك وماقلى ، وللآخرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى ، ألم يجدك يتيما فآوى » فإذا اشتاقت نفسك الكريمة إلى توالى إتحاف الله لك بنعمه فلا يجولن بخاطرك ، تلهفا على ألطاف الملكوت أن

ربك ودعك ولا تأس لما يردده الجاحدون ، فأنت الحبيب المحبوب ، وأنت ربيب إحسان الربوبية منذ أن شرف الوجود بوجود نورك ، فكيف يتركك ربك بعد مظهر الاصطفاء الأعظم وأنت فيه واسطة عقد الملكوت وروح الوجود ، وما تركك وأنت بعد غلام فى مكة لم تطالع من سفر الوجود إلا فاتحة الكتاب .

لك الله ياسيدى رسول الله ، ألم يجدك ربك يتيما فآواك إلى كنف عزته ، وأى يتم أبلغ فى النفس أثرا وأعمق فى القلب ألما من يتم يتلاحق فيه الأبوان قبل أن تشتد لصروف الحياة قناة الوليد ؟ وأنت ذلك اليتيم الذى فقد أباه قبل وجوده ، وفقد أمه فى طلائع طفوليته ونماء عوده ، لم تبك لفقد أبيك لأنك لم تكن لفقده شهيدا ، ولكن أمك تموت على مشهد من عينيك فى بلد أنت فيه غريب ، فوارحمتا لطفوليتك الغضة يهيضها فادح الأرزاء غربة « ويتم » يلاحق يتما . روى أبو نعيم من طريق الزهرى عن أسماء بنت رهم عن أمها قالت : شهدت آمنة أم النبى صلى الله عليه وسلم فى علتها التى ماتت فيها ومحمد عليه السلام غلام يفع عند رأسها فنظرت إلى وجهه ثم قالت : كل حى ميت ، وكل جديد بال ؛ وكل كثير يفنى وأنا ميتة وذكرى باق وقد تركت خيرا وولدت طهراً .

أى أم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أى سطر فى كتاب الوجود أمليته على الكرام الكاتبين فنعموا لك ، واستجابوا لقولك مؤمنين ؟ وأية آية من سفر الخلود رتلتها ساعة وداعك الدنيا الفانية وفيها ابنك الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم نور الوجود ورمز الخلود ؟ وأى إلهام ألقى عليك هذه الكلمات فى ساعة يعصر فيها الوجد قلب الحبيب . إنك قلت أنا ميتة وذكرى باق : فقال الوجود : أجل ياأم محمد . وقلت : وقد تركت خيرا وولدت طهراً . فقالت السماء : نعم ياأم محمد. وكفاك ذكرا أنك أم محمد رسول رب العالمين . وكفاك فخراً أنك أم محمد أطهر المطهرين وسيد المرسلين .

محمد صلى الله عليه وسلم
فى كفالة جده

ودفن محمد صلى الله عليه وسلم أمه وعاد الى مكة ومعه حاضنته وأمه بعد أمه السيدة البرة أم أيمن وقلبه ينفطر أسى وحزنا لفقد أمه التى كان يجد فى أحضانها وأحاديثها ومناغاتها غذاء لطفوليته ونشوة لشبابه . وتلقاه جده الشيخ الملق عبد المطلب فقرأ على صفحات وجهه أبلغ آيات الحزن وأمض الأسى . فرق له رقة لم يرقها على ولده وصب به صبابة شديدة وكان يقربه ويدنيه ويدخل عليه اذا خلا واذا نام . وكان لا يأكل طعاما إلا قال : على بابنى . وكان يحرص عليه أشد الحرص لما كان يسمع من أهل الكتاب والمعتافين فى شأنه . روى ابن سعد أن عبد المطلب قال لحاضنته أم أيمن : يا بركة لا تغفلى عن ابنى . فإنى وجدته مع غلمان قريبا من السدرة . وإن أهل الكتاب يزعمون أن ابنى هذا نبى هذه الأمة . وقال قوم من بنى مدلج لعبد المطلب — وكانوا أهل عيافة وفطنة فى معرفة الأثر

والشيات الموروثة : احتفظ به — يعنون محمداً — فأنا لم نر قدما أشبه بالقدم التى فى المقام منه . فقال عبد المطلب لأبى طالب : اسمع ما يقول هؤلاء . وروى ابن سعد عن كنديربن سعيد عن أبيه قال : كنت أطوف بالبيت فإذا رجل يقول :

رب رد الى راكبى محمدا ردهالىواصطنععندىيدا

فقلت : من هـذا ؟ قالوا : عبد المطلب بن هاشم . بعث بابن ابن له فى طلب إبل له ولم يبعث به فى حاجة إلا نجح . فما لبثنا أن جاء فضمه إليه وقال : لا أبعث بك فى حاجة وروى ابن سعد من طريق خالد بن خداش عن أبى مجلز قال : إن عبد المطلب أو أبا طالب - شك خالد لما مات عبد الله عطف على محمد صلى الله عليه وسلم فكان لا يسافر سفراً الا كان معه فيه . وإنه توجه نحـو الشام فنزل منزله فأتاه فيه راهب فقال : إن فيكم رجلا صالحا . ثم قال : أين أبو هذا الغلام . فقال عبد المطلب هأنذا وليه أو قيل : هذا وليه . قال : احتفظ بهذا الغلام ولا تذهب به الى الشام . إن اليهود حسد . وإنى أخشاهم عليه . قال عبد المطلب : ما أنت تقول ذاك ولكن الله يقوله . فرده . قال : اللهم إنى أستودعك محمداً ثم إنه مات .

وذكرنا لهذه الرواية هنا ترجيح لجعلها خاصة بعبد المطلب

لأنه كان أول كافل لحفيده بعد وفاة أبويه الكريمين . وقد مات عبد المطلب ورسول الله صلى الله عليه وسلم غلام لم يجاوز الثامنة من عمره . وعبد المطلب هـــو الذى شهر بهذه الفواضل التى ذكرت ردا على الراهب فى قوله : إن فيكم رجلا صالحا . وكان أبو طالب - مع شرفه فى قومه - عائلا لا تقوم أسباب عيشه بمثل ما كان يقوم به عبد المطلب من المكارم وأما عمه أبو طالب فقد عاش حتى شرف الله محمداً صلى الله عليه وسلم برسالته ورأى مطالع الدعوة وكانت له فى حمايتها قدم راسخة .

وفاة عبد المطلب

وأثرها فى نفس محمد صلى الله عليه وسلم

بقى محمد صلى الله عليه وسلم فى كفالة جده عبد المطلب بعد وفاة أمه يرعاه الله ويكلأه بكلاءته ويحفظه بعنايته نحوا من سنتين لأن وفاة أمه كانت وهو فى السادسة من عمره على أرجح الروايات ، فلما بلغ الثامنة كان جده قد نيف على المائة فى أشهر الروايات ، وحضره أجله فأوصى بالنبى صلى الله عليه وسلم إلى عمه أبى طالب يحفظه ويحوطه لأنه كان شقيق عبد الله أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتذكر موت عبد المطلب ؟ قال نعم ، أنا يومئذ ابن ثمانى سنين » وقالت حاضنته أم أيمن : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ يبكى خلف سرير عبد المطلب .

وكيف لا يبكى محمد عليه السلام وقد فقد بفقده جده عبد المطلب سيد قريش وشريفها وهو فى طفوليته التى هى فى مسيس الحاجة إلى اليد الحانية والنفس العاطفة والقلب المشفق ، وكان قد لقى فى جده كل ذلك وأكثر منه ، لقى الشخص الذى

ملأ فراغ الأبوة والأمومة من حياة محمد صلى الله عليه وسلم فى هذه المرحلة التى تتغذى فيها الطفولية بالعواطف الصادقة والوجدانات المفعمة بالحنان والرحمة ، إن حياة عبد المطلب كانت فى هذا الدور من حياة محمد صلى الله عليه وسلم المهد الدافىء المظلل بظلال الأبوة الرحيمة والأمومة الوالهة ، وقد أنزله من نفسه منزلا لم ينزله أحدا من ولده ، يحوطه بحبه ويرمقه بعطفه ويقدمه على بنيه ويلازمه صبابة به فلا يفارقه فى سفر أو إقامة ويكون معه فى نومه ويقظته لينسيه ألم اليتم ويمسح عنه الأحزان .

إن هذه الدموع المتحدرة من عينى محمد صلى الله عليه وسلم وهو يودع جده العظيم فى سفره الأبدى آيات من كتاب الوفاء ترتلها نفسه القدسية فى صمتها الحزين .

محمد صلى الله عليه وسلم
فى كفالة أبى طالب

أوصى عبد المطلب عند موته إلى ولده أبى طالب أن يكفل محمداً ابن أخيه الذبيح فكان أبو طالب عند ظن أبيه به فى حدبه عليه ، بل كان صورة منه فى جميع ما كان يوليه من حب وعطف ورعاية ، قال ابن سعد عن طريق شيخه الواقدى عن ابن عباس وكان أبو طالب لا مال له ، وكان يحب محمداً حبا شديداً لا يحبه ولده ، وكان لا ينام إلا إلى جنبه ، وإذا خرج خرج معه ، وصب به أبو طالب صبابة لم يصب مثلها بشى قط ، وكان يخصه بالطعام دون بنيه وإذا أكل عيال أبى طالب جميعا أو فرادى لم يشبعوا ، وإذا أكل معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شبعوا فكان أبو طالب إذا أراد أن يغذى عياله قال لهم : كما أنتم حتى يأتى ولدى فيأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأكل معهم فكانوا يفضلون من طعامهم ، وإن لم يكن معهم لم يشبعوا ،

فيقول أبو طالب : إنك لمبارك . وقال عن ابن القبطية : كان أبو طالب توضع له وسادة بالبطحاء مثنية يتكىء عليها فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فبسطها ثم استلق عليها ، فجاء أبو طالب فأراد أن يتكىء عليها فسأل عنها فقالوا أخذها ابن أخيك ، فقال : وحل البطحاء ان ابن أخى هذا ليحس بنعيم .

وهذا كله شبيه بما كان يصنعه عبد المطلب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بل هو صورة منه ، وكان أبو طالب يرى ذلك كله من أبيه ، ويراه يرضى عن كل ما يصنع محمد صلى الله عليه وسلم ويحب ذلك منه ، فجرى أبو طالب فى طريق والده الشيخ وهو القدوة العليا بين أشراف قريش ، وقصة وسادة أبى طالب شبيهة بقصة فراش عبدالمطلب فى ظل الكعبة وجلوس رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه تطلبا لمعالى الأمور وسمو المكانة فى الحياة ، وكثيراً ما يقرأ تاريخ حياة بعض الأطفال من أفعالهم الفطرية التى تبدو فى غرائزهم الأولى ، وقد رأى عبد المطلب فى تسامى حفيده إلى مجلسه المحفوف بالجلال صورة من السمو الذى يكون عليه فى مستقبله ، ورأى أبو طالب نحو هذا فصوره كل منهما بما ألهمه إحساسه وشعوره .

وكان أبو طالب على غرار أسلافه من بنى عبد مناف يشتغل بالتجارة ، ويرحل عيرات قريش وقوافلها فى رحلتها إلى الشام واليمن ، ويظهر أنه كان قليل الحظ فى الربح الكثير ، وكان مع ذلك كثير العيال ، فشغله ذلك عن القيام بميراث أبيه فى الرفادة واكتفى أبناء عبد المطلب بالسقاية التى وليها العباس وهو من أحدث إخوته سنا .

محمد صلى الله عليه وسلم فى رحيله إلى الشام

ولما بلغ محمد صلى الله عليه وسلم اثنتى عشرة سنة كان عمه أبو طالب يتهيأ للرحيل فى تجارته إلى الشام فتعلق به ليأخذه معه فرق له أبو طالب واصطحبه وقال : والله لأخرجن به معى ولا أفارقه ولا يفارقنى أبداً . روى الترمذى فى جامعه عن أبى موسى الأشعرى قال : خرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه النبى صلى الله عليه وسلم فى أشياخ من قريش ، فلما أشرفوا على الراهب هبطوا فحلوا رحالهم فخرج إليهم الراهب وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت لهم ، فهم يحلون رحالهم فجعل يتخللهم الراهب حتى جاء فأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : هذا سيد العالمين ، فقال له أشياخ من قريش : ما علمك ؟ فقال : أنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجدا ، ولا يسجد إلا لنبى ، وإنى أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة ، ثم رجع فصنع لهم طعاما فلما أتاهم به وكان هو (رسول الله) فى رعية الإبل ،

قال : أرسلو إليه؛ فأقبل وعليه غمامة تظله فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فىء الشجرة فلما جلس مال فىء الشجرة عليه ، فقال : انظروا إلى فىء الشجرة مال عليه ؛ فبينما هو قائم عليهم وهو يناشدهم أن لا يذهبوا به إلى الروم ، فإن الروم إذا رأوه عرفوه بالصفة فيقتلونه ، فالتفت فإذا سبعة قد أقبلوا من الروم فاستقبلهم فقال : ما جاء بكم ؟ قالوا : جئنا إن هذا النبى خارج فى هذا الشهر ، فلم يبق طريق إلا بعث إليه بأناس ، وإنا قد اخترنا خيرة بعثنا إلى طريقك هذا ، فقال : هل خلفكم أحد هو خير منكم ، قالوا : إنما اخترنا خيرة لطريقك هذا ، قال : أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده ؟ قالوا : لا ، فبايعوه وأقاموا معه ، قال : أنشدكم الله أيكم وليه ؟ قالوا : أبو طالب ، فلم يزل يناشده حتى رده أبو طالب ، وبعث معه أبو بكر بلالا وزوده الراهب من الكعك والزيت . قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وقد صحح الحاكم هذا الحديث ، ورواه البيهق وأبو بكر الخرائطى وابن عساكر ، قال ابن كثير فى البداية : وهكذا رواه غير واحد من الحفاظ من حديث أبى نوح عبد الرحمن بن غزوان الخزاعى مولاهم ، ويقال له

الضبي ويعرف بقراد ، سكن بغداد وهو من الثقات الذين أخرج لهم البخارى ووثقه جماعة من الأئمة والحفاظ ولم أر أحداً جرحه، ومع هذا فى حديثه هذا غرابة . قال عباس الدورى : ليس فى الدنيا أحد يحدث به غير قراد أبى نوح وقد سمعه منه أحمد بن حنبل رحمه الله ويحيى بن معين لغرابته وانفراده .

قال ابن كثير : قلت : فيه من الغرائب أنه من مرسلات الصحابة فإن أبا موسى الأشعرى إنما قدم سنة خيبر سنة سبع من الهجرة ، وهذه القصة كانت ولرسول الله صلى الله عليه وسلم من العمر اثنتا عشرة سنة ، ولعل أبا موسى تلقاه من النبي صلى الله عليه وسلم فيكون أبلغ أو من بعض كبار الصحابة رضى الله عنهم ، أو كان هذا مشهوراً مذكوراً أخذه من طريق الاستفاضة الثانى : أن الغمامة لم تذكر فى حديث أصح من هذا ، الثالث : أن قوله : وبعث معه أبو بكر بلالا ، إن كان عمره عليه الصلاة والسلام إذ ذاك اثنتى عشرة سنة ، فقد كان عمر أبى بكر إذ ذاك تسع سنين أو عشرة وعمر بلال أقل من ذلك فأين كان أبو بكر إذ ذاك ؟ ثم أين كان بلال ؟ كلاهما غريب ، اللهم إلا أن يقال: أن هذا كان ورسول الله صلى الله عليه وسلم كبيراً اما بأن يكون سفره بعد هذا ، أو أن كان القول بأن عمره كان إذ ذاك اثنتى

عشرة سنة غير محفوظ . وضعف الحافظ الذهبي الحديث لقوله فى آخره : وبعث معه أبو بكر بلالا ، فإن أبا بكر إذ ذاك لم يكن متأهلا ولا اشترى بلالا ، قال الحافظ ابن حجر فى الاصابة : الحديث رجاله ثقات ، وليس فيه منكر سوى هذه اللفظة فتحمل على أنها مدرجة فيه مقتطعة من حديث آخر وهما من أحد رواته .

جهابذة المحدثين وحذاق الناقدين قبلوا هذا الحديث ولم يردوه ، وأعمقهم تعمقا وأشدهم تشددا وهو الحافظ الذهبي كان قصاراه أنه ضعفه من جهة ما فيه من كلمة ظنها لا تتفق مع تاريخ الواقعة وقد خرج الحافظ ابن حجر هذه الكلمة باحتمال أنها ليست من هذا الحديث وأنها مدرجة فيه مقتطعة من حديث آخر ؛ وذهب ابن كثير فى تخريجها إلى احتمال أن القصة كلها كانت ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان كبيراً ليتفق سنه مع ما جاءت به الرواية من إرسال أبى بكر الصديق بلالا معه فى طريق عودته ، وهذا فى نظر هؤلاء الناقدين يقتضى أن يكون أبو بكر رجلا متأهلا وبلالا مملوكا له .

ولا ندرى ما الذى يوجب ذلك ؟ وما الذى يبعد أن يكون أبو بكر خرج فى هذه السفرة وهو غلام على مثل ما خرج عليه

رسول الله صلى الله عليه وسلم من تعلقه بعمه أبي طالب فأخرجه معه صبابة به ومحبة له ورقة عليه ، فيكون بعض آل أبي بكر أخرجه معه على نحو قريب من هذا ، أو يكون أبو بكر قد آجر نفسه لبعض تجار قريش يكون معه حارسا أو مناولا أو رسولا كالذي نراه فى متعارف الناس ومتصرفاتهم ، وحينئذ فلا استغراب فى وجوده فى هذه الرحلة . ونظراً لتقارب سنه من سن رسول الله صلى عليه وسلم كان بينهما من تقارب القلوب والألفة ووشائج الصداقة ما يكون بين اللدات والأتراب ، ولا سيما إذا توافقت المشارب فى السفر والغربة ، ولعل هذا كان أول شعاع من الضياء انبثق فى أفق صداقتهما الخالدة .

وأما بلال فالاحتمال فى وجوده فى هذه السفرة أرجح وأقرب ؛ اذ ما المانع أن يكون قد خرج فى هذه السفرة على صغره ليخدم بعض سادته اذا كان قد استرق منذ طفولته ؛ أو يكون خرج أجيراً مع بعض أهله أو غيرهم ؛ ولما عرض حديث الراهب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ونصح عمه أبا طالب ليرجع به الى بلده خشية عليه من أعدائه الذين يبغونه الغوائل رغب أبو بكر الى بلال رغبة رفيق الى رفيق ورضى ولى بلال إسعاداً لأبى طالب أن يكون بلال صحبة رفيقها محمد صلى الله عليه وسلم

فى أوبته ليؤنسه وكانت حال بلال تسمح بهذه الصحبة فرحب بلال ورضى مغتبطا أن يكون الرفيق الأنيس لمحمد صلى الله عليه وسلم . وهذا تفسير طبيعى للحادث لا يحتاج الى أن يتأهل أبو بكر أو يملك بلال أو يوهم الرواة .

وعلى أن الطعن فى هذه الكلمة من الحديث لا يضير قصة تظليل الغمامة وما ذكر معها من عجائب كونية وخوارق معجزة؛ لأن جميع الرواة متفقون على صحتها وتوثيق رواتها ؛ وقد قدمنا من البحث ما يكفى فى تزييف رأى المتشبثين بسنن الحياة العامة؛ ومعروف العقول ؛ وقضايا العلم والمنطق ؛ ليخلصوا من ذلك إلى جحود المعجزات الكونية فى سيرة محمد صلى الله عليه وسلم ، بيد أن كثيراً من الباحثين المتحررين من عبودية الاستشراق والتجديد الزائف وقفوا فى بحوثهم مع الإنصاف لعقولهم فى فهم عوالم الغيب وسنن الله تعالى فى الملأ الأعلى ؛ يقول أحد هؤلاء المتحررين فى تفسير قول الله تعالى : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » من هم الملائكة ؟ من هو ابليس ؟ كيف قال لهم الله؟ كيف أجابوا؟ أين كان هذا الحوار ؟ ومتى كان ؟ وما هى الأسماء التى علمها الله لآدم ؟ من الذين عرضهم الله على الملائكة فلم يعرفوا أسماءهم ؟

هذه وأمثالها فى القرآن الكريم مما لم يرد فيه تحديد ولا تفصيل كله غيب من الغيب الذى أسلفنا أن العقل البشرى عنه محجوب وأن الإيمان به صيانة للطاقة الفكرية من أن تتبدد فى غير مجالها ومن أن تنفق عبثا بلا جدوى ، ومتى آمن العقل بالبديهة الأولى بديهة أن الجزء لا يمكن أن يدرك الكل وأن الذى خلق أعلم بما خلق ممن خلق ، متى آمن العقل بالقدرة المطلقة وبالعلم المطلق فأولى به إذن أن يدع هذا الغيب الذى لا يملك وسيلة لإدراكه . أن يدعه لعالم الغيب والشهادة لا استسلاما جاهلا أعمى ولكن تسليما بالبديهة العقلية الأولى . وإذا كان العقل لا يدرك هذا الغيب ولا يجد إلى الإطلاع عليه سبيلا فليس معنى عجزه أن يتبجح وينكر ، فالإنكار حكم يحتاج إلى برهان ، واحترام العقل ذاته يقتضيه ألا ينكر إلا وقد أحاط علما بما ينكره واستيقن من عدم وجوده .

إن الاستسلام للوهم والخرافة شديد الضرر والخطورة ، ولكن أخطر منه وأضر التنكر للمجهول كله ، وإنكاره ، لأنه تنكر لتلك البديهة الأولى ، وإنكار لطبيعة العقل وحدوده وإقحام لهذا لعقل فى غير مجاله وتبديد لطاقته فى غير مجالها ، وتناول منه على حكم لا يملك أسانيده .

هـذا كلام واضح مستقيم الحجة بين المحجة يستطيع كل قارىء وكل باحث أن يضعه إلى جانب كل آية كونية ومعجزة خارقة تثبت صحة الرواية وقوعها فإذا هي حقيقة تاريخية يجب الإيمـان بها دون توقف مع سنن الحياة ومعروف العقول، وقضايا العلم ومقاييس المنطق، لأن كثيرا من الحقائق الواقعية ولا سيما الحقائق الروحية والمعـانى الغيبية العليا التي تتعلق بالله تعالى وصفاته وأسمائه الحسنى ومظاهر ذلك في الحياة والأحياء وما يتصل به من النبوة والرسالة والوحى والملائكة والجن وسائر عالم الغيب والملأ الأعلى لا يخضع لسنن الحياة التي نعرفها ولا لمعارف العقول التي وصلت إليها .

وحديث الغمامة مما أجمع عليه رواة السيرة ، ولم يذكر فى كتب بأصح من رواية الترمذى المتقدمة ، غير أن روايات أصحاب السير جاءت كلها خالية من الكلمة التي نقد من أجلها حديث الترمـــذى ، روى ابن سعد فى الطبقات من طريق عبد الله بن جعفر الزهرى وداود بن الحصين قال : لمـا خـرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثنتى عشرة سنة — فلمـا نزل الركب بصرى من الشام وبها راهب يقال له بحيرا فى صومعة له ، وكان علماء

النصارى يكونون فى تلك الصومعة يتوارثونها عن كتاب يدرسونه فلما نزلوا ببحيرا وكانوا كثيرا ما يمرون به لا يكلمهم حتى إذا كان ذلك العام ونزلوا منزلا قريبا من صومعته قد كانوا ينزلونه قبل ذلك كلما مروا فصنع لهم طعاما ثم دعاهم ، وإنما حمله على دعائهم أنه رآهم حين طلعوا وغمامة تظل رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين القوم حتى نزلوا تحت الشجرة ثم نظر إلى تلك الغمامة أظلت الشجرة وأخضلت أغصان الشجرة على النبى صلى الله عليه وسلم حين استظل تحتها ، فلما رأى ذلك نزل من صومعته وأمر بذلك الطعام فأتى به وأرسل إليهم فقال : إنى قد صنعت لكم طعاما يا معشر قريش وأنا أحب أن تحضروه كلكم ولا تخلفوا منكم صغيرا ولا كبيرا حرا ولا عبدا ، فإن هذا شيء تكرمونى به ؛ فقال رجل : إن لك لشأنا يا بحيرا ، ما كنت تصنع بنا هذا فما شأنك اليوم ؟ قال : فإنى أحببت أن أكرمكم ولكم حق ، فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين القوم لحداثة سنه — ليس فى القوم أصغر منه فى رحالهم — تحت الشجرة فلما نظر بحيرا إلى القوم فلم ير الصفة التى يعرف ويجدها عنده وجعل ينظر ولا يرى الغمامة على أحد من القوم ويراها متخلفة على رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال بحيرا : يا معشر قريش لا يتخلفن منكم أحد عن طعامى ، قالوا : ما تخلف أحد إلا غلام هو أحدث القوم سناً فى رحالهم ، فقال : ادعوه فليحضر طعامى ، فما أقبح أن تحضروا ويتخلف رجل واحد مع أنى أراه من أنفسكم ، فقال القوم هو والله أوسطنا نسبا وهو ابن أخى هذا الرجل — يعنون أبا طالب — وهو من ولد عبد المطلب ، فقال الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف : والله إن كان بنا للؤم أن يتخلف ابن عبد المطلب من بيننا ، ثم قام إليه فاحتضنه وأقبل به حتى أجلسه على الطعام والغمامة تسير على رأسه ، وجعل بحيرا يلحظه لحظا شديدا وينظر إلى أشياء فى جسده قد كان يجدها عنده من صفته فلما تفرقوا عن طعامهم قام إليه الراهب فقال : يا غلام أسألك بحق اللات والعزى إلا أخبرتنى عما أسألك ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لا تسألنى باللات والعزى فوالله ما أبغضت شيئا بغضهما » قال : فبالله إلا أخبرتنى عما أسألك عنه ؛ قال : سلنى عما بدا لك فجعل يسأله عن أشياء من حاله حتى نومه ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره فيوافق ذلك ما عنده ، ثم جعل ينظر بين عينيه ثم كشف عن ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضع

الصفة التى عنده ، فقبل موضع الخاتم ، وقالت قريش إن لمحمد عندهذا الراهب لقدرا ، وجعل أبوطالب لما يرى من الراهب يخاف على ابن أخيه ، فقال الراهب لأبى طالب : ما هذا الغلام منك ؟ قال أبو طالب : ابنى ،قال : ما هو بابنك ، وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا ، قال : فابن أخى ، قال : فما فعل أبوه ؟ قال : هلك وأمه حبلى به ، قال : فما فعلت أمه ؟ قال : توفيت قريبا ، قال :صدقت ،ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما أعرف ليبغنه عنتا ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم نجده فى كتبنا وما روينا عن آبائنا ، واعلم أنى قد أديت إليك النصيحة ، فلما فرغوا من تجارتهم خرج به سريعا .وكان رجال من اليهود قد رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفوا صفته فأرادوا أن يقاتلوه فذهبوا إلى بحيرا فذاكروه أمره فنهاهم أشد النهى ، وقال لهم : أتجدون صفته ؟ قالوا نعم ، قال فما لكم إليه سبيل ، فصدقوه وتركوه ، ورجع به أبو طالب ، فما خرج به سفرا بعد ذلك خوفا عليه ؛ وذكر من طريق عبد الرحمن بن أبزى: قال الراهب لأبى طالب : لاتخرجن بابن أخيك إلى ما هاهنا ، فإن اليهود أهل عداوة ، وهذا نبى هذه الأمة وهو من العرب ؛ واليهود تحسده تريد

أن يكون من بنى إسرائيل فاحذر على ابن أخيك ، ورواية ابن أبزى كالتكملة لرواية الزهرى وابن حصين المطولة وهى أوفى الروايات وأضبطها فى هذا الباب ، وقد رواها الطبرى وابن هشام وابن عساكر والبيهقى وأبو نعيم وابن الأثير وأبو الفداء وجم غفير مع اختلاف طفيف فى بعض ألفاظها ، وقد اخترنا رواية محمد ابن سعد لحسن سياقها ولطف مأتاها واستيفائها ماتبعثر فى مجموع الروايات سواها .

وفى حديث ابن سعد من طريق محمد بن عقيل رواية تختلف مع هذه الرواية اختلافا بينا وليس فيها ذكر لقصة الغمامة قال : أراد أبو طالب المسير إلى الشام ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم « أى عم إلى من تخلفنى ههنا ؟ فما لى أم تكلفنى ولا أحد يؤوينى » فرق له ثم أردفه خلفه فخرج به فنزلوا على صاحب دير ، فقال صاحب الدير : ما هذا الغلام منك ؟ قال : ابنى ، قال : ما هو بابنك ولا ينبغى أن يكون له أب حى ، قال : لأن وجهه وجه نبى ، وعينه عين نبى ، قال : وما النبى ؟ قال الذى يوحى إليه من السماء فينبىء به أهل الأرض ، قال : الله أجل مما تقول ، قال : فاتق عليه اليهود ، ثم خرج حتى نزل براهب صاحب دير أيضا ، فقال: ماهذا الغلام منك ؟ قال : ابنى ، قال : ماهو بابنك

وما ينبغى أن يكون له أب حى ، قال : ولم ذلك ؟ قال : لأن وجهه وجه نبي وعينه عين نبي ، قال أبو طالب : سبحان الله ، الله أجل مما تقول ، وقال : يا ابن أخى ألا تسمع ما يقولون؟ قال : « أى عم لا تنكر لله قدرة » .

هذه الرواية تذكر الوسيلة التى نفذ بها رجاء محمد عليه السلام إلى قلب عمه فرق له وصحبه فى سفره ، وهى وسيلة فيها من الاستعطاف والاسترحام ما يثير العواطف ويحرك الرحمة ، وأى شىء أنفذ إلى قلب أبى طالب الذى تخيره عبد المطلب دون سائر بنيه وصيا على محمد صلى الله عليه وسلم يكفله ويرعاه من قول محمد عليه السلام « أى عم إلى من تخلفنى هنا ؟ فمالى أم تكافنى ولا أحد يؤوينى » .

وفى هذه الرواية أن أبا طالب مر براهب صاحب دير فحدثه عن ابن أخيه وذكر له أنه النبى المنتظر فسأل أبو طالب : وما النبى ؟ وأنى لأبى طالب وغطارفة قريش أن يعلموا شيئا عن النبوة والنبى وهم فى شغل من وثنيتهم المستحجرة ؟ فلما بين له الراهب معنى النبى وأنه هو الذى يوحى إليه من السماء فينبىء أهل الأرض استعظم ذلك لأنه مربوط العقل والروح بالأرض فلا يمكن له أن يعقل صلة أحد من البشر بالسماء ، وتذكر الرواية

أنه مر براهب آخر فجرى له معه مثل ماجرى مع الراهب الأول ولكنه فى هذه المرة التفت إلى ابن أخيه معجباً : يا ابن أخى ألا تسمع ما يقولون ؟ ولكن محمدا فى طفولته كان ذا قلب يفقه وعقله واسع الأفق دراك ، فقال لعمه : « أى عم لا تنكر لله قدرة » وهى كلمة العقل الذى أعده الله منذ برأه لفهم الحقائق العليا والمعانى الإلهية التى تصله فى تفكيره بعالم السماء ، وأى عجب أن يتفضل خالق السماء والأرض والإنس والجن والملائكة فيوحى بكلمته إلى من يصطفيه من خلقه رسولا يبلغها عنه إلى من يشاء ؟ بل العجب كل العجب ألا يفعل ويترك خلقه يتعبدون لأحجار لا تبصر ولا تسمع ولا تغنى عنهم من الله شيئاً ، وتفكير أبى طالب هذا وهو من سادات قريش أرجح قبيلة فى العرب ميزاناً يطلعنا على لون من حياة الجاهلية التى كان يحياها العرب قبل مشرق الإسلام ، فالجاهلية الجاهلة تعظم الله عن أن يتصل بخلقه عن طريق وحيه ولا تعظمه عن التقرب إليه بعبادة الأحجار ! هذا هو العجب يا ابن عبد المطلب ، فلا تنكر لله قدرة .

وليس فى هذه الرواية ما يفيد أنها رواية الراهب بحيرا التى تذكر فيها قصة تظليل الغمامة وغيرها من العجائب الكونية

والخوارق المعجزة، ويميل بنا الظن إلى أنها رواية مستقلة فى سفرة كانت قبل سفرة الراهب بحيرا ، ويرشح ذلك أن أبا طالب كفل رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنه ثمانى سنين ، وسفرة بحيرا تذكر رواياتها أن سن محمد عليه السلام كانت فيها اثنتى عشرة سنة ، ويبعد جداً أن يبقى أبو طالب فى مكة أربع سنوات لا يرحل فيها بتجارته وهو رجل قليل المال كثير العيال فى حاجة إلى العمل المتواصل فى تجارته ليحصل نفقات أولاده وأسرته وواجبات مكانه فى قومه ، وأيضا فإن هذه الرواية اشتملت على هذه الكلمة التى توسل بها محمد عليه السلام إلى قلب عمه ليصحبه معه ، وهى أقرب إلى أن تكون فى مبدأ كفالته له لصغر سنه ، وجدة أحزانه على جده وأمه ، أما إذا بلغ اثنتى عشرة سنة فقد اشتد عوده ومرن على العمل فتبعد أن تكون وسيلته إلى عمه هذا اللون من الاستعطاف الرقيق الرحيم : ولعل رغبة محمد عليه السلام فى سفرة الراهب بحيرا كانت لقصد مشاركته فى العمل التجارى تمريناً ومساعدة لعمه لأن سنه إذ ذاك كانت مؤهلة للمشاركة والتمرين .

لم يكن من المعهود فى حياة الناس ولا الذين أوتوا عقولا لماحة وقلوباً يقظة واعية وأرواحاً مشرقة مضيئة أن تمر بهم

أحـداث فى طريقهم ، وهم بعيدون عن الجو الطبيعى والإجتماعى الذى عاشوا بين جنباته ولا يكون لهذه الأحداث أثر فى أنفسهم خصوصا إذا كانت الأحداث تمسهم من قريب أو بعيد ، فلا بد أن سفر محمد صلى الله عليه وسلم إلى الشام كان ذا أثر فى نفسه ، فهو قد رأى قوما غير قومه وعادات غير عاداتهم ، وتفكيرا غير تفكيرهم ، وعقائد غير عقائدهم ، ومتعبدات غير متعبداتهم وأخلاقا غير أخلاقهم ، ومعيشة غير معيشتهم ، وجوا غير جوهم ، وبلادا غير بلدهم ، وجرت أحاديث وأحداث كان هو محورها وقطب دائرتها وكان محمد صلى الله عليه وسلم من الذكاء والفطانة ولقانة القلب ولطف الخلق وإشراق الروح وضياء العقل وثقوب الذهن ورجاحة التفكير بالمكان الأرفع ، فلا يمكن أن تمر به هذه الصور ثم لا تترك أثراً فى نفسه يرجع به إلى بلده ويأخذ حيزا من حياته وتفكيره ، ولكنه الأثر الذى تتسع له حياة طفل فى الثانية عشرة من عمره نشأ نشأة صقلها اليتم وهذبها كرم النحيزة وشرف الأصل وطهارة الأعراق ، وعزة المنبت ، مع رعاية الله وحفظه عن التدنس بدنس البيئة الجاهلية وأوضارها.

عاد محمد صلى الله عليه وسلم إلى مكة من رحلته وقد علم

ما تحدث به الرهبان عنه مما دعا عمه إلى الإسراع به خوفا عليه من غوائل اليهود ، فأى صورة ارتسمت فى نفس محمد صلى الله عليه وسلم لهذه الأحاديث التى تتحدث عن النبوة والوحى ، وعن هذا الغلام اليتيم الأمى الذى سيكون نبى هذه الأمة ، فما النبوة؟ وما الوحى؟ ومتى ؟ وكيف ؟ هذه أسئلة من الممكن القريب أن تكون دارت فى تفكير محمد عليه السلام وهو عائد إلى مكة ، وهو يرى أهلها يسبحون فى عمياء الوثنية الجاهلة البليدة ، وهو يعتزلهم فى أعيادهم ومواسمهم وينأى بجانبه كارها مبغضا لأصنامهم راثيا لأحوالهم متعجبا من ضلال عقولهم ، ولكن هل حظى محمد عليه السلام من داخل نفسه أو مما يحيط به من عوامل وعوالم بجواب عن هذه الأسئلة ؟ .

ليس فى حياته صلى الله عليه وسلم قبل البعثة ما يشعر بشىء سوى أنه وجه إلى لون من الحياة يملؤها الإحساس بعظمة الخالق جل شأنه والشعور بسلطان قدرته المبسوط على الوجود ، ومن هنا كان جوابه على تعجيب عمه له من أقوال الرهبان وأحاديثهم عنه وعن نبوته (أى عم لا تنكر لله قدرة) .

رعيه عليه السلام الغنم

ومن هنا أيضا كانت عزلته عن حياة قومه ، تلك الحياة الصاخبة الجوفاء ، ومن هنا كان ميله إلى الصحراء وفضائها الذى لا يتناهى ، فما أشبه هذه الصحراء فى امتدادها بالفكرة التى تملأ نفس محمد عليه السلام ، ومن هنا كان ميله إلى الهدوء تحت ظلال الأشجار أو قلل الجبال، ولكن محمدا عليه السلام شاب يستقبل الرجولية فلا بد له أن يعمل ليعيش شريفا كريما ، فحسب عمه ما يحمل من ثقل عياله وحسبه ما أسبغ عليه من حب ورعاية أبوية منذ حفظ وصية جده فيه ، فليعمل محمد صلى الله عليه وسلم بنفسه ، وليسع ليعيش من كده ، فهو شاب كريم الأخلاق قوى البنيان ، قويم السيرة ، أمين محبوب بين قومه ، كلهم يوده ويحب أن يعمل معه ، ولكن أى عمل هذا الذى يرضى هدوء محمد صلى الله عليه وسلم ؟ إنه وهو طفل فى المهد كان يخرج فى بيداء بنى سعد مع إخوته ولداته يرعون الغنم ، فما أيسر هذا العمل وما أقربه إلى نفسه ، إنه عمل يتيح له الهدوء الذى تتطلبه نفسه الكريمة ، ويتيح له المتعة بجمال الصحراء ، ويتيح له التطلع إلى مظاهر جلال الله فى عظمة الخلق ، ويتيح له مناجاة الوجود

فى هدأة الليل ، وظلال القمر ونسمات الأشجار ، ويتيح له لونا من التربية النفسية من الصبر والحلم والأناة والرأفة والرحمة والعناية بالضعيف حتى يقوى ، وزم قوى القوى حتى يستمسك الضعيف ويسير بسيره ،وارتياد مشارع الخصب والرى وتجنيب الهلكة ومواقع الخوف من كل ما لا تتيحه حياة أخرى بعيدة عن جو الصحراء وهدوئها وسياسة هذا الحيوان الأليف الضعيف وهذا لون من الحياة اختاره القدر الألهى لكل من اصطفاهم الله لرسالته فى سياسة الخلق، وتعليمهم شرائع الحياة الصالحة وأدب العبودية ومعرفة الخالق ودلائل قدرته فى صنائعه ، وقد ذكر القرآن قصة موسى عليه السلام مع بنتى الرجل الصالح وسقيه لهما أغنامهما وانتهاء القصة إلى تأجيره نفسه ثمانى حجج يرعى فيها أغنام هذا الشيخ الذى تذكر الرواية التاريخية أنه شعيب نبى الله عليه السلام ، وذكر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عددا من الأنبياء عملوا فى شبابهم رعاة للغنم ، ففى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى : عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مابعث الله نبيا إلا راعى غنم، فقال له أصحابه وأنت يا رسول الله ؟ قال : « وأنا رعيتها لأهل مكة بالقراريط» وقد أفاد محمد عليه السلام من العمل الكريم خبرة بشئون البادية

ونباتها ، فقد روى أن بعض أصحابه مر عليه بثمر الأراك فقال لهم : « عليكم بما اسود منه ، فإنى كنت أجتنيه إذ أنا راعى الغنم ، قالوا : يا رسول الله ورعيتها ؟ قال: «نعم ، ومامن نبي إلا قد رعاها » وعن جابر بن عبد الله من حديث الزهرى قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم نجنى الكباث (١) فقال : « عليكم بالأسود منه فإنه أطيبه، فإنى كنت أجنيه إذ كنت أرعى الغنم ، قلنا وكنت ترعى الغنم يا رسول الله؟ قال : «نعم ،وما من نبي إلا قد رعاها »وروى ابن سعد قال : كان بين أصحاب الغنم وبين أصحاب الإبل تنازع ، فاستطال عليهم أصحاب الأبل ، فبلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « بعث موسى عليه السلام وهو راعى غنم ، وبعث داود عليه السلام وهو راعى غنم ، وبعثت وأنا أرعى غنم أهلى بأجياد (٢) .

---

(١) الكباث : نضيج الأراك

(٢) أجياد مكان بمكة كان مخصبا .

محمد صلى الله عليه وسلم

بين أترابه

كان محمد صلى الله عليه وسلم فى طفوليته طفلا كأحسن ما يكون الأطفال ذكاء ونشاطا وطهارة نفس وصفاء قريحة وتوقد ذهن وسرعة بديهة ، وكان فى شبابه شابا كأفضل ما يكون الشباب رجاحة عقل وقوة أيد واستواء بنية ودماثة خلق ، فهو فى طفوليته كان يخرج مع إخوته من الرضاعة فى بنى سعد يلعب معهم كما يلعب الأطفال ويتحدث عن ذلك بعد بعثته فيقول « فبينما أنا ذات يوم منتبذ من أهلى فى بطن واد مع أتراب لى من الصبيان نتقاذف بيننا بالجلة إذ أتانا رهط ثلاثة » .

وعن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يلعب مع الصبيان فأتاه آت فأخذه فشق بطنه ، وكان جده عبد المطلب يقول لحاضنته بعد ما رأى وسمع تطلع أهل الكتاب إليه وأحاديثهم عنه « يا بركة لا تغفلى عن ابنى فإنى رأيته مع غلمان قريباً من السدرة ، ولما هاجر صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة رأى ملاعب طفوليته فيها فذكرها وذكر من كان يلعب

معه فيها وذكر ألوانا من اللعب والرياضة كان يطيب له ولأترابه من الفتيان والفتيات أن يتريضوا بها ، فقد روى أنه لما نظر إلى أطم بنى عدى بن النجار عرفه وقال : «كنت ألاعب أنيسة جارية من الأنصار على هذا الأطم وكنت مع غلمان من أخوالى نطير طائرا كان يقع عليه» ، وتحدث عن لون من الرياضة كان يظن ألا يعتنى بها إلا أهل الأنهار وسكان سواحل البحار ، وهى رياضة العوم والسباحة ، ولكن الفطر السليمة يحبب إليها حتى فى ألعابها كل لون محبب مفيد ، وفى ذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم متحدثا عن طفولته : «وأحسنت العوم فى بئر بنى عدى بن النجار» وكان يتحدث عن حفظ الله تعالى له فى صغره ورياضة طفولته فيقول : «لقد رأيتنى فى غلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعب الغلمان ، كلنا قد تعرى وأخذ إزاره وجعله رقبته يحمل عليه الحجارة . فإنى لأقبل معهم كذلك وأدبر إذ لكمنى لاكم لا أراه لكمة وجيعة ثم قال : شد عليك إزارك فأخذته فشددته على ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى وإزارى على من بين أصحابى» .

ولم يكن حفظ الله تعالى له عن بعض معايب الجاهلية ليصرفه

عن مشاركة لداته وأقرانه من الغلمان والأطفال مع رعاية ما يرشد إليه من الخير والأدب ، فنى هذا الحديث تراه يتحدث عن عادة شائعة بين أطفال البوادى والريف هى عادة التكشف والتعرى فى ألعابهم ورياضتهم وبعض أعمالهم ، وهى عادة تعيبها الآداب الراقية والعادات الحضرية ، وتنكرها عوارف المجتمعات الفاضلة ومحمد صلى الله عليه وسلم أرادته المقادير الإلهية ليكون فى تمام رجوليته هاديا ومرشدا ، والهداة المرشدون أكمل الناس أدبا وأرقاهم عادة وأحسنهم صنعا فطرة يفطرهم الله عليها وتأديبا يؤدبهم الله به وإعداداً صالحا يعدهم له فى منشئهم ومرباهم ، ولكنه تأديب وإعداد لا يخرجهم عن طبيعة الإنسان التى فطرهم الله عليها .

فمحمد صلى الله عليه وسلم أخذ مع أقرانه فى رياضتهم ينقل الحجارة على الصورة التى ألفها الغلمان فى البوادى والحراج وهم ألفوا التعرى ليقوا بأزرهم أجسامهم الغضة من ألم الحجارة فكانوا يضعونها على رقابهم يحملون عليها الحجارة فأرشد بما شاء الله إلى أدب اجتماعى لا يصلح أن يجرد منه الهداة المرشدون فى جميع مراحل حياتهم ، فأسرع إلى الامتثال وأخذ عليه إزاره

وأقبل على رياضته مع أترابه يحمل الحجارة على رقبته وإزاره عليه من بين أصحابه ، ولم ينفصل عنهم ويهجر لعبتهم المحببة ، بل آثر أن يبقى معهم وأن يستمر فى رياضتهم متحملا ألم حمل الحجارة دون وقاية فى سبيل التكمل بهذا الأدب الاجتماعى النبيل .

وهكذا كانت طفولة محمد صلى الله عليه وسلم طفولة مرحة محببة يحوطها الله تعالى برعايته ، ويرعاه فيها بعنايته ، فشب محفوظا من أقذار الجاهلية وشناءتها ومعايبها لما يريد الله من كرامته ورسالته .

قال ابن سعد فى الطبقات : وشب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبى طالب يكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من أمور الجاهلية ومعايبها لما يريد الله به من كرامته ، حتى بلغ أن كان رجلا أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقا ، وأكرمهم مخالطة ، وأحسنهم جوارا ، وأعظمهم حلما وأمانة ، وأصدقهم حديثا ، وأبعدهم من الفحش والأذى ، وما رئى ملاحيا ولا مماريا أحدا حتى سماه قومه الأمين لما جمع الله له من الأمور الصالحة ، وفى سيرة ابن هشام من طريق ابن إسحاق : فشب رسول الله

صلى الله عليه وسلم والله تعالى يكلؤه ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية لما يريد به من كرامته ورسالته حتى بلغ أن كان رجلا أفضل قومه مروءة وأحسنهم خلقا ، وأكرمهم حسبا ، وأحسنهم جوارا ، وأعظمهم حلما ، وأصدقهم حديثا ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التى تدنس الرجال تنزها وتكرما حتى ما اسمه فى قومه إلا الأمين لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة .

محمد صلى الله عليه وسلم
يشهد حرب كنانة وقيس
فى يوم الفجار

الحرب سنة من سنن العرب المألوفة التى قضت بها عليهم حياتهم الاجتماعية والاقتصادية فى بيئتهم الطبيعية التى وضعهم الله فيها ، وتاريخهم مشحون بالحديث عنها وتعداد أيامها التى شهرت بين قبائلها ، وأدبهم شعره ونثره مفعم بأخبارها نصرا وهزيمة شجاعة وجبنا فروسية وبطولة حتى كادت تستوعب مناحى الحياة كلها ، والمتقصى لأسباب تلك الحروب التى أستأثرت بالحياة العربية وشغلت العرب فى جزيرتهم بأنفسهم يجد فى كثرتها توافه ما كانت تستأهل أن تكون دوافع إلى تسعير نيران قتال تأكل الرجال أكلا وتشرد الأطفال وترمل النساء وتذل الأعزاء وتفزع الآمنين ، ولكنها الطبيعة والفراغ والحاجة

هى التى تقف من وراء توافه الأمور فتذكيها نارا تلتهب ، بيد أن أياما من أيام تلك الحروب كانت أسبابها تتصل بالكرامة القومية أو الدفاع عن النفس فكانت جديرة أن تثبت فى تاريخ العرب لتسجل لهذا الشعب الكريم طبيعة من طبائعه الغلابة ، تلك هى طبيعة الأنفة عن قبول الضيم والتسامى عن الرضا بالذل كالذى نقرؤه فى دواعى حرب ربيعة وبكر التى بدأت بقتل كليب سيد ربيعة فى ناقة البسوس خالة جساس بن مرة ، فإنه كان يكمن وراء ذلك استذلال كليب لبنى عمومتهم من البكريين حتى أمتلأت قلوبهم ولا سيما شبابهم بالضغينة والغيظ المحنق ، فكان هذا الحادث التافه الصغير منفذا إلى تلك العظائم المدمرة والحروب المستعرة ردا على كبرياء ربيعة فى بطر كليبها وبأوه ، وكالذى نقرأ فى دوافع قتل حجر ملك كندة وأبى امرىء القيس الشاعر ، فقد روى التاريخ من تعاليه واسبطراره على بنى أسد ما أحرق أكبادهم غيظا فانتقموا بقتله لكرامتهم وشرفهم ، واستعرت بين أسد وكندة حروب أفنت العديد من القبيلتين .

ومن هذا القبيل يوم فجار قيس وكنانة الذى شهده محمد صلى الله عليه وسلم فى شبابه مع عمومته فقد قيل فى سببه أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة كان قد تعود إرسال لطيمة (نوافج المسك) إلى سوق عكاظ لتباع هناك وكان يتخذ لخفارتها فى طريقها على أحياء العرب رجلا من رجالات العرب مرهوب السلطان. وكان عنده فى مجلسه يومئذ البراض بن قيس الكنانى - وكان رجلا فاتكا خليعا قد خلعه قومه لكثرة شره - وعروة بن عتبة بن جعفر بن كلاب القيسى المعروف بالرحال ، فقال النعمان : من يجير لى لطيمتى هذه حتى يبلغها عكاظ ، فقال البراض : أبيت اللعن أنا أجيرها على كنانة فقال النعمان : إنما أريد من يجيرها على كنانة وقيس ، فقال عروة : أكلب خايع يجيرها لك على أهل الشيح والقيصوم من أهل تهامة وأهل نجد ، فغضب البراض وقال : وعلى كنانة تجيرها ياعروة ؟ قال عروة : وعلى الناس ، كلهم فدفع النعمان لطيمته إلى عروة الرحال وأمره بالمسير بها فتبعه البراض وتحين غفلته فقتله ، واستاق العير إلى عكاظ، وفى طريقه لقى بشر بن أبى خازم الأسدى الشاعر وأمره أن يلقى بالخبر إلى عبد الله بن جدعان وحرب بن أمية فى جماعة من رؤوس كنانة فأخبرهم فخرجوا موائلين منكشفين إلى الحرم بعد أن ألقوا إلى سيد قيس البراء

ابن مالك ملاعب الأسنة بخدعة حتى لا يستوحش هو وقومه وأهل السوق من خروجهم المفاجىء ، فلما فشا الخبر واستيقنه قيس قال البراء : ما كنا من قريش إلا فى خدعة وخرجت قيس فى آثار كنانة فأدركوهم وقد دخلوا الحرم فلم يقع بينهم هذا العام قتال ، وقيل : بل ادركوهم قبل الحرم فاقتتلوا حتى دخلت كنانة الحرم مع الليل فحجز ذلك بينهم وتواعدوا إلى مثل هذه الأيام من العام المقبل ، وأخذ كل فريق يجمع جموعه وفرقت قريش السلاح فى كنانة وحلفائها من الأحابيش وخرجوا للموعد على كل بطن منهم قائد ، وكان على بنى هاشم الزبير بن عبد المطلب ، وإخوته أبو طالب وحمزة والعباس ومعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت سنه فيما يرويه ابن هشام عن أبى عبيدة وأبى عمرو بن العلاء خمس عشرة سنة ، وفيما يرويه ابن اسحاق وابن سعد عشرين سنة ولعل هذا الاختلاف منظور فيه إلى بداءة الحرب ونهايتها لأنها كما يقول المؤرخون مكثت أعواما ، فقد تكون سنه عند بداءتها خمس عشرة سنة وبذلك أخذ ابن اسحاق ، وتكون سنه عند نهايتها بالصلح بين الفريقين عشرين سنة وبذلك أخذ رواة ابن سعد ؛ وقد كانت الجولة الأولى لقيس على كنانة ؛ ثم عادت إلى كنانة فأسرفت فى القتل من قيس وقتلوهم قتلا ذريعا

حتى نادى عتبة بن ربيعة وهو يومئذ شاب ما كملت له ثلاثون سنة إلى الصلح فاصطلحوا على أن تدى قريش ما قتلت فضلا عن قتلى قيس ووضعت الحرب أوزارها .

وقد تحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شهوده الحرب فى يوم الفجار . قال ابن هشام : وشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أيامهم ؛ أخرجه أعمامه معهم ؛ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كنت أنبل على أعمامى » أى أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها ؛ وهذا الموقف يناسب ما ذكر فى سنه باعتبار بداءة الحرب؛ وقد روى ابن سعد أنه صلى الله عليه وسلم رمى فيها بأسهم ، وهذا يلائم ما ذكر من سنه فقد ذكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال وهو يذكر الفجار « قد حضرته مع عمومتى ورميت فيه بأسهم وما أحب أنى لم أكن فعلت » .

محمد صلى الله عليه وسلم
يشهد حلف الفضول

كان حلف الفضول أكرم حلف سمع به فى الجاهلية وأشرفه فى العرب ، وكان بعد الفجار بأشهر وأول من دعا إليه وقام بأمره الزبير بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان سببه أن رجلا من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص ابن وائل فحبس عنه حقه ، فاستعدى عليه الزبيدى الأحلاف : عبد الدار ومخزوما وجمحا وسهما ، فأبوا أن يعينوا على العاص ابن وائل وانتهروا الرجل الزبيدى ، فلما رأى منهم الشر أوفى على أبى قبيس عند طلوع الشمس - وقريش فى أنديتهم حول الكعبة .

فنادى بأعلى صوته :

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نائى الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته ... يا للرجال وبين الحجر والحجر
إن الحرام لمن تمت كرامته ... ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فقام الزبير بن عبد المطلب وقال : ما لهذا مترك ،فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة فى دار عبد الله بن جدعان فصنع لهم طعاما ، وتحالفوا فى ذى القعدة فى شهر حرام فتعاقدوا وتحالفوا بالله ليكونن يدا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى إليه حقه ما بل بحر صوفه ومارسا ثبير وحراء مكانهما ، وعلى التآسى فى المعاش ، فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول ، وقالوا: لقد دخل هؤلاء فى فضل من الأمر ، ثم مشوا إلى العاص ابن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدى ، فدفعوها إليه ، وفى ذلك يقول الزبير بن عبد المطلب .

حلفت لنعقدن حلفا عليهم وإن كنا جميعا أهل دار
نسميه الفضول إذا عقدنا يعزبه الغريب لذى الجوار
ويعلم من حوالى البيت أنا أباة الضيم تمنع كل عار

ويقول أيضا :

إن الفضول تعاقدوا وتحالفوا ألا يقيم ببطن مكة ظالم
أمر عليه تعاقدوا وتواثقوا فالجار والمعتر فيهم سالم

وقد شهد النبى صلى الله عليه وسلم هذا الحلف وسنه عشرون سنة ، وأثنى عليه حين ذكره فى الإسلام فقال فيما يرويه الواقدى

عن جبير بن مطعم « ما أحب أن لى بحلف حضرته بدار ابن جدعان حمر النعم،وأنى أغدر به : هاشم وزهرة وتيم تحالفوا أن يكونوا مع المظلوم مابل بحر صوفه ولو دعيت به لأجبت ، وهو حلف الفضول ، وروى ابن كثير من طريق الحميدى عن سفيان بن عيينة عن عبد الله عن محمد وعبد الرحمن ابنى أبى بكرة قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا لو دعيت به فى الإسلام لأجبت ، تحالفوا أن يردوا الفضول على أهلها و لا يعز [1] ظالم مظلوما » وقد بقى أثر هذا الحلف فى الإسلام وتداعى به الحسين بن على وعبد الله بن الزبير والمسور بن مخرمة،روى ابن هشام عن محمد ابن اسحاق أنه قال : كان بين الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما وبين الوليد بن عتبة بن أبى سفيان ـ والوليد يومئذ أمير على المدينة ، أمره عليها عمه معاوية بن أبى سفيان ـ منازعة فى مال كان بينهما بذى المروة ، فكأن الوليد تحامل على الحسين فى حقه لسلطانه ، فقال له حسين : احلف بالله لتنصفنى من حقى أو لآخذن سيفى ثم لأقومن فى مسجد رسول الله

---

(١) يعز : يغلب ، ومنه المثل : من عزيز ، أى من غلب سلب .

صلى الله عليه وسلم ، ثم لأدعون بحلف الفضول ، فقال عبد الله بن الزبير وهو عند الوليد حين قال حسين ما قال : وأنا أحلف بالله لئن دعا به لآخذن سيفي ثم لأقومن معه حتى ينصف من حقه أو نموت جميعا، وبلغت المسور بن مخرمة بن نوفل الزهري فقال مثل ذلك ، وبلغت عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي فقال مثل ذلك ، فلما بلغ ذلك الوليد بن عتبة أنصف الحسين من حقه حتى رضي » .

محمد صلى الله عليه وسلم يعمل فى بناء الكعبة

الناظر إلى موضع الكعبة المشرفة من مكة المكرمة ، يراها فى مطمئن من الأرض تحيط بها الجبال من كل جانب مما جعلها فى الأزمنة الغابرة قبل أن يعمر ما حوالها بالبيوت والمساكن ومشيد البنيان عرضة لجوارف السيل ، وقد حذرت قريش عواقب ذلك وخافت على البيت أن تهدمه السيول فأقامت ردما من حوله جعلوه مطلا على البيت لحمايته ، فكانت السيول تأتى من فوق هذا الردم حتى كادت تزيله وكانت تعلوه حتى تدخل البيت فتصدع وخافوا أن ينهدم ، وكانت أبواب البيت لاطئة بالأرض فسرقت خزائنه وهداياه التى كانت تهدى إليه فتلق فى بئر بداخله فاجتمعت قريش وقالوا : لو بنينا بيت ربنا ، وكان البيت شرفهم وعزهم فقسموه أرباعا واقترعوا عليه ، فوقع لبنى عبد مناف وزهرة ما بين الركن الأسود إلى ركن الحجر ووقع لتيم ومخزوم ما بين ركن الحجر إلى الركن اليمانى ، ووقع لسهم وجمح وعدى وعامر بن لؤى ما بين الركن اليمانى إلى الركن الأسود ، وقد شجعهم على بنائه أن سفينة مشحونة بمواد البناء

من الرخام والخشب والحديد كان قيصر ملك الروم سرحها مع رجل رومى يقال له باقوم إلى بلاد الحبشة لبناء كنيستها التى أحرقها الفرس فلما بلغت الشعيبة وكانت مرفأ السفن قبل جدة لعبت بها العواصف فحطمتها ، وتسامعت بها قريش فابتاعوا ما فيها ، وكلموا باقوم فقدم معهم إلى مكة ، ولما أجمعوا أمرهم على هدم الكعبة وبنيانها قام فيهم أبو وهب عمرو بن عابد بن عبد بن عمران بن مخزوم ، وهو خال أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رجلا شريفاً ممدحا فقال لهم : يا معشر قريش لا تدخلوا فى بنيانها من كسبكم إلا طيباً ، لا يدخل فيها مهر بغى ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس ، ثم أخذوا فى البناء على مواضعهم ، فلما انتهوا إلى حيث يوضع الركن الأسود من البيت قالت كل قبيلة : نحن أحق بوضعه ، واختلفوا حتى خافوا القتال ثم جعلوا بينهم حكما أول من يدخل من باب بنى شيبة فيكون هو الذى يقضى بينهم ؛ فكان أول داخل عليهم من ذلك الباب محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم فلما رأوه قالوا : هذا الأمين قد رضينا بما يقضى بيننا ؛ ثم أخبروه الخبر ؛ فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم رداءه وبسطه فى الأرض ثم وضع الحجر فيه ثم قال : ليأت من كل ربع من أرباع قريش رجل فكان فى ربع

بنى عبد مناف عتبة بن ربيعة وكان فى الربع الثانى أبو زمعة ؛ وكان فى الربع الثالث أبو حذيفة بن المغيرة ؛ وكان فى الربع الرابع قيس بن عدى ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليأخذ كل رجل منكم بزاوية من زوايا الثوب ثم ارفعوه جميعاً ؛ فرفعوه ثم وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فى موضعه. قال ابن سعد : فذهب رجل من أهل نجد ليناول النبى صلى الله عليه وسلم حجراً يشد به الركن ؛ فقال العباس بن عبد المطلب : لا ، ونحاه وناول العباس رسول الله صلى الله عليه وسلم حجرا فشد به الركن ؛ فغضب النجدى حيث نحى فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إنه ليس يبنى معنا فى البيت إلا منا . فقال النجدى: يا عجبا لقوم أهل شرف وعقول وسن وأموال عمدوا إلى أصغرهم سناً وأقلهم مالا فرأسوه عليهم فى مكرمتهم وحرزهم كأنهم خدم له ؛ أما والله ليفوتنهم سبقاً وليقسمن بينهم حظوظا وجدوداً .

وقد بنت قريش البيت على أسسه التى هو عليها اليـــوم ؛ وأخرجت منه الحجر قريباً من سبعة أذرع ؛ وكان داخلا فيه على قواعد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ؛ فلما قصرت النفقة بقريش تركوا منه ما تركوا ؛ روى الواقدى فيما ذكره عنه تلميذه محمد بن سعد عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن قومك استقصروا من بنيان الكعبة ، ولولا حداثة عهدهم بالشرك أعدت فيه ما تركوا منه ، فإن بدا لقومك من بعدى أن يبنوه فهلم أريك ما تركوا منه ، فأراها قريباً من سبعة أذرع فى الحجر ثم قالت عائشة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديثه : « ولجعلت لها بابين موضوعين فى الأرض شرقياً وغربياً ، أتدرين لم كان قومك رفعوا بابها ؟ » فقلت له لا أدرى ، قال : « تعززا ألا يدخلها إلا من أرادوا » قال الواقدى : حدثنى عبد الله بن يزيد الهذلى عن سعيد بن عمر عن أبيه قال : رأيت قريشاً يفتحون البيت فى الجاهلية يوم الاثنين ويوم الخميس ، فكان حجابه يجلسون على بابه فيرقى الرجل فإذا كانوا لا يريدون دخوله دفع فطرح فربما عطب . وقال ابن كثير فى البداية : وقد كانوا أخرجوا منها الحجر — وهو ستة أذرع أو سبعة أذرع من ناحية الشام — قصرت بهم النفقة ، أى لم يتمكنوا أن يبنوه على قواعد إبراهيم ، وجعلوا للكعبة بابا واحداً من ناحية الشرق وجعلوه مرتفعاً لئلا يدخل إليها كل أحد فيدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا وقد ثبت فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها : « ألم ترى أن قومك قصرت بهم النفقة

ولولا حدثان قومك يكفر لنقضت الكعبة وجعلت لها بابا شرقياً وبابا غربياً ، وأدخلت فيها الحجر ، ولهذا لما تمكن ابن الزبير بناها على ما أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاءت فى غاية البهاء والحسن كاملة على قواعد الخليل ، لها بابان ملتصقان بالأرض شرقياً وغربياً ، يدخل الناس من باب ويخرجون من الآخر ، فلما قتل الحجاج ابن الزبير كتب إلى عبد الملك بن مروان — وهو الخليفة يومئذ — فيما صنعه ابن الزبير واعتقدوا أنه فعل ذلك من تلقاء نفسه ، فأمر بإعادتها إلى ما كانت عليه ، فعمدوا إلى الحائط الشامى فحصوه فأخرجوا منه الحجر ورصوا حجارته فى أرض الكعبة فارتفع بابها وسدوا الغربى واستمر الشرقى على ما كان عليه ، فلما كان زمن المهدى — أو أبيه المنصور — استشار مالكا فى إعادتها على ما كان صنعه ابن الزبير فقال مالك رحمه الله : إنى أكره أن يتخذها الملوك ملعبة ، فتركها على ما هى عليه ، فهى إلى الآن كذلك . قلت : وهى فى هذه الأوصاف والنعوت التى ذكرها باقية إلى يومنا هذا سنة ١٣٧١ هجرية — حيث متعنا الله بالنظر إليها فى حجتنا الفريضة — زادها الله شرفا وهيبة وجلالا .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل فى بنائها مع

عمومته ، وينقل الحجارة إليها ، روى البخارى ومسلم من حديث عبد الرزاق عن عمرو بن دينار عن جابر بن عبد الله يقول : لما بنيت الكعبة ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل الحجارة فقال العباس لرسول الله صلى الله عليه وسلم : اجعل إزارك على عاتقك من الحجارة ففعل فخر على الأرض وطمحت عيناه إلى السماء ، ثم قام فقال : « إزارى » فشد عليه إزاره . وروى البيهقى عن عكرمة قال : حدثنى ابن عباس عن أبيه أنه كان ينقل الحجارة إلى البيت حين بنت قريش البيت ، قال العباس : وأفردت قريش رجلين رجلين ، الرجال ينقلون الحجارة وكانت النساء تنقل الشيد فكنت أنا وابن أخى وكنا نحمل على رقابنا وأزرنا تحت الحجارة فإذا غشينا الناس اتزرنا ، فبينما أنا أمشى ومحمد أمامى خر منبطحا على وجهه فجئت أسعى وألقيت حجرى وهو ينظر إلى السماء ، فقلت : ما شأنك ؟ فقام وأخذ إزاره فقال : « إنى نهيت أن أمشى عريانا » وكنت أكتمها من الناس مخافة أن يقولوا مجنون ، ولما رآه عمه أبو طالب يلبس إزاره قال له : يا ابن أخى اجعل إزارك على رأسك فقال : « ما أصابنى ما أصابنى إلا من التعرى » .

وقد اختلفت الروايات فى سن رسول صلى الله عليه وسلم

يوم أن بنت قريش الكعبة ، فذهب محمد بن اسحاق إلى أنه كان قد بلغ خمسا وثلاثين سنة ، وذلك بعد الفجار بخمس عشرة سنة، وكان الفجار بعد الفيل بعشرين سنة وفى عام الفيل ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلى رأى ابن اسحاق جنح جمهور المؤرخين ومؤلفى السير والمغازى وذهب مجاهد وعروة وجبير بن مطعم إلى أن سن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت حين بنت قريش الكعبة خمسا وعشرين سنة ، لأنهم ذكروا أن بناء الكعبة كان قبل المبعث بخمس عشرة سنة ، وكان مبعثه صلى الله عليه وسلم على رأس أربعين سنة من عمره ، ولعل البيهقى فى ذكره بناء الكعبة قبل تزويج خديجة مال إلى قول مجاهد ومن معه فى وقوع بناء الكعبة سنة التزوج بخديجة ، هذا فى أول العام وذاك فى آخره.

محمد صلى الله عليه وسلم

يتسامى عن دنس الجاهلية

لو أن قلما عبقرياً تتبع حياة محمد صلى الله عليه وسلم منذ ولادته إلى أن بعثه الله رحمة للعالمين ليضعها فى إطار يجمع بين ألوانها ويوحد بين أحداثها وحوادثها لأخرج للحياة صورة إنسانية فطرية تمثل محمدا صلى الله عليه وسلم وقد ولدته أمه يتيما تلقته بادية هوازن فى بنى سعد رضيعا وفطيما وغلاما ناشئا يخرج مع إخوته وأخواته يلعبون وراء بيوت الحى ويرتادون لأغنام قومهم المراعى ومشارع الماء وظلال الشجر ، وفى هذه البادية الطلقة ينشأ على فصاحة البيان ورصانة المنطق وخصائص التعرب مما تمدح به فى رجولتيه فقال لأصحابه : « أنا أعربكم ، أنا من قريش ، ولسانى لسان بنى سعد بن بكر » .

وترده البادية إلى مكة فيجد أمه وحيدة حزينة ، ولكنها تجده غلاما يسامى الفتيان فى شبابه فيملأ سمعها وبصرها

ويستحوذ على فراغ قلبها ويسرى عنها أحزانها وتحدثه عن أبيه ويغلبها الشوق لزيارة قبره فتتحمل به مع حاضنته إلى مثوى أبيه بيثرب ، وهنالك ينفسح له مجال الطفولة فيلعب مع لداته وأترابه فى ملاعب يذكرها بعد أن صارت يثرب المدينة المنورة بهجرته وهجرة أصحابه ونصرة أهلها لدعوته ورسالته ، ويتحدث عن تلك الملاعب حديث الغبطة والتحبب ، ويراه يهود يثرب مع حاضنته فيلحظونه ، ويطوفون حوله ويتحدثون عنه ، ويبلغ حديثهم مسامع أمه فتتخشاهم عليه وهى به غريبة عن بلدها وبلده وأهلها وأهله ، فتسرع عائدة به إلى مكة ، وفى طريق عودتها يشهد محمد عليه السلام مرضها ووفاتها ويواريها قبرها ويرجع مع حاضنته الوفية الأمينة وحيداً بلا أم تكفله ولا أب يؤويه . ويتلقاه جده عطوفا كريماً فيرعاه ويكفله حتى إذا بلغ ثمانى سنين شهد موت هذا الجد العطوف ، فبكى خلف سريره وهو يشيعه إلى مقره الأبدى ، وعاد ليجد عمه صنو أبيه وشقيقه أبا طالب يفتح له ذراعيه ليضمه إلى صدره ويكون له نعم الكافل الحبيب وفى هذه الكفالة ومحمد صلى الله عليه وسلم شاب فى مهد الشباب يتهج أمثاله بالأعياد والمحافل والمواسم وما يجرى فيها من مراسم

وعادات وأساطير وخرافات وألعاب وسخافات تمثل العقيدة والأخلاق ومألوف العرف ومنحدر الوراثة لحظ أعمامه وعماته عليه انطواء عن أعيادهم ومحافلهم ومراسم عقائدهم وطقوس عباداتهم ، ورأوا فيه بغضه لآلهتهم وتجافيا عن تقديسها كما يقدسونها ، فهو لا يطوف بها ولا يتمسح، ولا يتبرك بها ولا يقرب إليها ، مع أنهم يرونه مع أترابه من الغلمان يلعبون ويمرحون بعيدا عن أعيادهم ومواسمهم ، فحذروه فى ذلك حتى رؤى الغضب فى وجه عمه ومحبه وكافله أبى طالب ، وغضب عليه عماته غضبا شديدا فعاتبنه حتى حملنه على المشقة والعنت ، روى ابن سعد فى الطبقات من طريق شيخه الواقدى عن عكرمة عن ابن عباس قال : حدثتنى أم أيمن قالت : كانت بوانة صنما تحضره قريش تعظمه ، تنسك له النسائك ويحلقون رؤوسهم عنده يوما إلى الليل ، وذلك يوما فى السنة ، وكان أبو طالب يحضره مع قومه ، وكان يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحضر ذلك العيد مع قومه فيأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك حتى رأيت أباطالب غضب عليه ورأيت عماته غضبن عليه يومئذ أشد الغضب ، وجعلن يقلن : إنا لنخاف عليك مما تصنع من

اجتناب آلهتنا ، وجعلن يقلن : ماتريد يامحمد أن تحضر لقومك عيدا ولا تكثر لهم جمعا ، قالت أم أيمن : فلم يزالوا به حتى ذهب فغاب عنهم ما شاء الله ؛ ثم رجع إلينا مرعوبا فزعا . فقال له عماته : مادهاك ؟ قال : « إنى أخشى أن يكون بى لمم » فقلن : ما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير مافيك فما الذى رأيت ؟ قال : « رأيت أنى كلما دنوت من صنم منها تمثل لى رجل أبيض طويل يصيح بى : وراءك يامحمد . لا تمسه » قالت أم ايمن : فما عاد إلى عيد لهم حتى تنبأ .

وقد قدمنا فى قصة بحيرا الراهب أنه لما رأى قريشا تحلف باللات والعزى سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم بهما فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تسألنى باللات والعزى شيئا ، فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما » وكذلك قدمنا قصة تعريه لنقل الحجارة لبعض ما يلعب به الغلمان وأنه لكم لكمة وجيعة ليشد عليه ازاره . وحديث البخارى فى بناء الكعبة وتعريه مع عمه العباس لنقل الحجارة فلبط به فلما قام شد عليه إزاره . فقال له عمه : ما شأنك ؟ فقال : « إنى نهيت أن أمشى عريانا » وروى البيهقى عن زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

كان صنم من نحاس يقال له أساف ونائلة يتمسح به المشركون إذا طافوا ، فطاف رسول الله صلى الله عليه وسلم (أى بالكعبة) وطفت معه فلما مررت مسحت به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تمسه » قال زيد : فطفنا فقلت فى نفسى لأمسنه حتى أنظر ما يكون ، فمسحته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألم تنه » قال زيد : فــو الذى أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلم صنما قط حتى أكرمه الله تعالى بالذى أكرمه وأنزل عليه .

وقد حفظه الله تعالى فى شبابه من نزعات الشباب ودواعيه البريئة التى تنزع إليها الشبوبية بطبعها ، ولكن لا تلائم وقار الهداة وجلال المرشدين . روى ابن إسحاق والبيهقى والطبرى عن محمد ابن الحنفية عن أبيه على بن أبى طالب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما هممت بشىء مما كان أهل الجاهلية يهمون به إلا ليلتين ، كلتا هما عصمنى الله عز وجل فيهما . قلت ليلة لبعض فتيان مكة - ونحن فى رعاء غنم أهلها - فقلت لصاحبى : أبصر لى غنمى حتى أدخل مكة أسمر فيها كما

يسمر الفتيان فقال : بلى ! فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفا بالغرابيل والمزامير ، فقلت : ما هذا ؟ قالوا : تزوج فلان فلانة ، فجلست أنظر ، فضرب الله على أذنى فو الله ما أيقظنى إلا مس الشمس فرجعت إلى صاحبى ، فقال : ما فعلت ، فقلت : ما فعلت شيئا ، ثم أخبرته بالذى رأيت ، ثم قلت له ليلة أخرى : أبصر لى غنمى حتى أسمر ففعل فدخلت فلما جئت مكة سمعت مثل الذى سمعت تلك الليلة ، فسألت فقيل نكح فلان فلانة ، فجلست أنظر فضرب الله على أذنى ، فو الله ما أيقظنى إلا مس الشمس فرجعت إلى صاحبى فقال : ما فعلت ؟ فقلت : لا شيء ، ثم أخبرته الخبر ، فو الله ما هممت ولا عدت بعدهما لشيء من ذلك حتى أكرمنى الله عز وجل بنبوته ، ومن حديث رواه أبو نعيم : إن العباس بن عبد المطلب خرج فى تجارة إلى اليمن فى ركب فيهم أبو سفيان بن حرب ، وكان أبو سفيان يجلس إلى حبر من اليهود ، فسأله الحبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يشفه أبو سفيان ، قال العباس : فنادى الحبر فجئت فخرجت حتى جلست ذلك المجلس من الغد ، وفيه أبو سفيان بن حرب والحبر ، فقلت للحبر :

بلغنى أنك سألت ابن عمى عن رجل منا زعم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبرك أنه عمه ، وليس بعمه ولكن ابن عمه ، وأنا عمه وأخو أبيه ، قال : أخو أبيه ؟ فأقبل على أبي سفيان فقال : صدق ؟ قال نعم صدق ، فقلت : سانى ، فإن كذبت فيرد على ، فأقبل على فقال : نشدتك هل كان لابن أخيك صبوة أو سفهة ؟ قالت : لا ، وإله عبدالمطلب ، ولا كذب ولا خان ، وأنه كان اسمه عند قريش الأمين .

ولما خرج محمد صلى الله عليه وسلم فى مال خديجة ليتجر لها حضر سوق بصرى فباع سلعته التى خرج بها واشترى غيرها فكان بينه وبين رجل اختلاف فى شىء ، فقال له الرجل احلف باللات والعزى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما حلفت بهما قط وإنى لأمر فأعرض عنهما » فصدقه الرجل وقال : القول قولك . وروى ابن سعد عن الربيع بن خيثم قال : كان يتحاكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الجاهلية ثم اختص فى الإسلام

وكان صلى الله عليه وسلم مع تساميه عن دنس الجاهلية

ومعايبها يشارك قومه في أعمال الخير والمكرمات ، وقد سمعت قوله في حرب الفجار التي شهدها مع عمومته ، وقوله في حلف الفضول الذي شهده في دار ابن جدعان مع أشراف قريش ، وسمعت روايات التاريخ وصحيح الأحاديث في عمله في بناء الكعبة .

وكان صلى الله عليه وسلم كلما تقدمت به سنه واقترب من كمال الرجولية ورأى ما عليه قومه من ضلالة الوثنية زاد انطواء على نفسه وفر من المجتمعات إلى الانفراد والعزلة كراهة لحياتهم وفرارا من أقذارهم وسقطاتهم ، قال ابن كثير : وإنما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الخلاء والانفراد عن قومه لما يراهم عليه من الضلال المبين من عبادة الأوثان والسجود للأصنام ، وقويت محبته للخلوة عند مقاربة إيحاء الله إليه صلوات الله وسلامه عليه ، وقال ابن إسحاق عن بعض أهل العلم : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج إلى حراء في كل عام شهرا من السنة يتنسك فيه - وكان من نسك قريش في الجاهلية ، يطعم من جاءه من المساكين حتى إذا انصرف من مجاورته لم يدخل بيته حتى يطوف بالكعبة .

وهكذا كانت نشأة محمد صلى الله عليه وسلم منذ ولدته أمه إلى أن بعثه الله رحمة للعالمين أكمل نشأة ، تولاه الله تعالى فأدبه ، ورباه فكمله ، ورعاه فحفظه مما كان يغمر حياة قومه من وثنية وعادات مسترذلة حتى غدا أكمل إنسان ، لم يستطع أحد أن يريبه فى حياته أو يزن شبابه بغميزة أو ريبة على كثرة الخصوم والأعداء والمتربصين فضلا من الله ونعمة والله ذو الفضل العظيم .

محمد صلى الله عليه وسلم
يتجر فى مال خديجة

تختلف الروايات هل خرج محمد صلى الله عليه وسلم إلى الشام تاجراً بعد خروجه مع عمه أبى طالب فى سفرة بحيرا الراهب وقبل خروجه عاملا فى مال خديجة بنت خويلد . فقد أخرج ابن منده عن ابن عباس أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه صحب النبى صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثمان عشرة سنة والنبى صلى الله عليه وسلم ابن عشرين سنة ، وهم يريدون الشام فى تجارة حتى نزل منزلا فيه سدرة فقعد فى ظلها وذهب أبو بكر إلى راهب يقال له بحيرا يسأله عن شىء فقال له : من الرجل الذى فى ظل الشجرة ؟ فقال له : محمد بن عبد الله بن عبدالمطلب قال : هذا والله نبى . ما استظل تحت ظلها بعد عيسى إلا محمد صلى الله عليه وسلم ووقع فى قلب أبى بكر الصديق فلما بعث النبى صلى الله عليه وسلم اتبعه . قال ابن حجر فى الاصابة :

إن صحت هذه القصة فهي سفرة أخرى بعد سفرة أبي طالب . وقد ضعف القسطلاني سند هذه الرواية . وضعف السند لا يلزمه انتفاء القصة . ونحن نميل إلى أنها سفرة أخرى بعد سفرة أبي طالب التي كانت فيها سن النبي صلى الله عليه وسلم اثنتي عشر سنة . والجمهور على أن أبا بكر الصديق لم يكن في تلك السفرة . وقد أجزنا وجوده فيها ولم نستبعده . أخذا برواية الترمذي المتقدمة ، أما هذه السفرة فقد كانت فيها سن النبي صلى الله عليه وسلم عشرين سنة . ولم يذكر فيها أبو طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر فيها ابو بكر . فالظاهر أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج في هذه السفرة مستقلا يتجر لنفسه وكان يصحبه فيها أبو بكر مع من كان في العير من تجار قريش . وكان قبلها منذ عاد به عمه أبو طالب من سفرة بحيرا مقيما بمكة يشتغل برعي الغنم ويشهد مع عمومته حلف الفضول وحرب الفجار . فلما بلغ عمره عشرين سنة خرج في هذه السفرة مع عير قومه ليشتغل بالتجارة . ولعل هذه السفرة هي التمهيد الذي وجه خديجة إلى رغبتها في رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتجر لها بمالها مع ما عرف به من الأمانة والصدق والعفة

والسمو فى الأخلاق . روى الطبرى وابن هشام وابن كثير عن ابن إسحاق قال : كانت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال فى مالها وتضاربهم إياه بشىء تجعله لهم منه . وكانت قريش قوما تجارا فلما بلغها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج فى مالها إلى الشام تاجرا وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار مع غلام لها يقال له ميسرة . فقبله منها رسول الله صلى الله عليه وسلم . فخرج فى مالها ذلك وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدما الشام فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ظل شجرة قريبا من صومعة راهب من الرهبان فأطلع الراهب رأسه إلى ميسرة فقال : من هذا الرجل الذى نزل تحت هذه الشجرة ؟ فقال له ميسرة : هذا رجل من قريش ، من أهل الحرم . فقال له الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبى . ثم باع رسول الله صلى الله عليه وسلم سلعته التى خرج بها واشترى ما أراد ان يشترى ثم أقبل قافلا إلى مكة ومعه ميسرة . فكان ميسرة — فيما يزعمون —

إذا كانت الهاجرة واشتد الحر يرى ملكين يظلانه من الشمس وهو يسير على بعيره فلما قدم مكة على خديجة بمالها باعت ماجاء به فأضعفت أو قريبا من ذلك وحدثها ميسرة عن قول الراهب وعما كان يرى من إظلال الملكين .

هذه الرواية تفيد أن خديجة هى التى رغبت فى استئجار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى التى طلبت إليه ذلك لما سمعته عن صفاته النبيلة وأخلاقه الحميدة ، وتخالفها فى ذلك رواية الواقدى عن نفيسة بنت منبه ، وهى عند ابن سيد الناس أتم سياقا وأحسن مساقا قالت : لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين سنة ، وليس له بمكة اسم إلا الأمين لما تكاملت فيه خصال الخير . قال له أبو طالب : يا ابن أخى أنا رجل لا مال لى وقد اشتد الزمان علينا وألحت علينا سنون منكرة وليس لنا مادة ولا تجارة ، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام ، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالا من قومك فى عيراتها فيتجرون لها فى مالها ويصيبون منافع ، فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك وفضلتك على غيرك لما يبلغها عنك من طهارتك . وإن كنت لأكره أن تأتى الشام وأخاف عليك من يهود ولكن لا نجد من ذلك بدا ،

وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال كثير وتجارة تبعث بها إلى الشام فتكون عيرها كعامة عير قريش وكانت تستأجر الرجال، وتدفع إليهم المال مضاربة وكانت قريش قوما تجارا ومن لم يكن تاجرا من قريش فليس عندهم بشيء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فلعلها ترسل إلى فى ذلك) فقال أبو طالب: إنى أخاف أن تولى غيرك فتطلب أمرا مدبرا، وبلغ خديجة ما كان من محاورة عمه له، وقبل ذلك ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه، فقالت: ما علمت أنه يريد هذا، ثم أرسلت إليه، فقالت: إنه دعانى إلى البعثة إليك ما بلغنى من صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك وأنا أعطيك ضعف ما أعطى رجلا من قومك ففعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقى أبا طالب فذكر له ذلك، فقال إن هذا لرزق ساقه الله إليك، فخرج مع غلامها ميسرة حتى قدم الشام فنزلا فى سوق بصرى فى ظل شجرة قريبا من صومعة راهب يقال له «نسطورا» فاطلع الراهب إلى ميسرة - وكان يعرفه - فقال ياميسرة من هذا الذى نزل تحت هذه الشجرة؟ فقال ميسرة: رجل من قريش من أهل الحرم فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبى، ثم قال له: فى عينيه حمرة؟ قال ميسرة: نعم لا تفارقه.

قال الراهب : هو هو وهو آخر الأنبياء ، وياليت أنى أدركه حين يؤمر بالخروج ، فوعى ذلك ميسرة ، ثم حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم سوق بصرى فباع سلعته التى خرج بها واشترى فكان بينه وبين رجل اختلاف فى سلعة ، فقال الرجل : أحلف باللات والعزى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ماحلفت بهما قط وإنى لأمر فأعرض عنهما » فقال الرجل : القول قولك ؛ ثم قال لميسرة وخلا به : يا ميسرة هذا نبى، تجده أحبارنا منعوتا فى كتبهم ، فوعى ذلك ميسرة ثم انصرف أهل العير جميعا ، وكان ميسرة يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كانت الهاجرة واشتد الحر يرى ملكين يظلانه من الشمس وهو على بعيره ؛ وكان الله عز وجل قد ألقى على رسول الله المحبة من ميسرة فكان كأنه عبد لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وباعوا تجارتهم وربحوا ضعف ما كانوا يربحون ، فلما رجعوا فكانوا بمر الظهران (واد قريب من مكة) قال ميسرة : يا محمد انطلق إلى خديجة فأخبرها بما صنع الله لها على وجهك فإنها تعرف لك ذلك ، فتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل مكة فى ساعة الظهيرة — وخديجة فى علية لها معها نساء فيهن نفيسة بنت منية — فرأت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل

وهو راكب على بعيره وملكان يظلان عليه فأرته نساءها فعجبن لذلك ودخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فخبرها بما ربحوا فسرت بذلك ، فلما دخل عليها ميسرة أخبرته بما رأت فقال لها ميسرة : قد رأيت هذا منذ خرجنا من الشام ، وأخبرها بقول الراهب نسطورا وقول الآخر الذى خالفه فى البيع ، وربحت تجارتها ضعف ما كانت تربح ، وأضعفت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعف ما سمت له .

وفى هذه الرواية ضروب من المعانى التاريخية ، فهى تذكر أن أبا طالب هو الذى رغب إلى محمد صلى الله عليه وسلم أن يعرض نفسه على خديجة بعد أن مهد لهذه الرغبة بعذره وقلة ماله وأن الزمان قد اشتد عليه والسنين المنكرة ألحت عليه وليس له مادة ثابتة فى بلده ولا تجارة بعيدة يرجوها ، وبين له أنه يحرص عليه أشد الحرص ويذكر وصية بحيرا الراهب له فى ألا يقدمه الشام حذر اليهود .

وهذا تصوير يقرب القصة من طبيعة النفوس والأشياء فيجعلها أقرب إلى الواقع التاريخى من تصوير رواية ابن إسحاق التى تقول إن خديجة هى التى بعثت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بادىء ذى بدء فعرضت عليه العمل فى مالها .

وفى هـذه الرواية أيضا لون من تصوير بعض خصائص الخلق الكريم الذى امتاز به محمـد صلى الله عليه وسلم ، فعمه قد عرض عليه رغبته وحفها بلونين من الترغيب والإغراء ، لون عاطفى ولون مادى ، فالعاطفى تمثل فى وصف حال أبى طالب من قلة المـال واشتداد الزمان وكلب السنين ، والمـادى تمثل فى إشعار محمد صلى الله عليه وسلم أنه لا يرضى له أجرا مثل أجر غيره من الرجال ، بل لا يرضى له بدون ضعف رجل من الرجال ، فـا كان محمد صلى الله عليه وسلم إلا أن رد على عمـه فى هدوء الرجل الذى يشعر أنه فوق هذه المغريات ، فـلا يعرض نفسه ولا يطلب من أحد شيئا إلا أن يكون مكرمة من مكارم الرجال ، وقد تلطف مع عمه وترك المجال فى يده واكتفى بقوله « فلعلها ترسل إلى فى ذلك » ولـكن أبا طالب حرصا على منفعة مواتية يخشى إن هو تأنى وتلبث أن تفوت فلا تعود أظهر تخوفه ذلك لمحمد صلى الله عليه وسلم عساه يبعث فيه شيئا من اللهفة والحرص على عرض نفسه كما طلب منه فقال له : إنى أخاف أن تولى غيرك فتطلب أمرا مدبرا .

وبقى محمد صلى الله عليه وسلم فى موقفه من العزة والتسامى فبلغ هذا الحوار خديجة فرأت منفذا أرسلت منه صوتها تدعو

محمدا صلى الله عليه وسلم وتعرض عليه العمل فى مالها فى إطار من التكريم والتعظيم يشعره أنها هى التى تتطلع إلى ذلك ولكنها ما كانت تعلم أنه يريده ، فلما بلغ أبا طالب ما كان بين محمد صلى الله عليه وسلم وخديجة من اتفاق فرح فرحا شديدا وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين لقيه : هذا رزق ساقه الله إليك .

وفى هذه الرواية أيضا ما يظهر من حرص عمومة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وحذرهم اليهود ، فقد علموا منذ سفرته الأولى وهو غلام فى رفقة عمه أبى طالب وكان فى العير معهم الحارث بن عبد المطلب من حديث الراهب بحيرا أن اليهود يعرفونه بأوصافه ويحسدونه على ما يؤتيه الله من فضله ، فهم يبغونه الغوائل لو قدروا عليه فمن هنا كان أعمامه يوصون به أهل العير فى هذه السفرة حتى يكون بنجوة من كيد اليهود، وقد قال له عمه أبو طالب ذلك فى صراحة حين عرض عليه أمر خديجة ولكنه اعتذر إليه أنه لا يجد بدا من سفره، وقد حفظ الله رسوله وأحاطه برعايته حتى كانت هذه السفرة بما كان فيها من الخير والبركة ذات أثر مبارك فى حياة محمد صلى الله عليه وسلم ، وذكر أبو جعفر الطبرى وابن كثير وابن سيد الناس عن ابن شهاب الزهرى أنه قال :

لما استوى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلغ أشده وليس له كبير مال استأجرته خديجة بنت خويلد إلى سوق حباشة وهو سوق بتهامة واستأجرت معه رجلا آخر من قريش فقال رسول الله وهو يحدث عنها : « ما رأيت من صاحبة لأجير خيرا من خديجة ما كنا نرجع أنا وصاحبي إلا وجدنا عندها تحفة من طعام تخبئه لنا » .

ولعل هذه الرواية تعني سفرة أخرى في مال خديجة قبل سفرة الشام التي اتفق عليها جميع الرواة ، فيكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد آجر نفسه من خديجة ليعمل لها في مالها تاجرا مرتين ، مرة إلى سوق حباشة بتهامة من أرض الجزيرة العربية وهي أولاهما وكان فيها غير منفرد بل كان له رفيق من قريش يشاركه في العمل ولعل هذا الرفيق هو الذي أشار إليه أبو طالب في قوله لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا ابن أخي قد بلغني أن خديجة استأجرت فلانا ببكرين ولا نرى لك بمثل ما أعطته .

ومرة أخرى إلى الشام ، وهي الثانية التي كان فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم مستقلا بالعمل وليس معه من جهة خديجة سوى غلامها ميسرة لخدمته ، ويرشح ذلك ما رواه البيهقي عن

جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « آجرت نفسى من خديجة سفرتين بقلوص » فهذا الحديث صريح فى أنه صلى الله عليه وسلم سافر فى مال خديجة سفرتين ، ولم تحدد فى الحديث الجهة التى كان إليها السفر ، ورواية الجمهور حددت الشام ، ورواية الزهرى حددت سوق حباشة بتهامة ، فتحمل كل سفرة على جهة بعينها لتتوافق روايات التاريخ ، وظاهر قول أبى طالب المتقدم أن خديجة كانت قد تعاقدت مع القرشى ليسافر بمالها بكرين ، فلما علمت بما دار بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمه وعرفت رغبة أبى طالب فى أن يلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العمل فى مالها ، واعتذرت عن سبقها إلى استئجار القرشى بقولها : ما علمت أنه يريد هذا ، لم تر مانعا من إشراك رسول الله صلى الله عليه وسلم مع القرشى اغتناما لفرصة استئجاره حتى إذا أتيحت لها فرصة استقلاله بالعمل أسرعت إلى انتهازها فى المرة الثانية وهى التى كان السفر فيها إلى الشام .

تزوج محمد صلى الله عليه وسلم خديجة رضى الله عنها

كان تقدير خديجة لمحمد صلى الله عليه وسلم تقديرا واقعيا دافعا لها على أن تفكر فى شأنه تفكيرا آخر أكبر من كونه عاملا فى مالها يتجر لها فيه فيربح ويربح ،إنها عرفت محمدا بما عرفه به قومه أمينا صدوق الحديث ، عزوفا عن الدنايا طموحا لعوالى الأمور ، متاسميا بنفسه عن مغامز المروءة ، كسوبا للخير بل هى قد عرفت محمدا أكثر مما عرفه قومه ،عرفته عاملا فى مالها وصحبه فى سفره غلامها الأمين ميسرة فحدثها عن أخلاق محمد صلى الله عليه وسلم فى السفر والعمل وحدثها عما شهد من دلائل مستقبل هذا الفتى الكريم ، وحدثها عن تنبؤات الرهبان ، وحدثها عن مظاهر رعاية الله تعالى له ، ورأت هى من مظاهر الرعاية ماعجبت منه نساءها وذكرت حديثا كان حدثها به يهودى فى نسوة اجتمعن معها فى عيد من أعياد قريش يتصل بمستقبل محمد صلى الله عليه وسلم فى الحياة ومستقبل الحياة على يد محمد

صلى الله عليه وسلم ، قال الزرقانى فى شرح المواهب : ذكر ابن اسحاق فى المبتدأ قال: كان لنساء قريش عيد يجتمعن فيه، فاجتمعن يوما فيه ، فجاءهن يهودى فقال يامعشر نساء قريش إنه يوشك فيكن نبي فأيتكن استطاعت أن تكون له فراشا فلتفعل فحصبنه وقبحنه وأغلظن له، وأغضت خديجة على قوله ولم تعرض فيما عرض فيه النساء ووقر ذلك فى نفسها ، فلما أخبرها ميسرة بما رآه من الآيات وما رأته هى قالت : إن كان ماقال اليهودى حقا ماذاك إلا هذا . ثم هى امرأة خلية من الزوج ، شريفة حسيبة ، ذات مال كثير ، يحتاج إلى يد أمينة تدبره وتنميه ومحمد صلى الله عليه وسلم فى ذروة الشرف من قومها ، أليس هو ابن عبد المطلب شريف قريش وسيدها ؟ وهو أنبل فتى وأعقله ، وأعظمه أمانة وأكمله مروءة ، وهو خلى لم يتزوج وقد بلغ سن اكتمال الشباب فما يمنعها أن تكون زوجا له وما يمنعه أن يكون زوجا لها ؟ فلتدس إليه صديقة من صديقاتها اللائى يتنسمن رغباتها فتلقى إليه هذه الرغبة إلقاء عارضا لتعرف مكانها من نفسه ، روى ابن سعد من طريق شيخه الواقدى عن نفيسة بنت منية قالت : كانت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى امرأة حازمة جلدة شريفة مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير، وهى

يومئذ أوسط قريش نسبا وأعظمهم شرفا وأكثرهم مالا ، وكل قومها كان حريصا على نكاحها لو قدر على ذلك ، قد طلبوها وبذلوا لها الأموال، فأرسلتني دسيسا إلى محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن رجع من عيرها من الشام ، فقلت : يا محمد : ما يمنعك أن تزوج ؟ فقال : « ما بيدى ما أتزوج به » قلت : فإن كفيت ذلك ودعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ، ألا تجيب ؟ قال « فمن هي ؟ قلت : خديجة ، قال وكيف لى بذلك ؟ قلت : على ، قال : فأنا أفعل ، فذهبت فأخبرتها ؛ فأرسلت إليه أن أئت لساعة كذا وكذا وأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها فحضر ودخل رسـول الله صلى الله عليه وسلم فى عمومته فزوجه أحدهم ؛ فقال عمرو بن أسد : هذا البضع لا يقرع أنفه . وتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن خمس وعشرين سنة وخديجة يومئذ بنت أربعين سنة ولدت قبل الفيل بخمس عشرة سنة .

فى هذه الرواية أن خديجة هى التى تسامت بالرغبة فى أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم زوجا لها فدست إليه صديقتها نفيسة بنت منية ، وفيها أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان واضح القصد ، واضح العذر فهو لم يتكلف التأبى على الزواج ولم يتظاهر بعدم حاجته إليه ؛ بل لعله أبدى أنه فى حاجة إليه ولكن يمنعه من

الإقدام أن يده لا تملك مايتزوج به . لقد وضح الطريق وسهلت مهمة الصديقة الأمينة. ودعى محمد -صلى الله عليه وسلم- إلى الجمال والمال والشرف والعقل والكمال . إلى خديجة بنت خويلد سيدة نساء العالمين فأجاب . كفءا كريما وزوجها عمها . وزوج محمدا صلى الله عليه وسلم عمه وكانت خديجة فى سن اكتمال الأمومة وكان محمد صلى الله عليه وسلم فى سن اكتمال الشباب . وفى هذا من أسرار الموافقات النفسية ما تضيق دون أدائه العبارة . لأن محمدا صلى الله عليه وسلم كان - بعد ماضى من عمره فيما قدر الله من ألوان الحياة الصارمة - إلى عاطفة الأمومة وحنانها وبرها أدنى منه حاجة إلى عاطفة الزوجة وحبها ، وخديجة كانت هى الزوجة فى حبها . وهى الأم فى حنانها وبرها . ومن ثم كانت خديجة امرأة واحدة لم تتكرر فى الحياة .

هذه الرواية فى تزوج محمد صلى الله عليه وسلم بخديجة هى أثبت الروايات وأوفاها وهى صريحة فى أن الذى زوجها منه هو عمها عمرو بن أسد . وهذا مروى فى حديث عروة عن عائشة وحديث عكرمة عن ابن عباس . فى حديث عائشة أن عمها عمرو ابن أسد زوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأن أباها مات قبل الفجار . وفى حديث ابن عباس : زوج عمرو بن أسد بن عبد العزى بن قصى

خديجة بنت خويلد النبي صلى الله عليه وسلم وهو يومئذ شيخ كبير لم يبق لأسد لصابه يومئذ غيره .

وروى البيهقي أن عمار بن ياسر كان إذا سمع ما يتحدث به الناس عن تزويج رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة وما يكثرون فيه يقول : أنا أعلم الناس بتزويجه إياها ، إني كنت له إلفا وخدنا ، وإني خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم حتى إذا كنا بالحزورة أجزنا على أخت خديجة وهي جالسة على أدم تبيعها فنادتني فانصرفت إليها ووقف لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : أما لصاحبك هذا من حاجة في تزويج خديجة ؟ قال عمار : فرجعت إليه فأخبرته فقال : « بلى لعمري » ، فذكرت لها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : اغدوا علينا إذا أصبحنا وغدونا عليهم فوجدناهم قد ذبحوا بقرة وألبسوا أبا خديجة حلة ، وصفرت لحيته ، وكلمت أخاها فكلم أباه ، وقد سقى خمرا فذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكانه وسأله أن يزوجه فزوجه خديجة وصنعوا من البقرة طعاما ، فأكلنا منه ونام أبوها ثم استيقظ صاحيا ، فقال: ما هذه الحلة ؟ وما هذه الصفرة ؟ وهذا الطعام ؟ فقالت له ابنته التي كانت قد كلمت عمارا : هذه حلة كساكها محمد بن عبد الله

ختنك ، وبقرة أهداها لك فذبحناها حين زوجته خديجة ، فأنكر أن يكون زوجه ، وخرج يصيح حتى جاء الحجر ، وخرج بنو هاشم برسول الله صلى الله عليه وسلم فجاؤوه فكلموه. فقال : أين صاحبكم الذى تزعمون أنى زوجته خديجة ؟ فبرز له رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما نظر إليه قال : إن كنت زوجته فسبيل ذلك ، وإن لم أكن فعلت فقد زوجته .

وروى الطبرى عن ابن شهاب الزهرى قال : وكان الذى زوجها إياه خويلد ، وكانت التى مشت فى ذلك مولاة مولدة من مولدات مكة ، وكذلك عند ابن اسحاق ، فقد جاء فى روايته: لما أخبرها ميسرة بما أخبرها بعثت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له ــ فيما يزعمون ــ يا ابن عم إنى قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك فى قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك ، ثم عرضت عليه نفسها ، وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسبا وأعظمهن شرفا وأكثرهن مالا ، كل قومها كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر عليها ، فلما قالت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر ذلك لأعمامه ، فخرج معه حمزة بن عبد المطلب عمه حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه فتزوجها .

وقد ساق ابن سعد فى الطبقات رواية البيهق مختصرة عن أبى مجلز فقال : إن خديجة قالت لأختها انطلق إلى محمد فاذكرينى له ، وإن أختها جاءت فأجابها بما شاء الله ، وأنهم تواطؤوا على أن يتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن أبا خديجة سقى من الخمر حتى أخذت فيه ثم دعا محمداً صلى الله عليه وسلم فزوجه ، وألقيت على الشيخ حلة فلما صحا قال : ما هذه الحلة ؟ قالوا : كسا كها ختنك محمد صلى الله عليه وسلم فغضب وأخذ بنو هاشم السلاح وقالوا : ما كانت لنا فيكم رغبة ، ثم إنهم اصطلحوا بعد ذلك .

قال ابن سعد : أخبرنا محمد بن عمر ـ الواقدى ـ بغير هذا الإسناد أن خديجة سقت أباها الخمر حتى ثمل ونحرت بقرة وخلقته بخلوق وألبسته حلة حبرة ، فلما صحا قال : ماهذا العقير ؟ وماهذا العبير ؟ وما هذا الحبير ؟ قالت : زوجتنى محمدا صلى الله عليه وسلم قال : ما فعلت ، أنا أفعل هذا وقد خطبك أكابر قريش فلم أفعل. قال الواقدى: فهذا كله عندنا غلط ووهل (وهم وضعف) والثبت عندنا المحفوظ عن أهل العلم أن أباها خويلد بن أسد مات قبل الفجار وأن عمها عمرو بن أسد زوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ونقد الواقدى منصب على جميع الروايات التى أسندت تزويج خديجة من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبيها خويلد وهو نقد تاريخى ينسفها نسفا ولا يقيم لها وزنا ولو لم ينهض الواقدى به لنادى بزيفها ما فيها من تدليس وخداع تأباه أخلاق العرب عامة وتنأى عنه مكارم محمد صلى الله عليه وسلم وتساميه عن هذه الأساليب المدلسة التى لم يعرف عنه فى حياته أنه سلك قط سبيلها أو حام حولها .

قال الزرقانى فى شرح المواهب : وفى سيرة الزهرى — وهى أول سيرة ألفت فى الإسلام أنه صلى الله عليه وسلم قال لشريكه الذى كان يتجر معه فى مال خديجة : هلم فلنتحدث عند خديجة ، وكانت تكرمهما وتنفهما ، فلما قاما من عندها جاءت امرأة فقالت له : جئت خاطباً يا محمد ؟ قال : كلا قالت : ولم ؟ فوالله ما فى قريش امرأة وإن كانت خديجة إلا تراك كفؤا لها ، فرجع صلى الله عليه وسلم خاطباً لخديجة مستحياً منها .

وهذه المرأة المذكورة فى هذه الرواية تحتمل أن تكون هى أخت خديجة المذكورة فى رواية عمار بن ياسر ، ويحتمل أنها هى نفيسة بنت منية ، ويحتمل أنها المولدة المذكورة فى رواية

الزهرى عند الطبرى ، وهذا أقرب الاحتمالات لاتفاق مصدر الروايتين فيحمل المطلق منهما على المقيد ، ويرد المبهم إلى المفسر.

وهذه الرواية تشير إلى أن حديثها مشى به المتصلات بخديجة من صواحباتها فأرادت هذه المرأة الوسيطة أن يكون الهمس جهراً والرغبة حقيقة واقعية ، فحدثت محمداً صلى الله عليه وسلم إثر خروجه وصاحبه من عند خديجة لتشعره بالرغبة فيه حتى يقدم فى غير تردد ، وجعلت خديجة مثلا فى رفعة الشرف ، وهى تقصدها بالحديث قصداً لا يشرك معها غيرها ، ولكنها صاغت قصدها فى عبارة لا يدرك لحنها الا المفردون من الحذاق ، ولما أدرك محمد صلى الله عليه وسلم قصدها أدركه من الحياء ما يدرك الرجل الكريم ، فرجع على استحياء منه خاطبا خديجة ، وعند ابن سعد أن خديجة قالت له : اذهب إلى عمك فقل له : عجل إلينا بالغداة ، فلما جاء قالت : يا أبا طالب ادخل على عمى فقل له يزوجنى من ابن أخيك ، فقال أبو طالب. هذا صنع الله .

وذكر المبرد أن أبا طالب خطب خطبة الإملاك فقال : الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع اسماعيل وضئضىء (أصل) معد ، وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته ، وسواس

حرمه وجعل لنا بيتا محجوجا وحرما آمنا ، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لا يوزن برجل إلا رجح به ، فإن كان فى المال قل فإن المال ظل زائل وأمر حائل ، ومحمد من قد عرفتم قرابته ؛ وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها ما آجله وعاجله من مالى عشرين بكرة ؛ وفى رواية : وقد بذل لها من الصداق اثنتى عشرة أوقية ذهباً ونشا أى نصف أوقية ، ووفق بعضهم بأن أبا طالب دفع البكرات من ماله ودفع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذهب من عنده فكان الجميع صداقا لها ؛ ثم قال أبو طالب : وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطار جليل فزوجها .

وفى المنتقى : فلما أتم أبو طالب الخطبة تكلم ورقة بن نوفل ـ وكان حاضرا فى رؤوس مضر ـ فقال : الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت وفضلنا على ما عددت فنحن سادة العرب وقادتها . وأنتم أهل ذلك كله لا تنكر العشيرة فضلكم ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم . وقد رغبنا فى الاتصال بحبلكم وشرفكم فاشهدوا على معاشر قريش بأنى قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد ابن عبد الله على أربعمائة دينار . ثم سكت فقال أبو طالب : قد أحببت أن يشركك عمها ؛ فقال عمها : اشهدوا على يا معشر

قريش أنى قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد . وشهد على ذلك صناديد قريش .

وورقة ابن عم خديجة ومن أشراف قومها وذوى أسنانهم فلا غرابة أن يقدموه فى الرد على خطبة أبى طالب . وكأنما أحب أبو طالب أن يوثق العقد ويؤكد الرضا منهم فأحب أن يشارك عم خديجة ابن عمها فأسرع عمها إلى اجابة أبى طالب إلى طابته . وفى رواية أن أخاها عمرا هو الذى تولى زواجها .

والناظر فى هذه الروايات يرى أن بعضها يكمل بعضا وأن الرواة لما اختلفت مصادرهم اختلفت عباراتهم وأخذ كل راو بطرف من القصة وحكاه كما سمع .

وقد أولم رسول الله صلى الله عليه وسلم على زواجه بخديجة وفرحت خديجة بهذا الزواج فرحا شديداً . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تزوجها ذهب ليخرج فقالت له : إلى أين يا محمد اذهب وانحر جزوراً أو جزورين وأطعم الناس، ففعل . وقال فى المنتقى : فأمرت خديجة جواريها أن يرقصن ويضربن بالدفوف . وقالت : مر عمك ينحر بكرا من بكراتك وأطعم الناس . وهلم فقل مع أهلك فأطعم الناس ودخل صلى الله عليه وسلم فقال معها . فأقر الله عينه . وفرح أبو طالب فرحا شديداً وقال : الحمد لله الذى أذهب عنا الكرب ودفع عنا الهموم .

ظاهرتان فى حياة محمد صلى الله عليه وسلم

الظاهرة الأولى : شظف العيش

ظاهرتان اجتماعيتان كانتا تسودان حياة محمد صلى الله عليه وسلم منذ أن ولد ثم نهد فشب عن الطوق واستوى غلاما يافعا فى شباب قريش وفتى سويا بين فتيانهم الى أن اقترن بزوجه النبيلة الطاهرة الأمينة الوفية السيدة خديجة بنت خويلد . وسنه إذ ذاك على أرجح روايات التاريخ خمس وعشرون سنة .

أما الظاهرة الأولى فهى ظاهرة اجتماعية تسم البيئة العربية كلها بميسمها . وتعنون الحياة فيها بعنوانها . فهى إليست من الظواهر التى تعد من خصائص محمد صلى الله عليه وسلم فى شبابه إلا كما يحمل الفرد عنوان الجماعة لكونه منها بمكان الطرة من الكتاب . تلك هى ظاهرة شظف العيش وقلة ما فى اليد من حطام الدنيا . فقد ولد محمد صلى الله عليه وسلم يتيما لم يرث من أبيه غير خمسة أجمال وغنيمة وجارية وهذا شيء ضئيل

بالنظر لما كانت تضطرب به مكة عامة وقريش خاصة من أموال مؤثلة أو تجارات مدبرة تدر الربح فى المواسم والأسواق ، وقد عرف التاريخ أن أظآر بنى سعد ومرضعات هوازن أعرضن عن محمد صلى الله عليه وسلم وهو ملفف بلفائفه فى مهده ، وقلن : يتيم لا مال له ، فما عسى أن تصنع لنا أمه أو جده ، وعرف التاريخ أن جده وعمه كفلاه حتى اشتدت قناته فآجر نفسه يرعى غنم أهله ، وعرف أنه بعد ذلك آجر نفسه من خديجة ليعمل فى مالها تاجرا لها ، فليس فى تاريخ شباب محمد صلى الله عليه وسلم فترة تغير فيها وضعه المادى ، بل ظل على حالة واحدة لازمته منذ ولادته ، بل ربما كانت حاله فى طفوليته أيسر منها فى شبابه .

ولهذه الظاهرة أثرها العميق فى تمحيص الإنسانية العليا فى الأفراد الذين تلزمهم أيام شبابهم ، وهى أيام اجتماع قوى الاندفاع وعناصر الهوى النفسى ، ونزغات المراهقات ومنافذ الغرائز المادية النهمة ، ومسارب استطالة الشباب وطموحه ، وهو تمحيص شاق أشد المشقة ولا تصبر له إلا نفس قوية التركيب البنائى فى جوهر تكوينها ، ومن ثم كانت مثله

التاريخية آحادا من الأفذاذ فى القرون والحقب ، ومن عجائبه أنه يتجاوب فى يسر مع النزعات الدينية الداعية إلى الإيمان بالغيب ، فتكثر نسبيا أمثلته من النماذج الإنسانية الحية فى أوقات تسود فيها الروحانية ، فإذا عاشت شخصية إنسانية فى عصر مادى وبيئة مادية ، وحياة مادية ، ثم تعرضت لهذا الامتحان الفاتن الممحص وخرجت منه كما خرج محمد صلى الله عليه وسلم فى شبابه أكمل الناس إنسانية وأعظمهم خلقا وأضخمهم أمانة ، وأبعدهم عما يشين مروءة الرجال ، حتى ما يستطيع عدو بله وليا أن يقول فيه لو ولا وليت ، ومن ثم كانت هذه الشخصية هى النموذج الأعلى لكمال خصيصة الإنسانية العليا فى فرد من بنى الإنسان .

الظاهرة الثانية

تكافؤ الخلق

أما الظاهرة الثانية فهى ظاهرة التكافؤ الخلق فى شخصية محمد صلى الله عليه وسلم ، ونعنى بالتكافؤ الخلقى أن أخلاق محمد صلى الله عليه وسلم كانت كلها تنبع من فطرته بنسب متفقة متساوية، فصبره مثل شجاعته ، وشجاعته مثل كرمه ، وكرمه مثل حلمه ، وحلمه مثل رحمته ،ورحمته مثل مروءته، وهكذا لا تجد له خلقا فى موضعه من الحياة يزيد أو ينقص على خلق آخر فى موضعه منها ، ومن هنا كان جماع أمره عند قومه « الأمين » وهذا اسم يمثل التكافؤ الخلقى أصدق تمثيل .

هذا التكافؤ الخلقى فى وجوده الواقعى ، فى شخصية محمد صلى الله عليه وسلم يوشك أن يكون معجزة الحياة فى الإنسان ، لأن التاريخ لم يذكر من النماذج العليا للبشرية من كان هذا التكافؤ الخلقى خليقته العامة سوى محمد صلى الله عليه وسلم ، وإذا ذكر التاريخ غيره من النماذج العليا ذكره عنوانا لتبريز جزئى فى بعض الأخلاق والفضائل ، فهذا مثل مضروب

فى الصبر ، وذاك فى الحلم ، وثالث فى الكرم، ورابع فى الشجاعة وهكذا تتفرق النهايات فى الأخلاق والفضائل فى نماذج متعددة ولكنها تجتمع متكافئة فى شخصية محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا هو سر الإعجاز الإنسانى فى حياته صلى الله عليه وسلم.

وهذا التكافوء الخلق فى وجوده الواقعى فى شباب محمد صلى الله عليه وسلم معجزة الإنسان فى الحياة لأن الشباب معترك الغرائز، وهى مختلفة الأغراض والغايات، فالتكافوء الخلق فى الشباب ضرب من المحالات فى متعارف الحياة، فإذا حققه الوجود الواقعى فى شباب محمد صلى الله عليه وسلم كان وجوده معجزة الإنسان فى الحياة.

وهذا التكافوء الخلق فى وجوده الواقعى فى شباب محمد صلى الله عليه وسلم مع ملازمة الظاهرة الاجتماعية الأولى لحياته، فى شبابه ضرب آخر من الإعجاز الإنسانى فى الحياة لأن تلك الظاهرة الإجتماعية كانت قمينة أن تدفع الشباب إلى طيش الغرائز، فتنقلب به الفضائل إلى رذائل جامحة، فوجود ضابط نفسى يعصم الإنسان من الانزلاق وراء تيارات الغرائز فى إبان قوتها العارمة هو الآية الكبرى على أن التكافوء الخلق الذى ينبع منه ذلك الضابط النفسى ليس من صنع الإنسان.

والتكافوء الخلق بهـذا المقياس لم تعرفه الحياة الواقعية لإنسان غير محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو فى شباب محمد صلى الله عليه وسلم مفطور مجبول ، لم يصنعه علم ولا تثقيف لأن بيئة محمد صلى الله عليه وسلم فى شبابه لم تكن بيئة علم وثقافة ، ومن الطبيعى أن تكون ثمرات هذا التكافوء الخلق محدودة بحدود البيئة التى عاش فيها ،حتى إذا أتيح له أن يمتد ويتسع مع الرسالة العامة الخالدة امتد واتسع فكان هو العنوان الذى رسم به القرآن الكريم الفضيلة العليا فى حياة محمد صلى الله عليه وسلم فقال فى معرض الرد عنه مدافعا ومادحا « وإنك لعلى خلق عظيم » وهذا التعبير فى موضعه يكافىء تعبير الفطرة الملقى على ألسنة قومه فى تسميته (الأمين) فكما مثل (الأمين) التكافؤ الخلقى هناك أصدق تمثيل، مثله هنا ـ أى فى دور الرسالة العامة الخالدة ـ (الخلق العظيم) أصدق تمثيل ، والفرق بين التعبيرين هو الفرق بين محمد المرسل رحمة للعالمين ، ومحمد الشاب الأمين ،وفى تعبير القرآن الكريم إشارة إلى عمل فى التكافؤ فوق عمل الفطرة والجبلة ، وهو أثر النبوة والرسالة ، وهو معنى ما يشير إليه الحديث الشريف الذى رواه ابن الأثير فى البداية من قوله

صلى الله عليه وسلم (أدبني ربي فأحسن تأديبي) ولهذا الكلام بقية تذكر في شيء من التفصيل المقرون بالأمثلة الواقعية عند الحديث عن أخلاق محمد رسول الله صلى عليه وسلم ، وإنما قصدنا هنا إلى الإشارة العابرة لنبين أن الخلق الأصيل النابع من الفطرة يستطيع أن يتغلب على الظواهر الإجتماعية ويوجهها في طريق الفضيلة ، حتى تصبح تلك الظواهر عند صاحب هذا الخلق الأصيل النابع من الفطرة فضيلة من فضائله .

هكذا يصور التاريخ الواقعي شخصية محمد صلى الله عليه وسلم في شبابه، حتى تزوج خديجة ، وهي امرأة حسيبة شريفة كثيرة المال ،عرفت محمداً صلى الله عليه وسلم في شظف عيشه وقلة ذات يده ، وعرفته في تكافئه الخلقي ، فرغبت فيه لهذه المعرفة وتزوجته بعد هذه المعرفة فأصبح -عرفا- مالها ماله وثراؤها ثراءه : وغدا محمد صلى الله عليه وسلم بين عشية وضحاها من أغنياء قريش ، وذوي ثرواتها ، ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم ظل بعد هذا الثراء الغامر كما كان منذ ولد ونهد وشب يعيش

فى شظف عيشه لا من قلة المـال فى يده ، بل لأن خصيصة التكافؤ الخلق عنده طبعته على الزهادة فى الحياة المادية المترهلة التى كانت تحياها مكة وتعيش فيها قريش ، وطبعته على التسامى بنفسه عن المطامع التى تتحلب لها أشداق الماديين إذا هبط عليهم الثراء من غير كد ولا تعب ، فعمل التكافؤ الخلق هنا أبلغ من عمله هناك ، لأن حياة محمد صلى الله عليه وسلم قبل زواجه خديجة كانت حياة تقلل من الدنيا ، لأنها كانت فى يده قليلة ، أو لأنه لم يكن فى يده منها شىء ، فالفضيلة فيها فى قـوة الصبر على عـدم التطلع إليها وتطلبها بمـا يميل بميزان التكافؤ الخلق فيبطل عمـله ، وحياته بعـد زواج خديجة حياة تقلل من الدنيا وهى ملء يده ، فالفضيلة فيها فى قوة الصبر معها عن الانزلاق فى غمرات المـادية التى تدفع إلى الانزلاق فيها البيئة ومؤثراتها .

ومضى محمد صلى الله عليه وسلم فى حياته الجديدة أمينا مع نفسه ، أمينا مع قومه ، أمينا مع زوجه ، أمينا لمـاضيه ، أمينا لمستقبله ، وبقى يعيش فى ظاهرتيه من شظف العيش والتكافؤ الخلق حتى كأن آخر حياة شبابه منهما صورة من أولها ، وظل يتجر فى مال زوجه خديجة ، ولكن التاريخ لم يحدثنا عن رحلات له خارج جزيرة العرب بعد زواجه ، وحدثتنا الروايات أنه كان

يأتى المواسم والأسواق الداخلية ، يبيع ويشترى ، ويلتمس معاشه فيها ، فقد روى ابن كثير فى مساءلة قريش وتعنتهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بطلاب أنواع من الآيات وخوارق العادات على وجه العناد أنهم قالوا : إن كنت رسولا - كما تزعم - فاسأل ربك أن يجعل لنا جنانا وكنوزا وقصورا من ذهب وفضة ويغنيك عما نراك تبتغى ، فإنك تقوم فى الأسواق وتلتمس المعايش كما نلتمسها حتى نعرف فضل منزلتك من ربك . وفى أحاديث قس بن ساعدة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قبل البعثة يرد أسواق العرب عكاظ وذا المجاز ومجنة وأنه رأى قسا فيها وسمع كلامه وهو يدعو الناس ويذكرهم نبيا أظلهم وقته ودينا خيرا من دينهم .

وقد ذكرنا فيما سبق حديث أبى سفيان وقصته مع أمية ابن أبى الصلت وأنه قدم إلى مكة بعد سفره إلى اليمن تاجرا فقال: فبينا أنا فى منزلى جاءنى الناس يسلمون على ويسألون عن بضائعهم حتى جاءنى محمد بن عبد الله - وهند عندى تلاعب صبيانها - فسلم على ورحب بى وسألنى عن سفرى ومقامى ، ولم يسألنى عن بضاعته ، ثم قام فقلت لهند : والله ان هذا ليعجبنى ، ما من أحد

من قريش له معى بضاعة إلا وقد سألنى عنها . وما سألنى هذا عن بضاعته . قال أبو سفيان : فبينا أنا أطوف بالبيت إذ بى قد لقيته فقلت له : إن بضاعتك قد بلغت كذا وكذا وكان فيها خير فأرسل من يأخذها ولست آخذ منك فيها ما آخذ من قومى فأبى على . وقال : إذن لا آخذها . قال : فأرسل فخذها وأنا آخذ منك مثل ما آخذ من قومى فأرسل إلى بضاعته فأخذها وأخذت منه ما كنت آخذ من غيره .

فهذا ونحوه صريح فى أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان فى هذه المدة التى تقع بين زواجه وبعثته يتسبب لمعاشه بالتجارة على نهج قومه فيها . يباشرها بنفسه فى الأسواق الداخلية ويؤاجر عليها أهل المعرفة فى الرحلات الخارجية إلى اليمن أو الشام . ولم نر فى شىء من الروايات أنه اشتغل بشىء آخر غير التجارة فى التماس معاشه بعد زواجه . وكان كلما تقدمت به الحياة ازداد انطواء عن حياة الناس وحبب إليه الاعتزال والتنسك . فكان يتنسك فى غار حراء يطعم المساكين ويفكر فى جلال الوجود وعظمة الكون . ويتأمل فيما حوله من حال قومه وإغراقهم فى وثنيتهم البليدة وماديتهم المظلمة . وينظر فيرى فى طيات هذه الكسف الحالكة ومضات من نور تلمع

هنا وهناك فى أشخاص هؤلاء المتحنفين ممن خالطوا أهل الكتاب فسمعوا عن الدين الحق شيئا فطلبوه عندهم فلم يجدوا معهم إلا أخلاطا من تحريفات وتأويلات فاسدة لبست الحق بالباطل.

وطلبوه فى مجالات عقولهم وفطرهم فقصرت بهم عن الغاية. ولكنها رفعتهم من حضيض الوثنية إلى ضرب من المعرفة الحائرة أرفع درجاتها ما يتمثل فى قول زيد بن عمرو بن نفيل: اللهم إنى لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ولكنى لا أعلم. ثم يسجد على راحته. وكان زيد أمثل الطائفة وأعدلها أمرا. وقد كان شام اليهودية والنصرانية فلم يرض شيئا منهما وكان يقول: آمنت بما آمن به ابراهيم. ويقول: أنفى لك عان راغم مهما تجشمنى فإنى جاشم. وقد شهد له النبى صلى الله عليه وسلم أنه يبعث يوم القيامة أمة وحده.

تعبده صلى الله عليه وسلم قبل البعثة

والذى يلفت النظر ويدعو إلى التأمل أن تتضافر روايات التاريخ عن ورقة بن نوفل وتنصره وزيد بن عمرو وتحنفه. وقس بن ساعدة وترهبه. وأمية بن أبى الصلت وتطلعه. ولكنها تسكت عن محمد صلى الله عليه وسلم فى هذه الفترة من شبابه. فلا تذكر عنه الا أنه كان من نسك قريش. يخلو بغراء حراء يتعبد فيه الليالى ذوات العدد

يطعم من جاءه من المساكين حتى إذا قضى تحنثه نزل فطاف بالبيت ثم ألم باهله وتزود لمثلها ، وعاد إلى معتكفه ، ومن هنا تعددت أقاويل العلماء وروايات التاريخ فى تعبده،على أى نهج كان ؟ هل كان بطريق الاستغراق فى التفكير والتأمل فى ملكوت الله تعالى ، ومظاهر الوجود وعجائبه مما يقطع العقل أنه لا يكون إلا عن قدرة قاهرة وإرادة مدبرة ، وحكمة سامية ، والخلوة فى الغار مما يساعد على ذلك ويكشف عن البصائر أسجاف القيود والحدود ، ويعبر بها إلى آفاق الحقائق العليا حيث الدلائل القاهرة على وجود الله ووحدانيته وصمديته، وهذا هو الذى جنح إليه جمهور الأمة . وحذاق العلماء من السلف والخلف ، قال الزرقانى فى شرح المواهب : ولم يأت تصريح بصفة تعبده بحراء ، فيحتمل أنه أطلق على الخلوة بمجردها تعبدا ، فإن الانعزال عن الناس ولا سيما من كان على باطل عبادة ، وعن ابن المرابط وغيره أنه صلى الله عليه وسلم كان يتعبد بالفكر ، وهذا هو قول الجمهور . وقال أيضا : وفى تعبده قبل البعثة بشريعة أم لا قولان ، الجمهور على الثانى،أى أنه كان يتعبد بالفكر والاجتهاد فيما يصل إليه فكره من تقديس الله تعالى،وقال ابن كثير : وقد اختلف العلماء فى تعبده عليه السلام

قبل البعثة ، هل كان على شرع أم لا ؟ وما ذلك الشرع ؟ فقيل شرع نوح ، وقيل : شرع ابراهيم ، وهو الأشبه الأقوى ، وقيل : موسى ، وقيل : عيسى وقيل : كل ما ثبت أنه شرع عنده اتبعه وعمل به .

وهذا القول الأخير - وإن رجحه بعض الباحثين - لا طائل تحته ، لأن الشرع هو ما شرع الله لأنبيائه ورسله بطريق الوحى إليهم ، ولم يعرف فى جزيرة العرب شرع أوحى الله به إلى رسول من أنبيائه وبقيت معالمه فى أحاديث الناس التى يأثرونها سوى ما عرف من شرع ابراهيم وإسماعيل وأثرهما الخالد ببناء الكعبة المشرفة وجعلها بيتا لله تعالى محجوجا ، يتعبد الناس بالطواف حوله والدعاء والتضرع عنده .

وسوى ما عرف من شريعة موسى وعيسى عليهما السلام عن طريق اليهود والنصارى الذين كانوا يتوطنون أماكن من الجزيرة العربية فى شمالها وجنوبها ، وكانوا يتحدثون عن شرائعهم متفاخرين بها على وثنية الجمهرة من العرب .

ولا طريق لإثبات شرع إلهى فى هذه الجزيرة الحبيسة . بجبالها ووديانها وصحاريها القاحلة الجرداء غير ما كان يسمع من أفواه المتحنفين الذين كانوا يتطلعون بفطرهم - التى أنكرت

سخف ما كان من انحدار العقلية الجاهلية عند سواد الناس إلى وثنية بليدة مزرية بالعقل الإنسانى - إلى لون من الهداية يرقى بعقولهم عن مستوى التعبد للأحجار والأشجار .

وغير ما كان يتحدث به رهبان النصارى وأحبار اليهود من أقاويل عن شرائعهم تحدثا يغلفها بالتحفظ والغموض .

ونحن نميل مطمئنين إلى أن تعبده صلى الله عليه وسلم فى خلواته واعتزاله قبل مبعثه كان أساسه التفكر فى آيات الله الكونية والتأمل فى مظاهر الطبيعة ودلائل الإبداع الإلهى فى نظام الوجود ، وسيره على سنن متناسقة مقدرة ، تدل على حكمة التدبير والإبداع .

وكان فى جانب منه قائما على أساس ما ثبت عنده صلى الله عليه وسلم من معالم الحنيفية ملة جديه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، ودليل ذلك القاطع ماالتزمه صلى الله عليه وسلم من تعظيم الكعبة المشرفة والطواف بها على رغم ما كانت تعج به ساحتها من الأصنام والأوثان التى كانت أبغض شيء إلى نفسه المطهرة، ولم يمنعه هذا البغض للأصنام والأوثان من التمسك بما ثبت عنده

من شرعة تعظيم بيت الله المحرم الذى رفع قواعده جداه ابراهيم وإسماعيل عليهما السلام .

وهذا التعظيم للبيت لم يكن من قبيل عبادة التفكر التى أساسها سبحات العقل فى مظاهر الكون وآياته الباهرة ؛ وإنما كان من قبيل اتباع ملة ابراهيم فيما عرف أنه بقى منها فى أعمال الناس وأذهانهم .

والعقل فى منطقه بمعزل عن إدراك شرعية هذا الجانب من هذا التعبد وحكمته ؛ فهو تعبد على شرعه الله فى ملة إبراهيم عليه السلام وعرفه محمد صلى الله عليه وسلم قبل بعثته واطمأنت نفسه إلى شرعيته ؛ فعبد الله به كما عبده بمحض التفكر والتأمل فى بديع جلال الكون وما أودع الله فيه من آيات حتى جاءه الحق ؛ وبعثه الله رسولا إلى الناس كافة بشيرا ونذيرا ؛ وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ؛ على رأس أربعين سنة من عمره الشريف المبارك ؛ فصلوات الله وتسليماته وبركاته عليه وعلى آله الأطهار ؛ وأصحابه الأخيار ما تعاقب الليل والنهار . ؟

محمد الصادق عرجون

كلمة الإشراف

عزيزى القارىء

يحلو لأسرة الإشراف الفنى على سلسلة البحوث الإسلامية أن تقدم لك تهنئتها الحارة فى نهاية شهر الصوم الكريم ، مصحوبة بطبق التحلية الأخير من أطباقها الشهية التى قدمتها لك ، دسمة شيقة فى احتفالها بشهر رمضان المبارك ، ولا غرو أن يكون طبق التحلية الأخير إنما هو مسك الختام لأعطر سيرة من سير أعظم الرجال الأبطال التى خطها التاريخ بحروف من نور فى صفحاته البيضاء على مر السنين والأيام .. تلك هى سيرة محمد صلوات الله وسلامه عليه من نبعته إلى بعثته ، وكيف غيرت ملامح البسيطة ووجه التاريخ .

نقدمها لك ياعزيزى القارىء ولسوف نترك الحكم لك على الجهد المتواضع والعمل الشاق الذى بذل فى إخراج هذه الأعداد الخاصة بهذا الشهر الكريم .

وليس لنا من أمل أو رجاء إلا أن نحافظ على ما أوليتنا من ثقة وما حزناه من تقدير وإعجاب فى هذه الفترة الوجيزة التى خطت فيها السلسلة أشواطا بعيدة إلى الأمام .

وإنه ليسر أسرة الأشراف الفنى غاية السرور أن تستمع إلى ملاحظاتك وتوجيهاتك والحوار البناء معك حتى نصل إلى ما تصبو إليه من قرب الكمال عاملين بتوجيهات فضيلة الأستاذ الدكتور الأمين العام تحت رعاية الأب العالم المسلم الأستاذ الدكتور وزير الاوقاف وشئون الازهر فى ظل الرئيس المؤمن رائد دولة العلم والإيمان .

طلعت غنام

رقم الإيداع ٥٧٧٩ لسنة ١٩٧١ م

الفهرس

محمد صلى الله عليه وسلم

من نبعته إلى بعثته

تأليف الشيخ

محمد الصادق عرجون

من كبار علماء الأزهر الشريف

(ت: ١٤٠١هـ - ١٩٨٠م)